رواية

رجل واحد لأكثر من موت

محمد جبعيتي

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

رجل واحد لأكثر من موت

محمد جبعيتي

رجل واحد لأكثر من موت

روايـــة

دار الفارابي

الكتاب: رجل واحد لأكثر من موت

المؤلف: محمد جبعيتي

صورة الغلاف بعدسة **Michael Zahornacky**

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: شباط ٢٠١٧

ISBN: 978-614-432-712-8

© **جميع الحقوق محفوظة**

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

الإهداء ٩

الجزء الأول ١١

الجزء الثاني.. ١٢١

الجزء الثالث.. ١٣٩

الجزء الرابع.. ٢١٥

الإهداء

إلى الكائنات الوحيدة في هذا العالم: عشّاق الكتب والأساطير والموسيقى والقهوة والليل.

إلى التي قالت لي: لا تتوقف عن الكتابة، ستصبح كاتبًا عظيمًا. لتموت بعد عدة أيام وتحمّلني عبء المواجهة وقسوة الغياب.

إلى أصدقائي: علاء دبعي، محب مدلل، مجدي صبحة ومحمود ترابي.

إلى فلورنسا، المدينة التي عشت فيها أجمل سنوات حياتي.

الجزء الأول

(١)

ـ ستموت.

ـ ماذا؟

ـ ستموت. إنني لا أمزح معك يا كاظم.

صعقت بكلامه، إذ إن ملامحه كانت في غاية الجدية.

ـ لماذا تحدثني بذلك؟ أنت تتلاعب بأعصابي.

وصل ليوناردو قبل التاسعة صباحًا. رجل طويل القامة، قوي البنية، يرتدي معطفًا أسود، ووشاحًا أحمر، ويعتمر قبعة. دخل إلى الصالون، بعد أن علّق معطفه على المشجب. يتكون الصالون من أرائك بنيّة اللون، ومكتبة ذات رفوف قديمة، وطاولة متواضعة في الوسط، إضافة إلى نثريات وتحف ولوحات. جلس على إحدى الأرائك، دون أن يؤدي التحية. كان متجهمًا، وصامتًا، حدّق إلى عيني دون أن يزحزح نظره عنهما.

ـ ليوناردو، ما بك؟

ـ أنتَ الذي ما بك؟

ـ لماذا تجيب عن السؤال بسؤال؟ أنا بخير، لا شيء يدعو إلى القلق.

عاد ووقف من جديد، ثم اتجه نحو المكتبة، رغم أنه قد رآها غير مرة.

ـ أما زلت تكره إعارة كتبك لأصدقائك؟

ـ القضية ليست لها علاقة بالحب أو الكره. إن الكتاب الذي نقرأه طوال أيام، ونحمله معنا إلى أماكن عملنا واستراحاتنا وأسرَّتنا، تنشأ بيننا وبينه علاقة حميمة، إذ يصبح جزءًا لا يتجزأ من حيواتنا. إننا نفرح، ونبكي، وقد نرقص عند قراءة بعض الجمل. على الخصوص، في الروايات حيث ندخل إلى عوالم، ونتفاعل مع شخصيات، دافعة بنا إلى التماهي مع ما نقرأ.

ـ وللروائيين فلسفتهم التي نعجز عن فهمها.

ـ منذ دخلت وأنت لست على طبيعتك، وكلامك تُرّهات. أنت أيضًا رسام، وتعرف هذه الأمور. أذكر أنك قلت لي بأن اللوحة التي ترسمها بمشاعرك، لا يمكن أن تبيعها لإنسان. ثمّة لوحات للشغل، ولوحات ترسمها بأعصابك ودمك.

ـ فيرو، صحيح، لكني لم آتِ من أجل الحديث في الفن.

حلّ صمت ثقيل في الغرفة.

عرفت ليوناردو في أحد المعارض الفنية، كان اقتراح دافني

بالذهاب، ولم تكن بحاجة إلى إقناعي، لأنني كنت أنفّذ كل طلباتها. ليوناردو من أكثر الفنانين التشكيليين نجاحًا في إيطاليا، ومعروف عالميًا، إذ تزدحم معارضه بالزائرين، كما أنه يبيع عددًا كبيرًا من لوحاته، بمبالغ مرتفعة. لم يدخل مدرسة أو كلية لتعليم الفن التشكيلي، بل درس إدارة الأعمال. كان يقول إن الرسم هواية، ويجب أن يظل كذلك، حين ندرس الفن ونجري فيه محاضرات واختبارات، فإنه سيتحول مثل غيره من الحقول الأكاديمية إلى مواد جافة، لا روح فيها.

اكتفى بالتعليم الذاتي، إضافة إلى بعض الدورات. في الثانية والثلاثين من عمره، كان عليه أن يحمل أمتعته، ويعود إلى مدينته فلورنسا، بعد خمس سنوات من العيش في باريس. في هذه الفترة التي قضاها في فرنسا، انتقل نقلة استثنائية على مستوى لوحاته، وعرف بأنه فنان بارع، عندئذٍ كرّس حياته للرسم. أنجز الكثير من اللوحات الفنية التي لفتت أنظار الأوساط الثقافية في العالم، وتدور لوحاته حول جمال الجسد الأنثوي.

كان طفلًا ذكيًا، غريب الأطوار في بعض الأحيان، يعشق الوحدة. أتقن خمس لغات، وقرأ أعمال دانتي أليغيري، وديكارت، واطلع على لوحات وأعمال فناني عصر النهضة منذ نعومة أظفاره: ليوناردو دافنشي، مايكل أنجلو، بوتيتشيلي، وغيرهم. قال الأطباء إن ذكاءه ناتج من تضخم نادر وغير طبيعي في خلايا الدماغ، ما زاد من قدرة عقله على استيعاب المشاكل الرياضية والحياتية وحلها، إلا أن

عبقريته كانت أيضًا عقدته ولعنته. لم يكن قادرًا على تكوين علاقات اجتماعية كالآخرين، كما أنه واجه ردة فعلهم السلبية ونبذهم له، كانوا يشعرون بالاستياء في حضرته، إما بسبب تصرفاته غير المفهومة، التي كانوا يعتبرونها نوعًا من التعالي عليهم، وإما لعباراته الغريبة السريالية، الممزوجة أحيانًا بتعابير علمية.

سألني: إلى متى ستبقى حزينًا، ومنغلقًا على نفسك؟

ـ لستُ منغلقًا على نفسي. أقرأ وأكتب طوال النهار، في الليل أشرب حتى الثمالة، ثم أنام وأحلم. هل ثمّة من يملك الوقت ليحلم في هذه الأيام؟ أنا أعيش حياتين، حياة في الحياة، وحياة في الحلم. أنا أكثر ثراءً من أي شخص آخر.

ـ لماذا لا تعود إلى أصدقائك وقرائك، و زو ... (كاد يقول زوجتك، لكنه توقف).

ـ تريد أن تقول أن أرجع إلى زوجتي؟

ـ ما بينك وبين دافني كان من الممكن أن يكون أجمل قصة حب في العالم، لكنك أنهيت كل شيء.

سألته: أترغب في شرب شيء ما؟

ـ قهوة.

ذهبت إلى المطبخ لإعداد فنجاني قهوة. فكرت في الورطة التي وجدت نفسي فيها. إنه لعنة حقيقية، فمنذ أن تعرفنا إليه أنا ودافني، انقلبت حياتنا رأسًا على عقب. إنهما من مدينة واحدة، يشربان من

مياه نهر «أرنو» وهما صغيران، ويحتفلان في المناسبات نفسها. كانت فلورنسا قاسية في ذلك الزمن، ولا تحب الغرباء أبدًا. تعرفت إلى دافني في سكن الطلبة، عندما كنت ذاهبًا لتناول العشاء. كانت تجلس على أحد المقاعد في الساحة الواقعة، أمام السكن الطلابي، في شارع «كاريجي». تضع الكمان بمحاذاة عنقها، ثم تمسك القصبة بيدها، وتبدأ في العزف. جلست على الدرج، وبقيت مدة عشر دقائق أتأملها. لم تكن جميلة، لقد عرفت نساءً أكثر جمالًا وفتنة منها، لكنها كانت تحمل ما يمكن أن نسميه: سحرًا خفيًا.

كانت ترتدي كنزة حمراء، وتنورة خضراء فاتحة، وتضع إلى جانبها حقيبة كتف بيضاء. تصل غرّتها حتى العينين، وتحت الأنف ثمة شق أكثر من كونه فماً بشفتين، إذ إنهما رقيقتان وحادتان كخطين مستقيمين. كانت ملامحها غير ناضجة، ومع ذلك شهيّة ومدعاة للاكتشاف.

لم أكن بحاجة إلى قدر كبير من اللغة، كي أفتح معها حوارًا ودودًا. تحدثنا عن الموسيقى والفن والأشياء التي تجعل لحياتنا معنى، واتفقنا بأن الحياة مجازفة، وأنها لا تستحق أن تعاش دون الحماقات الصغيرة. القليل من الحماقات لا تضر، بل تجعل للحياة معنى. تحدثنا أيضًا عن العزف على الكمان، قالت إنها سجلت ألبومها الأول، عندما كانت في السابعة عشرة. وأضافت بأنها تحب القططة منذ الصغر. لاحظت ثلاثة أمور مهمة: تُكثر من النظر إلى جسدها. تلبس جوارب غير متناسقة (وردي، أخضر). رائحتها جميلة.

عدت إلى الصالون حاملًا صينية عليها فنجانان. كرّر مرة أخرى سؤاله، قبل أن يقرّب الفنجان من شفتيه.

ـ متى ستخرج من وحدتك؟

ـ أنا لست وحيدًا. إنني ممتلئ بأشياء كثيرة لا تعرفها، ثم إن هذه الكتب تملأ حياتي. مزدحم في وحدتي، ووحيد في الازدحام، هذا ما عليك أن تعرفه. لا أحب العلاقات الاجتماعية القائمة على الزيف والنفاق والكذب، لدي علاقة واحدة مع نفسي، وهذا ما يجعلني أنظر إلى العالم نظرة احتقار. كلما ابتعدنا عن القطيع والحشود، وتأملنا في أنفسنا أكثر، أصبحنا أكثر وعيًا، إن الوحدة بحاجة إلى شجاعة كبيرة، لا يملكها سوى الأنبياء والكتّاب ومن لديهم تأمل عميق في الذات. المهم، قل لي لماذا أتيت؟ أنا أعرفك جيدًا.

ـ لقد أتيت لأحدثك في هذا الأمر. إن جميع أحلامي التي رأيتها في المنام تحققت. لا أدعي أن الله قد منحني قدرة على استشراف المستقبل، لكن بإمكانك أن تسميها موهبة، أو ملكة لا تضيف إلي شيئًا. إنها تزيد الثقل علي إذ ينبغي أن أبلغ الشخص المعني لأحذره، وفي حالات كثيرة ليس بوسعي أن أبوح بما رأيته، وهكذا أرى الأشياء تحدث كما حلمت بها، دون قدرة على تغيير قدرها أو إيقافها، وهذا ما يسبب لي الألم والشعور بالخيبة.

ـ لا أصدقك. رجعت لتكمل ألاعيبك القذرة، ألا يكفي ما فعلته بي؟

ـ إنني أقوم فقط بما ينبغي لي القيام به.

ـ لقد عدت لتفسد حياتي.

ـ كان الحلم متقطّعًا ومشوشًا، إلا أنني استطعت رؤية وجهكَ وسط غلالة من الضباب. كنت محمولاً فوق كتاب كأنه بساط سحري، لكنه أطبق عليك وراح يضغط على جسمك. صرخت طويلًا ولم ينجدك أحد، ثم اختفيت واختفى صوتك.

ـ أتيت لتحدثني عن الموت؟

ـ بل عن الحياة.

ـ لم أفهم بعد، كيف أن كل الأحلام التي تراها في منامك تتحقق؟

ـ هكذا، أنا أيضًا ليس لدي أي تفسير. ذات ليلة، رأيت أختي وهي تغرق في البحر، كانت تيارات الماء تسحبها نحو الأسفل، فيما تجاهد كي تظل على السطح، حتى ابتلعها في أعماقه. نهضت مثل المجنون، وركضت نحو غرفتها. وجدتها متدلية من السقف، وحبل ثخين يحيط بعنقها. تجمدت في مكاني، وحاولت الصراخ لكني لم أستطع. رحت أفتح فمي عدّة مرات محاولًا الصراخ. عبثًا، تيبّس لساني وشعرت بجسدي قطعةً من جليد. بقيت على هذا الحال حتى الصباح. عندما جاءت أمي لتتفقد الغرفة، وجدت أختي مشنوقة، فيما كنت متكورًا في زاوية الغرفة، وأنا ألهث وأتعرّق مثل حيوان محموم. كان نظري مزروعًا في نقطة ما في الحائط. انهارت على الأرض، وصرخت طويلًا. فقدت قدرتي على الكلام طوال سنة كاملة، قبل أن أجدها مرة

جديدة في الرسم. كنت أجد أختي تبكي في وحدتها، دون أن أعرف السبب. ما إن أدخل غرفتها حتى تكفكف دموعها بيدها، وتبتسم تلك الابتسامة الحزينة والقاسية، التي أشبه ما تكون بصفعة على الوجه.

ـ وماذا علي أن أفعل؟

ـ أن تستعد.

ـ كيف؟

ـ حاول أن تعيش بقية حياتك، بأفضل طريقة ممكنة، ابتعد عن كل الأشياء التي تسبب لك الكآبة، واستغل الهوامش في حياتك.

ـ الهوامش! أنت تتلاعب بي، لا يوجد إنسان لديه قدرة على التنبؤ بالمستقبل، إنها محض خرافات، أنا أؤمن بأن القدر لا يعلم به إلا الله.

سألني: هل تعرف كاساندرا؟

ـ من هذه؟

ـ إنها أميرة طروادة التي تتنبأ بالأقدار حسب الميثولوجيا الإغريقية، أحبها أبولو وذات يوم حاول إغواءها، والنوم معها، لكنها رفضته، فأصابها بلعنة.

ـ وما هي هذه اللعنة؟

ـ بأن لا يصدق أحد تنبؤاتها. عند مولد أخيها الأصغر «باريس» أخذت تصرخ: اقتلوه. وكانت حينئذ طفلة صغيرة. سألها أبوها الملك بريام عن السبب، فقالت: إن عاش فستحترق طروادة. وعند زيارة «باريس» لمدينة أعدائهم للحديث عن السلام بين المدينتين، يقع في

حب «هيلين» الفاتنة زوجة الملك «مـينيلايس»، ويهرب معها، فتشتعل الحرب التي تستمر عشر سنوات. تظل «كاسـاندرا» تحـذرهم من الهـلاك، يقرر أبوها الملك سجنها متهمًا إياها بالجنون، خوفًا من أن تؤثر في معنويات الجنود، لكنها تظل تلقي بنبوءاتها من خلف القضبان محذرة شعبها من خدعة الحصـان، رغم ذلك لم يصدقها أحد، ثم سقطت طـروادة واحترقت كاملة.

ـ تريد أن تقول إن لديك القدرة على التنبؤ؟

ـ forse، تظل مجرد فرضيات.

ـ الموت لم يعد يقلق أحدًا، من فرط تكراره.

ارتدى معطفه ووشاحه، وفتح الباب ثم خرج. حاولت أن أناديه: ليوناردو تعال، لم ننتهِ من كلامنا بعد. لكنه كان قد رحل.

(٢)

فلورنسا، ٢٣ ديسمبر، عام ٢٠١٢م.

استيقظت الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، إثر ثلاث رنات متواصلة من منبه الموبايل. تناولت خبزًا محمصًا وأومليت، بينما كنت أستمع إلى النشرة الجوية.

نعتقد أن العاصفة الثلجية، ستستمر حتى نهاية الأسبوع، لذا نحذر السائقين من القيادة في هذه الأجواء العاصفة ... نتمنى لكم عيد ميلاد سعيداً. *buon natale*

ارتديت سترة رياضية زرقاء، وانتعلت حذاءً جلديًا، واستعددتُ للخروج. كانت رياضة الجري في ساعات الصباح الأولى، إحدى هواياتي المفضلة، لكن بسبب الأجواء الباردة وتراكم الثلوج، اكتفيت في هذا اليوم بالمشي. كنت أخاف الشيخوخة والمرض، وأحرص على لياقتي البدنية، رغم أني من طائفة المدخنين، وهذه من المفارقات العديدة في حياتي، التي لا أجد لها تفسيرًا.

كنت أقيم في الطابق الثالث، من مبنى يقع في منطقة «سوفيانو» جنوبًا على بعد خمسة كيلومترات من مركز المدينة. نزلت الدرج، ومشيت على طول الشارع حتى خرجت من الحي، ولأن خطوط الباصات، والمترو السريع تعطّلت جرّاء تساقط الثلج، كانت الشوارع خالية إلا من بعض المارة. شعرت بالبرد يتسلل إلى جسدي، إضافة إلى الكآبة التي بعثت في نفسي أسئلةً واحتمالات.

كانت دافني تكره الأعياد وخصوصاً الدينية منها، لأنها تمثل لامبالاة البشرية بعضها تجاه بعض؛ ثمة من لا يكتفي بالاحتفال، ويبذر كل راتبه الشهري، بغية النفاق الاجتماعي ونيل الإعجاب. تستمع في نشرات الأخبار نفسها، عن التفجيرات في الشرق الأوسط، وزلازل شبه يومية في شرق آسيا، وموت آلاف الأطفال يوميًا في إفريقيا نتيجة الجوع، وعن الكلب الذي ورث من صاحبه، ثروة ماليّة هائلة.

الأخبار تعطينا صورة عن الانفصام والازدواجية التي وصل إليها الإنسان زمن الحداثة والتكنولوجيا.

كنت مشتاقًا إلى لقائها، فقد اعتدنا أن نحتفل بطريقتنا الخاصة في شقتي. يمر الوقت سريعًا، وأجمل مما تصورنا، فما إن نتناول عشاءنا ونشرب الأنخاب، حتى تخرج كمانها الإيطالي من بيته الجلدي، وتبدأ بالعزف.

تعلمت دافني العزف على الكمان وهي في العاشرة. جمّعت أموالًا في حصالة كي تشتريه، ثم بدأت تأخذ دروسًا لدى أحد المدرسين في فلورنسا، واستطاعت أن تلتحق بفرقة موسيقية في مدرستها الثانوية. قضت سنوات تحت وطأة التدريبات القاسية، كانت صعبة وشاقة تمتد إلى ساعات، تفضل الموسيقى الكلاسيكية لكنها كانت تقدم موسيقى عصرية. سجلت دافني أول ألبوم لها «أحبك حتى الموت» لدى إحدى شركات تسجيل الموسيقى في روما، ضمّ خمس قطع موسيقية، كانت ألحانها حزينة وكئيبة، لذا أعادت كتابتها غير مرة، رغم ذلك ظلت هذه العاطفة تنساب من بين الألحان، تعبر فيها عن الإحساس بالفقد والألم، وصل المركز الثالث في أكثر الألبومات الموسيقية مبيعًا في إيطاليا.

شعرتُ بألم ينبض في الجهة اليسرى من صدري. لم يكن لدي شك أن فراقها قاسٍ وموجع إلى هذه الدرجة. وحيد وبائس منذ ساعات الصباح الأولى، وصورتها التي لا تفارق ذهني، توسّع الجرح وتزيد كمية النزيف. رغم أني أعرف بأنها أكبر من صورة مؤطرة في الذاكرة، فلقد تركت رائحتها على جلدي، وآثار كفها على كتفي، إلا

أنني أفتقدها بجنون. لقد تحوّلت بمرور الوقت إلى موسيقى كمان، وعبث الألوان في لوحة رسام.

عدت إلى البيت. شربت بعض الماء. شعرت بوخز في قلبي، إنه الحزن والوحدة قلت لنفسي، بينما الآخرون في الخارج، يلعبون بكرات الثلج فرحين. ألصقت جبيني بزجاج النافذة، ورحت أنظر إلى المدينة: القرميد الأحمر، أبراج الكنائس، القبب، الأشجار العملاقة.

فلورنسا، تبدو للزائرين مدينة غير عادية، إذ إنها تجمع بين الجمال والعلم، بطريقة ساحرة. في المدينة ما يدفع المرء للاكتشاف، فيها ما يسمّى بالجسر القديم «البونتي فيكيو»، الذي يعلو نهر أرنو، كنيسة سانتا ماريا، الدُّومو، ساحاتها الكبيرة والمليئة بالتماثيل، قصر ميدتشي، لذلك تعتبر فلورنسا مختلفة عن بقية المدن في العالم، وأكثرها استقطابًا للسياح.

مدينة العشق والنبيذ الأحمر، ولد فيها دانتي أليجيري، مؤلف الكوميديا الإلهية، التي تعد من أعظم الأعمال الأدبية عبر التاريخ، كما أنها معقل الفنانين البارعين مايكل أنجلو وليوناردو دافنشي. هادئة، طيبة مع الغرباء، جمالها الأخاذ يدفعك للمجازفة بحب امرأة، والسقوط من المرتفعات الشاهقة، كريشة عصفور دون أن تشعر بوزنك. إنها قبلة العاشقين، الفنانين، المبدعين، المجانين، لذا نستطيع أن نقول إنها أيضًا مدينة اللذات، فيها كل ما يمكن أن يشتهيه المرء.

في الربيع، بعد أن تتفتح الأزهار، ويفوح عطرها في المسالك

والدروب، يشعر المرء بأنه في جنة حقيقية، حيث الحدائق وأصص الورد بمختلف ألوانها وروائحها. في الشتاء، تتساقط الثلوج خصوصاً في أعياد الميلاد، فتكتسي المدينة بحلتها البيضاء. يراودك إحساس بأن الناس لا يفعلون سوى الرقص والاستماع إلى الموسيقى وممارسة الحب والرياضة. إنها مدينة مفعمة بالحياة، ولا تعرف الضجر، تجمع بين الأصالة والعصرية، وهذا ما أعطاها نكهةً خاصة، لا تجدها في مكان آخر. يبذلون جهدهم ليحافظوا على خصوصية مدينتهم وجمالها، فينشغلون بأمور الفن والجمال.

لم يتوقف تساقط الثلج، والأرصاد الجوية تقول إن عاصفة أخرى في طريقها إلى المدينة. قلت لنفسي: لن أخرج وسأظل حبيس البيت فترة طويلة. ذهبت إلى المطبخ، أخرجت مكعبين من الثلج، وحضّرت كأسًا للشُّرب. اعتدت الكتابة في الشتاء، حيث أجدني أكثر قدرة على اجترار الكلمات وتوليف الحكايات. فتحت حاسوبي المحمول، ونقرت على الملف، لكني وجدته فارغًا. اعتقدت أنني كتبت شيئاً في الليلة الماضية، فأغلقت الجهاز ورحت أفكر في ما قاله ليوناردو.

كنت منهكًا وغير قادر على التفكير في أي شيء. حاولت القراءة، إلا أني كنت مشتّت الذهن، لم أستطع تكوين صورة ذهنية واحدة للكلمات التي أقرأها. في العادة، لا أخرج كثيرًا من البيت، إذ يكلفني الناشر إنهاء تأليف الكتاب، قبل الفترة الزمنية المتفق عليها في العقد. لقد كرّست نفسي للكتابة منذ عشر سنوات، بعد أن تركت وظيفتي في

المستشفى. كانت الرواية الأولى ناجحة، تصدرت قائمة الروايات الأكثر مبيعًا، وترجمت إلى خمس لغات. حققت أكثر مما توقعت لها، إذ أصبحت حديث الوسط الثقافي العربي. بعدئذ تفرّغت للكتابة وبتشجيع من زوجتي دافني، أصبحت أكتب من الثامنة صباحًا وحتى الثانية بعد الظهر.

بعدها أخرج للتنزه في الحديقة المحاذية للحي، وأعمل مجبرًا خادم كلاب. يطلب مني العجزة أن أهتم بها، ريثما ينتهون من أحاديثهم. أنا خجول بطبعي، وأحترم من هو أكبر سنًا (إنها عادة سيئة تربّيت عليها منذ الصغر، فأي احترام لعجزة يثرثرون ويركضون خلف غائط كلابهم في الحدائق العامة، ثم إنهم كانوا مشغولين بتأسيس جمعية لتنظيف شوارع المدينة من براز الكلاب).

سحبت من إصبعي خاتم الزواج، ثم وضعته على الطاولة أمامي، ورحت أنقل نظري بينه، وبين صور زوجتي المعلقة على الحائط: كانت في بعضها مع ابنتي. أتذكر اللحظة التي حملت فيها حقيبتها ورحلت. شعرت بأنها لم تعد تحبني، وأن ابنتنا سيلينا هي الشيء الوحيد، الذي بقي من علاقتنا، أما الحب فقد تبخر. حين صارحتها بالأمر، وقلت لها بأن ثمة رجلاً آخر في حياتها، لم تنكر ذلك، بل أخرجت هاتفها من جيبها، وقامت باتصال. بعد ربع ساعة، كان ليوناردو جالسًا أمامي، ونظرات الشماتة في عينيه. ببساطة، هكذا، دخلت إلى غرفتها، وضّبت أغراضها في حقيبة واحدة، ثم خرجت معه.

كان الأمر هزليًّا، إذ إنني جلست وبدأت نوبة ضحك. أظن أنني ضحكت على نفسي وعلى الحب، الذي كنا نعتقد بأنه أبدي. كنا نرى في أنفسنا مثالًا في الحب، يحسدنا عليه الآخرون. لكنني لم أفهم كيف بوسع امرأة أن تلغي ماضيًا مشتركًا، بهذه السهولة وترمي به في سلة المهملات!

شعرت برغبة عارمة في الكلام مع سيلينا. طلبت الهاتف بقلق. كان عليّ أن أتماسك، خصوصاً أمام المرأة التي تركتني.

ـ ألو.

جاءني صوتها جافًا، وكأنها كانت تعلم أنني على الجهة الأخرى من الخط.

ـ تشاو دافني.

صمتت هنهية قبل أن أسمع صوتها.

ـ أهلاً كادم.

حاولت مرارًا طوال علاقتنا، أن أعلمها لفظ حرف الظاء، إلا أنني كنت أفشل في كل مرة.

ـ أردت أن أقول إنني بحاجة إلى رؤية سيلينا غدًا.

ـ غداً؟ لكنه ليس آخر الأسبوع، أنت تتذكر اتفاقنا، صحيح؟

ـ نعم، أتذكره جيدًا، لكنني بحاجة لرؤيتها، لقد اشتقت إليها.

ـ حسنًا، تعال غدًا بسيارتك وخذها الساعة الثانية ظهرًا، هل يناسبك؟

ـ نعم، ممتاز.

وأغلقت الهاتف.

جلست على الأريكة في الصالون، ورحت أنظر إلى السقف وأفكر. لم أتصور أننا سنصل بالفراق إلى هذه الدرجة، حيث كان الطلاق آخر ما قد يخطر على بالنا. الانفصال مؤلم وقاسٍ، إنه تمزُّق، وجع، حرمان، حالة من الضياع، يؤدي إلى سعي الطرفين نحو الانتقام وتكسير أحدهما للآخر.

في البداية، اكتفيت بالكتابة من الصباح إلى ما بعد منتصف اليوم. لكن بعد الشهرة، أصبحت أكتب طوال النهار، أدمنت القهوة والسجائر، وأصبحت أعيش داخل رواياتي. أهملت عائلتي ونسيت أن لي زوجة. كانت تأتيني دافني بينما أكون منغمسًا في الكتابة، تحيط عنقي بذراعها، وتترك شعرها ينساب على صدري، ثم تحاول أن تخرجني من حالة التماهي في الكتابة. تهمس في أذني اليمنى: زوجي، حبيبي، ألم تتعب من الكتابة؟ تعال لننام. لكني، كنت أظل صامتًا مندمجًا بكل حواسي، مشغولًا في بناء عالمي الروائي حجراً حجراً. في النهاية، كانت تيأس وتنسحب إلى غرفتها بهدوء.

ذات مرة، انفجرت، إذ إنها لم تعد تحتمل، فحاولت أن ترمي حاسوبي من النافذة. ثم أنزلت بي كل لعنات العالم، وقالت بأني لست رجلاً، وأن لقاءنا الأول كان بؤسًا ونحسًا. انفجرت في وجهها، وذكّرتها بما اتفقنا عليه، كنت قد قلت لها بأن الكتابة هي كل شيء في

حياتي، بعدها تأتي البقية، لأنها ليست من الكماليات، بل أمرًا ضروريًا مثل الهواء والماء.

قالت لي يومئذ إنها تحبني عاشقًا وكاتبًا وعربيًا تجري الشهوة في دمه، وكانت تأتيني بصور من الصحراء، وتقول لي: أريدك فارسًا في الليل والنهار. حاولت أن أفهمها أني لا أدجّن الأسود، ولستُ أميرًا في قصر، وأوضحت لها بأن الكتابة نار تكوي أصحابها، ومصيرهم مجهول. لكنها قالت أحبك حتى أفنى فيك.

أعترف أنني قد قصّرت، لكن أمرًا غريبًا لا أعرف ماهيّته، كان يحملني بعيدًا عن العالم الواقعي، ويأخذ بيدي إلى عوالم جديدة بأناسها وحكاياتها. لم يكن بوسعي إلا الاستسلام لهذه اللذة. ربما متعة الخلق أو الانطلاق بالخيال بعيدًا عن ضجة العائلة والحياة اليومية. فضلاً عن ذلك، كانت الكتابة بالنسبة إلي، محاولة لفهم العالم والذات بطريقة مرحة، لأني اكتشفت مع الوقت أن من أكبر الحماقات، أخذ الحياة على محمل الجد. السخرية هي المادة الخام التي يمكن من خلالها مواجهة البشاعة في العالم، امتلاك هذا الحِس المَرح والفكاهي. لذلك، عرفت نفسي أكثر عبر الكتابة وخلقت عالمًا خاصًّا بي، أبدعت وطوّرت فيه، وعشت الحياة بأفضل طريقة ممكنة.

كنت أتمنى مثل أي أب في الدنيا، أن أكون إلى جانب ابنتي، وأراها وهي تكبر أمامي. خصوصًا وأنها مرت بمشاكل نفسية إثر طلاقنا، أصبحت تبلّل سريرها، وتشعر بالخجل إزاء الناس. ثم إنها حصدت علامات متواضعة في مدرستها، ما أثار استغراب أساتذتها،

فبعث المدير إلينا وحضرنا إلى المدرسة. كان منظرنا بشعًا أمامه، شعرنا بأننا خذلنا ابنتنا، ولم تكن تستحق ما فعلناه بها، لقد كانت ضحية.

بجهودها المتواضعة، حاولت غير مرة أن تصلح الخراب الذي وقع بيننا، فترسمنا معًا في كراستها، أو تحضر لنا وردتين، أو تفاجئنا بأن تحضّر الفطور. كان ما بدر منها جميلًا، وأرجع الدفء ولو قليلاً إلى علاقتنا، لكن الفجوة كانت كبيرة، ومن الصعب على سيلينا أن تردمها.

(٣)

لقد كانت دافني طفلة صغيرة وجذّابة، تتصرف بعفوية، لذلك كانوا يقولون عنها: متصنّعة. في ٤ أيلول من عام ١٩٩٥ كانت المرة الأولى التي تجلس فيها على ركبتي. ببساطة، قالت لي إن الأريكة غير مريحة، ثم قفزت وتعلّقت بعنقي. لحظات وإذ بها تغفو، فلم أتحرَّك طوال نصف ساعة كاملة. ماذا يعني أن تنام امرأة في حضنك، تستمع بهدوء إلى قلبها، وهو ينبض على صدرك، وتشم رائحتها الدافئة، طوال نصف ساعة كاملة؟

الرجال يكرهون الواجب والوظيفة ويخافون من تربية الأطفال، لكنهم يتحولون إلى كائنات هشّة ولطيفة، حالما تنام امرأة بنكهة الطفولة إلى جانبهم. إنها الطفولة حيث الحمُق والتحلُّل من اللباقة، خُلاصة الحب بين كائنين تحابّا، على حين غفلة من البوليس والعالم الأبوي.

وحينما فتحت جفنيها المطبقين كاشفةً عن عينين ملوّنتين، وراحت تتنفس على صدري، نظرت إليها فرأيت تلك الجرأة والصدق الوقح الذي نراه عادةً في الأطفال. قلت لها دون مقدمات: أحبك.

لماذا تتصرف بهذا الشكل أمام غريب في اللقاء الثاني؟

لقد ادّعت فيما بعد: تزاوجت ثلاثة مشاعر في اللحظة نفسها، رأيتني طفلة وشقيقة وحبيبة وتماهيت فيك، نادرًا ما أرتاح لرجل، إنني حذرة مثل قطة منزلية إزاء قططة الشوارع. اعتقدت في البداية، أنها إهانة، لكني تذكرت بأنها تعشق القططة، وكانت مثل الأطفال حين تحب شيئًا، لا ترى سواه.

ومنذ البداية، كان يبدو أن ثمة شيئاً آخر غير الحب. لقد كانت بحاجة إلى شخص يلعب دور الأب والحبيب والزوج في الوقت نفسه، وكلمة «قطّة» كانت الكلمة المفتاحية لهذه العلاقة. فيما بعد اختفت أسبوعاً كاملاً، قبل أن أصادفها في مطعم السكن الجامعي.

كانت تتناول العشاء مع أصدقائها. جلستُ على بعد عدّة أمتار منها، ورحت أراقبها، فاكتشفت أمرًا جديدًا: إنها تلبس عدّة خواتم في أصابعها. حالما نهضت عن الطاولة، ذهبت نحوها وعلى وجهي ابتسامة. وقفت قبالتها، لكنها نظرت إلي وكأنها لم تعرفني، ضيّقت عينيها الفارغتين وشدّت حاجبيها. شعرتُ بالارتباك والحرج، قلت لنفسي: لا يمكن أن تنساني في هذه الفترة القصيرة.

قالت بصوت جاف، وهي تنظر إلى عيني: ماذا تريد؟ رغبت أن

أقول لها «قطة» لعلها تقفز وتتشبث بعنقي، بيد أنها كانت تبدو أكثر شراسة. أحسست أن أي خطوة أخرى، ستكون بمثابة عود ثقاب في برميل نفط. لقد كانت غريبة الأطوار، إذ إنها قبل عدة دقائق فقط، كانت تمازح أصدقاءها.

ما الذي حدث؟

تقنَّعتُ بالجرأة: «لقد التقينا قبل أسبوع، يبدو أنك نسيتني».

ودون أن تزحزح نظرها: «لم أنسَ قط، لكني أحتاج إلى وقت لأشفى».

لم أفهم شيئًا. قلت: «أود أن نجلس ونتكلم قليلًا». وضعت حقيبة الكمان على الطاولة، ثم أمالت رأسها نحو الأمام. إنها حركة تحتمل الإيجاب والرفض. أزاحت الكرسي المقابل للطاولة وجلستُ بدوري.

ظلّت صامتة، ولم أدرِ كيف أبدأ الحديث، فتلعثمت.

ـ أين اختفيت بعد المرة الماضية؟

ـ اتصلت بك ولم تردّي. بحثت عنك في المعهد وأتيت إلى هنا عدة مرات.

ـ هذا لا يكفي.

ـ لا يكفي؟

ـ كان عليك أن تبحث أكثر.

أهزُّ رأسي قليلًا: «حسنًا، كان عليَّ أن أبحث أكثر».

بوجه عابس، تسحب كتابي من على الطاولة، ودون أن تنظر إلى العنوان تقلبه، لتقرأ النص الموجود على الغلاف. أومأت برأسها الصغير: «تقرأ روايات القرن الثامن عشر!».

ـ أحب الروايات السمينة، تلك التي نحملها معنا أينما ذهبنا، وتشدّنا إلى عالمها منذ الكلمة الأولى. الوصف الدقيق الذي قد يطول إلى صفحات، لا أضجر منه أبدًا. الرواية بالنسبة إلي هي حياة كاملة، أعتقد أنه ينبغي أن تشتمل على الحب والجنس والموت والحرب، وهذه الموضوعات تجدينها في الروايات الكلاسيكية.

ـ أوه، يا إلهي. أقول لك كلمتين، ترد عليّ بمقالة.

«اللعنة، لا بد أنها مجنونة» قلت لنفسي. زممت شفتي، ووضعت يديّ على الطاولة: حسنًا، ما رأيك أن نخرج ونتمشى؟ كانت ثمة موسيقى هادئة تنبعث من زوايا المكان. حرّكت رأسها جانبًا، فلم أفهم أتعني نعم أم لا، فكرَّرت السؤال: أنخرج؟ ودون أن تقول شيئًا، وضعت حقيبة الكمان على كتفها، وضمّت شعرها بواسطة دبوس ذهبي اللون.

مشت والغموض يكتنفها. لم يكن بوسعي أن أستشف ما تفكر فيه، واعتقدت أنها امرأة ذهنية. إنها من النوعية التي تقول جملًا غير مترابطة، ثم تأكلها من وسطها وآخرها، فتخرج غير مفهومة وبحاجة إلى رتق. حاولت أن أعض على شفتي محاولًا استيعاب الغضب، لكنها استمرّت في استفزازي. تسير أمامي لامبالية، فيما ألحق بها كطفل صغير، لا تلتفت نحوي ولا تتفوّه بكلمة واحدة.

خرجنا من المطعم لنجد أنفسنا في السّاحة. أخرجت من جاكيتها البني باكيت سجائر مارلبورو، ثم راحت تدخن واحدة على مهل. كانت تشكل دوائر من الدخان، وتنظر بعيدًا في السماء حيث بعض الغيوم.

ـ يقال إن لكل إنسان نجماً خاصاً به، عمره آلاف السنوات، يموتان وينطفئان معًا. وإن النجوم هي عبارة عن أرواح قديمة وأزليّة، لكن يحدث وأن تنتهي في العدم، حينما تنتهي حيوات أصحابها.

ـ من أخبركِ بذلك؟

ـ جدّتي.

ـ يبدو أن جدتك كانت تحكي لك الكثير من الحكايات.

ـ قليل من الحكايات، وكثير من التفاهات.

ـ بما أن العالم ليس كاملًا، إذًا ثمة مساحة للأشياء التافهة، أو الأحرى ضرورة لوجودها.

ـ نعم نحن بحاجة إلى كل ما يجعل الحياة غير مثالية.

ثم سرنا حتى وصلنا إلى حديقة عامة. جلسنا على أحد المقاعد ورحنا ندخِّن. ظلّت صامتة حتى سمعت مواء قطة صغيرة، كانت تتجه نحونا. حين حاولت أن أحرّك نفسي، ضغطت بكفها على ذراعي، وهمست: هسسس. أخرجت من جيب جاكيتها علبة تونا، وراحت تطعم القطة. ابتسمت، وارتخت ملامحها، ثم أخذت بالضحك وهي تربت رأسها وتقول: «انظر ... انظر ما أجملها!» وكنت أنظر إليهما، وقد استحال غضبي إلى سعادة حذرة. رغم السعادة إلا أنني كنت أشعر

بالخوف الشديد. يحدث في حالات نادرة أن يلتقي هذان الشعوران: السعادة والخوف. وقد حدث ذلك معي في ذلك اللقاء.

من الصعب التعامل مع فتاة متقلبة المزاج، وغريبة الأطوار مثلها.

فجأة، خرجت قطة من خلف السور المحاذي للمكان، ثم قفزت ثالثة من بين الشجيرات، ورابعة مرّت من تحت المقعد حيث كنت أجلس، ليصبح العدد أربعاً بألوان وأحجام مختلفة. رأيت دافني في غاية السعادة، تقفز وتدور حول نفسها، ثم تجلس على الأرض، وتضع قطة على ركبتها اليمنى، وأخرى على ركبتها اليسرى.

«لطالما كانت القططة أقرب الحيوانات للبشر» قالت دون أن تلتفت نحوي.

تعود علاقتي السيئة بالقططة إلى أيام طفولتي. كانت البداية مع نباح الكلاب، الذي كان يأتيني متسلّلاً من الشارع الخلفي للمنزل، لذلك أصبحت أنام في غرفة أمي. ذات ليلة، صحوت فجأة في منتصف الليل، وحاولت العودة إلى النوم، إلا أنني فشلت، فأخذت أوزّع ناظري في أرجاء الغرفة. حين وصلت إلى الباب الذي يفضي إلى الصالون، رحت أحدق إليه، كانت الغرفة معتمة ولمبة الصالون هي الوحيدة المشتعلة، فبدا الباب وهو مكسو بالنور، ممرًّا نحو عالم آخر، فسرقتني الأفكار والتخيُّلات.

عندئذ رأيت قطة سوداء ذات عينين مشتعلتين باللون الذهبي تطل برأسها، أخذت تخطو باتجاه وسط الغرفة. عينان ذهبيتان، يشقّهما

خطان أسودان غامقان. حاولت الصراخ، لكني لم أستطِع. أدخلتُ رأسي تحت شرشف السرير، ورحت أنظر إليها من خلال الفراغات، وخيّل إليّ أنها رأتني إذ نظرت نحوي مباشرة بعينيها المخيفتين، فارتعد جسدي من الخوف، وحبست أنفاسي حتى كدت أختنق. بعد لحظات، خرجت القطة من الغرفة، بينما بقيت متصلّبًا حتى الصباح. حين أتت أمي لتوقظني، وجدت جسدي متيبسًا، وكانت أطرافي باردة، بينما كنت أرتعش وأنا أتصبب عرقًا.

لقد رأيت كابوسًا مخيفًا، يفوق بشاعة الكوابيس التي قد يراها أبناء جيلي. حاولت والدتي معرفة تفاصيل الكابوس، ما إن عدت إلى الكلام. كانت في كل مرة تحاول الحديث، أبعدها عني وأبدأ بالصراخ حتى جاء اليوم الذي اعترفتُ فيه: «قطة سوداء مخيفة، بشعة جدًا يا أمي، ذات عينين ذهبيتين يشقهما خطّان أسودان». رأت الخوف في عيني، فراحت تمسّد شعري وتقرأ عليّ من القرآن. في داخلي، نما الخوف من الظلام والقططة، وقلت لها غير مرة بإنّ ما رأيته كان حقيقة، لقد رأيتها بعيني وهي تمشي في الغرفة. قالت لي: مستحيل، لقد كانت جميع أبواب البيت مغلقة، من أين ستأتي القطة يا ولدي؟ إنها من اختراع رأسك، كابوس مخيف، وستنساه.

وظلت القطة تلاحقني أينما أذهب. أراها في البيت وفي قاعة المحاضرات وبين الحشود في قلب المدينة.

لو كنت مع شخص آخر غير دافني، ربما ولّيت هاربًا مثل

الأطفال. لكن فرحتها بالقططة أبقتني رغم أنني لم أتقدَّم نحوها خطوة واحدة. لقد دعتني غير مرة: «تعال، انظر ما ألطف القططة!». بيد أنني لم أتزحزح من المقعد ورحت أحدّثها وأنا جالس.

ـ لماذا تحبينها؟

ـ لأنها ودودة وذكيّة، لا تحتاج إلى الكثير لكي تحبّك. إنها تريد القليل من الدفء والمرح.

استطردت بينما راحت كفها تمسّد ظهر إحدى القططة: «أحب الإناث من القططة، إنهن أكثر وداعة ووفاءً من الذكور، إننا أصدقاء منذ الطفولة، طالما كانت علاقتي معهن أفضل من علاقتي بالبشر».

ـ القططة تأكل أبناءها، عند الجوع أو الشعور بالتهديد.

رأيت الغضب في عينيها، قالت.

ـ هذا غير صحيح، إنها تضطر في بعض الأحيان، لأن تأكل أول قط تلده، حتى تتقوّى وترضع بقية صغارها، وإلا ستموت جوعًا.

ـ هذا يحيلنا إلى طبيعة القططة العدوانية، خصوصاً إزاء صغارها، إنهن أمهات سيئات.

ـ عالم القططة شبيه بعالم البشر، هناك قطط عنيفة وعدوانية، لكن المقارنة بين العالمين تبدو شبه معدومة، العنف لدى البشر يكاد يكون شرط وجودهم، لا عنف معناه لا بشر.

ـ أعتقد أنك تبالغين.

ـ لا سترى بمرور الأيام صواب رأيي.

وانبثقت في رأسي فكرة، فقلت لها: أنت طفلة قطّة. توقعت أن تقفز إلى حضني مثل المرة الماضية، لكنها اكتفت بالابتسام، ابتسامة غامضة.

كانت الحديقة تزدحم بأناس يغدون ويروحون. مشهد مضطرب، فثمة من يمشي بسرعة ومن يمشي ببطء. جماعات من الشبان والفتيات، الذين يجلسون في محيط البركة المائية، على شكل حلقات.

بعد أن شبعت القططة من الأكل واللعب، عادت دافني لتجلس إلى جانبي على المقعد.

ـ تعرفين، أنا لا أحب القططة ولا النجوم.

قطّبت حاجبيها: «ما الذي دعاك لقول هذا؟».

ـ لا شيء، خطر لي فحسب.

ـ أنت متناقض. تستميت لاستمالتي إليك، وفي الوقت نفسه تصرّح بطريقة وقحة، بأنك تكره أكثر الأشياء التي أحبها.

ـ تقع كثيرًا مثل هذه الأشياء.

ـ اااوه إلهي ... هيّا، قُل لي ماذا تفعل في الحياة، غير أنك طالب طب بائس؟

ـ مممم أكتب بعض النصوص، وأرسلها إلى إحدى الصحف العربية التي تصدر في أوروبا. تدور حياتي حول القراءة والكتابة، إضافة إلى أنني أحب الاستماع إلى الموسيقى. كما أعشق «الدبكة» إنها رقصة فلسطينية خاصة بالرجال، تفعلين هكذا ...

ووقفت على قدميّ، وبدأت أدق الأرض على صوت موسيقى وهميّة. «انظري هكذا، هيّا تعالي نجرّب». وبدأت أرفع قدمي اليسرى لأدق بها ثلاثًا، بينما كنت أطوي ركبتي اليمنى، انفجرت دافني بالضحك.

ـ هل يوجد لديكم جِمال وأسود وكثبان رمليّة؟

ـ نعم، يوجد الكثير منها، أضفت، وهناك فيلة، هل تحبين الفيلة؟

ـ لا، أحب القططة.

ثم عدنا إلى الجلوس على المقعد مرة أخرى، قالت دافني:

ـ تعلمت الباليه عندما كنت في الثامنة من عمري، وأحب رقص الهيب هوب، أما هذه الدبكة فلا أعرف عنها شيئًا.

ثم أخذت بالضحك.

ـ جميل، هذه مفاجأة جديدة، ما هي أمنياتك؟

ـ مم هذا سؤال صعب. أحلم بتدمير العالم.

نظرت إليها في ذهول.

ـ تدمير العالم!

ـ لأنه خراب، وكل شيء فيه فاسد.

ـ هذه نظرة سوداوية.

ـ نوو، إنها نظرية ثورية، سأحكم العالم أو أتركه لحكم القططة.

ـ لنفترض أن الآنسة دافني أصبحت حاكمة العالم، ماذا ستفعلين؟

ـ سأسن القوانين التالية: تنفيذ حكم الإعدام في كل إنسان يضرب

حيوانًا، وتوفير الماء والغذاء لكل البشر، وحرق جميع مجرمي الحرب أحياء، وحبس رجال الدين في كهوف معتمة.

ـ هكذا انتقلنا من السوداوية إلى الرومنسية، هل تعتقدين أن الأمور بهذه البساطة؟ إن تمكّنت من فعل هذه الأشياء، سنجعلك إلهة، الإلهة دافني، ونعبدك ونتقرب إليك. أريد أن أعرف عن أمنياتك البسيطة، اليومية، أنت كفتاة ماذا تريدين!

ـ أريد غزالة أربيها في الشرفة.

ـ تحبين الغزال؟

ـ مولتو.

ـ العرب قديمًا عشقوا الغزال، وكتبوا فيه الأشعار لجماله وتناسق جسده.

ـ نعم، وأتمنى أن يكون لدي طائر الرُّخ.

ـ أنت متأثرة جدًا بالأساطير.

في نهاية اللقاء أوصلتها حتى موقف الباصات. كان عليها أن تغادر في الباص الأخير، قبل انتصاف الليل. لم أنسَ رقم هاتفها، واتفقنا أن نلتقي مرة أخرى أثناء الأسبوع.

(٤)

أشرقت الشمس على المدينة، وذاب الثلج الذي تراكم على مدى أسبوع. شعرت بألم في مفاصلي، لذلك لم أخرج كالعادة للجري.

أخذت قرصًا من الصيدلية المنزلية، إذ إنني اعتدت تناول العقاقير والمهدئات، التي أصبحت تسبب لي الهلوسة. رأيت الليلة الماضية الكابوس نفسه: قطّة سوداء مخيفة، تجول داخل الغرفة.

كانت أوردتي تطلب الكحول. ذهبت إلى المطبخ، أخرجت علبة بيرة، ثم أدخلتها معي إلى الحمّام.

حين وقفت تحت دوش الماء الساخن، رحت أفكر في ما قاله ليوناردو، أنا أيضًا أرى أحلامًا في منامي، لكني لم أتنبأ قط بما سيحدث في المستقبل. شعرت بالقلق، رغم أنني حاولت التقليل من أهمية الأمر، إلا أنه شغل تفكيري طوال الفترة الماضية.

لم تكن لدي الرغبة في كتابة حرف واحد، لذلك ارتديت ملابسي، وخرجت لأحتسي القهوة في الخارج. بعد نصف ساعة، أخذت تاكسي متوجهًا صوب منطقة كاريجي، حيث تسكن دافني وابنتي سيلينا. كان الطريق مزدحمًا ومقفلًا بسبب شاحنة جمع النفايات. أخذ التاكسي يقطع شوارع فلورنسا، مارًّا بطرق فرعية كي يتجاوز الأزمة المرورية.

كانت أجواء السيارة هادئة في الداخل، إضافة إلى موسيقى باخ التي كانت تنبعث من استيريو صغير. سألت السائق.

ـ تبدو سيارة هادئة؟

ـ سي، إنها كذلك.

أسندت رأسي إلى المقعد الخلفي، ورحت أفكر في زوجتي وابنتي وحديث ليوناردو. طالما كنت أشعر أن الموت قريب من

حياتي، لكني كنت أستبعده مثل أي شخص آخر. على الرغم من كونه جزءًا من الحياة، وليس طارئًا أو زائدًا عن الحاجة. كنت مؤمنًا بأهمية الموت، وبأن كل شيء يُعرَّف بضدّه، والحياة لا قيمة لها دون الموت. فضلاً عن ذلك، كنت في نقاشاتي أدافع عن الموت في وجه كارهي الكوارث الطبيعية، فكانوا يصفونني بأني قاسٍ وعديم الإنسانية. والآن، جاء الوقت الذي ينبغي فيه أن أكون قاسيًا على نفسي؟

أغمضت عيني واستغرقت في الموسيقى، فيما أخذ السائق يتحدث. قام الدماغ بتحويل كلمات السائق الهندي إلى صور ذهنيّة وخيالات، فرأيت جبالًا شاهقة ونساء وفيلة. لقد كانت لعبتي المفضلة، أن أغمض عيني حين يشرع الآخرون في الحديث، لأنشّط المخيلة وأعيش حيواتٍ أخرى، إنها لعبة قديمة تعود إلى أيام الطفولة.

قبل أن أصل إلى بيت دافني، اتصلت بها. ردّت عليّ أخيرًا وسمعت صوتها.

ـ ألوو. مرحباً، بابا.

ـ تشاو أرنوبي.

ـ هل أنت في الطريق؟

ـ نعم، هيّا بدّلي ملابسك. سأصل بعد دقائق.

اخترقت السيارة غابة صغيرة من الأشجار، ثم صعدت صوب تلة صغيرة حيث المنزل. طلبت من السائق أن ينتظرنا مدة خمس دقائق. وانفتح الباب، لتظهر دافني بنظارة ذات إطار أسود، وتي شيرت واسع

وبنطالٍ من الجينز، فاشتعلت في وجهي كل الذكريات والمشاعر، التي ظننت أنها انطفأت.

التفتُّ إلى وجهها الذي بدا لي محافظًا على حيويته وشبابه، رغم ملامح الإرهاق على امرأة بلغت السابعة والثلاثين.

ـ مرحباً، كيف الحال؟

ـ بخير.

قطعت ابنتي الارتباك حين اندفعت نحوي منادية: بابا، بابا. أخذتها إلى حضني، وطبعت قبلة على جبينها.

في السّيارة، أثار انتباه سيلينا النظارة الشمسية التي كنت ألبسها، فقالت مازحة: troppo sole، كثير ضوء!

والحقيقة تقال، لقد كنت أكره النهار وأمارس أغلب نشاطاتي أثناء الليل، مثل القراءة والكتابة والتفكير. نادرًا ما كنت أرى الضوء إذ إنه يحرق عيني ويسبب لي الصداع. كنت أمارس رياضة الجري نصف ساعة فقط في ساعات الصباح الأولى لأنشط دورتي الدموية، ثم أعود إلى البيت، فأغلق جميع الستائر السميكة حتى وقت الغروب.

جلنا في حديقة الحيوان، بين الأسود والببغاوات والقرود. كانت سيلينا سعيدة تتنقل بين أقفاص الحيوانات حتى وصلنا إلى الطواويس. كان هناك خمسة منها، تمشي في مجموعة وتستعرض ريشها الملوّن أمام الناس، (استعراض مزيّف، مكرّر، مُعاد). بيد أن سيلينا كانت مأخوذة بهذا المشهد المسرحي، لطواويس تمشي

بكبرياء، رغم وجودها في أقفاص حديديّة، مستعرضة قدراتها على جمهور مجهول.

راحت سيلينا تعذّبني بالأسئلة: بابا، هل تحب ماما؟ بابا، متى سترجع إلى ماما؟ بابا، أشتاق إليك طوال الوقت، هل تشتاق إلى ماما؟

قلت لها: إننا نترك شيئًا، لنبحث عن شيء آخر وحين لا نجده، نرجع إلى الشيء الذي تركناه ولا نجده.

ـ بابا، لم أفهم ما قلته، ماذا سيحصل؟

ـ لن يحصل شيء، لأنه لم يحصل شيء.

ـ لم أفهمك. إنها تحبك، لقد سببت لها الألم.

قلت بعد لحظة صمت: لا أعرف. تخيّلي طائرًا مزهوًّا بتحليقه، وفجأة يصطدم بحائط أو جذع شجرة، هذا ما حدث بالضبط معنا أنا وأمك.

ـ تقصد أنها كانت متسلطة، وحرمتك أن تكون حرًا كعصفور؟

ـ ليس بهذا المعنى، لكنه يقترب من أن يكون كذلك.

ـ هذا غريب، كادت تصاب بالجنون من أجلك.

ـ أوه، لا أدري، ربما.

وأضفت بينما كنت أنظر إلى الحيوانات داخل الأقفاص: أن تكوني فاقدة لحريّتك، فهذا أسوأ ما قد يحدث، لقد أصبحت مزعجة تتصرف مثل سجّان، كما أنها فقدت الشعور بالمسؤولية.

ـ الشعور بالمسؤولية؟

ـ سي، إزاء كاتب ناجح، لديه مشاريع عليه إنجازها، لكنها أظهرت اللامبالاة.

وشعرت بالحمق لأني تفوّهت بهذا الكلام لابنتي. رغم أنها في الثانية عشرة من عمرها إلا أنه كان لها ذهن متّقد، وسرعة بديهة، وذكاء حاد. قالت لي ذات مرة بأن زملاءها في المدرسة ينادونها «غريبة الأطوار»، وهي بالفعل كانت كذلك بالنسبة إلى أبناء جيلها، ثم إنها ابنة لوالدين يُقال لهما الأمر نفسه.

ـ إنكما غريبا الأطوار، إلا أنني أحبكما.

ـ لن أعدك بشيء. لن أفعل سوى الانتظار، إن أمورًا مثل هذه تترك للزمن، إنه قادر على حلها بمرور الأيام. أشعر أنني سأزيد الوضع سوءًا إذا قمت بأي خطوة. لا أريد أن أتخذ قرارات متعجلة أندم عليها فيما بعد. يجب أن آخذ وقتي في التفكير. تمنيت أن نكون مثل أي أسرة طبيعية، ولكن هذا ما حدث.

اتكأت سيلينا بكوعها على السياج الحديدي. رأيت مسحة حزن على وجهها.

ـ أعرف أن الأمر ليس سهلًا، لنكن صديقين أقلّه، هل هذا ممكن؟ أن نتحدث بالأشياء التي تودينها. أنت تمرين في مرحلة عمرية حسّاسة، وينبغي أن تكبري بطريقة صحية.

ـ صحية! سأحاول ذلك. كانت أوضاعنا أقل سوءًا. كنت ترافقني حين أذهب إلى المدرسة، وتطهو لنا الطعام وتساعدني على القيام

بوظائفي، والأهم من هذا كله أنني كنت أجد حضنك، عندما أشعر بحاجة إلى البكاء.

ـ هذا صحيح.

ـ أمي امرأة جيدة، رغم تصرفاتها الغريبة في بعض الأحيان. كانت تقول وهي تمسّد شعري، بأنك أهملتها وانشغلت بكتابة الروايات، إنها لا تستحق ذلك على كل حال.

ـ صدقيني حاولت أن أجد حلًّا، أن أتقرّب منها، لكن تعلمين، حدث ما حدث.

ورأيت فجأة أثناء تجوالي في الحديقة، قطة كبيرة الحجم، تلاحق فأرًا صغيرًا داخل قفصه. لم أعرف نوع القطّة، لكنها بدت كائنًا هجينًا نتيجة تزاوج حيوانين مفترسين، لأن رأسها يشبه إلى حد كبير رأس الأسد، بينما جسدها أشبه ما يكون بجسد أنثى النّمر.

تذكرت دافني من جديد.

من الطبيعي أن تقع الفتاة في حب أحد الشبّان، لكن أن تقع في حب قطّة، فهذا أمر يستعصي على الفهم. لقد أحبت قطة عندما كانت في السادسة عشرة، وكانت على استعداد أن تضحي من أجلها بالوقت والروح. لم يكن حبًّا عاديًا وإنما حبًّا عاصفًا في الليل والنهار.

كانت أمها سيئة في التعامل معها، تضربها وتكنُّ لها الكره منذ كانت صغيرة، لذلك أصبحت تحب الحيوانات أكثر من البشر، وتعلّقت بقطّة. من هنا كانت البداية والنهاية: التعلُّق بالقططة، والانهيار

عند فقدانها. انتهت القطة التي أحبتها تحت عجلة إحدى السيارات المسرعة في الشارع المحاذي لبيتها.

كافحت دافني من أجل أن تصبح عازفة كمان. واجهت في البداية مشاكل مع أمها، لكنها في النهاية استطاعت إقناعها.

بعد أن انتهت من الثانوية، التحقت بمعهد الموسيقى في فلورنسا، ولأن لديها شخصيّة تؤثر الوحدة على العلاقات الاجتماعية، انعزلت عن البقية وظلت إلى جانب كمانها وكتبها. ألّفت بعض القطع الموسيقيّة، وأسَرتها موسيقى موتسارت وبيتهوفن.

كانت إضافة إلى عشقها للموسيقى، متعلقة بروايات الخيال العلمي. تعزف على الكمان وحين تتعب، تنتقل إلى الكتاب وتقرأ، هكذا كانت حياتها عبارة عن تنقُّلات بين الكمان والكتب. يمكن وصفها بأنها رومنسيّة، بريئة، وصامتة، لا تحب الحديث إلى الغرباء إلا نادرًا، لكنه يحدث وأن ترتاح لغريب أكثر من ارتياحها للإيطاليين. فتبدأ بالحديث والقفز والمرح، وكثيرًا ما كان يُساء فهمها، إذ يعتبرونها ساذجة، وسهلة المنال.

كانت براءتها توقعها في العديد من المشاكل، إلا أنه ينبغي أن أؤكد أنها ذكيّة، وليست ساذجة (بريئة، لكنها ذكيّة) ربما لوحدتها وانغماسها في التفكير في الذات والعالم، ولأنها بالدرجة الأولى قارئة نهمة.

تحدثنا حول الكثير من الروايات، وكانت رواية «الحياة في مكان آخر» للروائي التشيكي ميلان كونديرا أحب الروايات إلى قلبها. تقول:

كونديرا روائي عبقري، يحاول في أعماله الكشف عن الهوية الشخصيّة للفرد، تلك التي تختفي خلف هويّات أخرى زائفة، عبر الولوج إلى داخل الشخصيات من الناحية السيكولوجية، إضافة إلى أنه مهووس بالكتابة عن الجنس، والجميل أن الجنس لديه ليس مجرد غاية، وإنما وسيلة لقول أشياء أخرى في الحياة والعلاقات الإنسانية، خصوصاً العاطفية.

أسرّت إلي بأنها ترغب في ممارسة الجنس، لكنها تخافه وتراه وحشًا سيلتَهمُ دمها ولحمها: «ثمّة رغبة ممزوجة بالخوف، هذه الحالة وحدها مدعاة للطمأنينة، والمحافظة عليها أطول فترة ممكنة. الخشية من فعل الشيء، رغم وجود رغبة كبيرة في داخلنا: الصراع بين ما نريد وما لا نريد. أعتقد أن ثمّة إنساناً وحيداً بإمكانه أن يحل هذه العقدة، وسأمارس معه الجنس طواعية».

ظننت أنها ستقول أنت يا كاظم، لكنها قالت: «رسّام». دُهشت فسألتها مرة جديدة، وأومأت برأسها بهزة خفيفة نحو الأمام، ثم أضافت: رسّام، يقوم بتعريتي في مرسمه، ثم يرسم على جسدي بريشته خطوطًا عريضة باللون الأسود، فيخرجني من طور البشرية، ويخلق مني حيوانًا، أضافت، حمارًا وحشيًا.

ـ يا إلهي، حمار وحشي! لا بدّ أنك متأثّرة بالرواية.

ـ كثيرًا.

ذات مرة، أرتني الكتاب وكان مليئًا بالملاحظات، والخطوط،

والرسومات. كانت تحفظ غيبًا اقتباسات منه، كأنه كتاب مقدس وليس رواية. كما أنها تزيّن جدران غرفتها بصوره، وتتحدث عنه بإسهاب، تقول بأنه رجل غير قابل للنسيان. كان قلبي يذوب من الغيرة، حتى كرهت هذا الكونديرا. كنت أكتب لها بعض النصوص بالإيطالية، لكن لم تكن تعجبها.

«تحتاج إلى الوقت والتجربة» كانت تقيّم وتطلق الأحكام كأنها ناقدة أدبية. لم يكن ذلك يغضبني، إنما كنت أحسد ذلك الكاتب التشيكي لكثرة ما تحدّثت عنه. كنا نجلس أحيانًا، ونتناقش في بعض الكتب التي قرأناها، نبحث عن أي ركن هادئ، بعيدًا عن ضجة الناس والعالم، لكي نتماهى في العوالم الجديدة. نذهب إلى المكتبات العامة نقرأ ساعات دون أن نشعر بالضجر.

كان هذا هو عالمنا مؤثثاً بالموسيقى والكتب.

لم تحاول دافني أن تكسب إعجاب أحد، أو تقلد إحدى الفتيات الفلورنسيّات، اللواتي يُعجبن بجمالهن وزينتهن، كما أنها اعتادت أن تفعل ما يحلو لها. لا تضع مواد تجميل على وجهها، وتكتفي بملابس وإكسسوارات متواضعة. إنها متصالحة مع الحياة إلى درجة كبيرة، وهكذا كانت متفرّدة كإلهة إغريقية.

دافني.

فلاش باك

القبلة هي بطاقة عبور إلى حياة الآخرين.

في أحد مساءات المدينة، ذهبتُ إلى سكنها الجامعي.

تأخرت حتى فتحت لي الباب. أخرجت رأسها أولًا فبدا وجهها متورّمًا، ثم رأيت سكينًا في يدها. دلفتُ إلى الداخل بسرعة، وحاولت أن أنتزع من يدها الأداة، لكنها رفعتها في وجهي. كانت غاضبة والدموع تسيل من عينيها بغزارة. بعد أن تراجعت عدة خطوات، وضعت السكين على خدها، وراحت تنظر نحوي قائلة: «أريد أن أشوّه وجهي، إنني أكرهه ولا أريدك أن تراه».

ـ لماذا؟ أنت جميلة هكذا.

انتبهت إلى أنها قد كسرت المرآة الوحيدة التي كانت في الغرفة. «تخيّل لو أننا لم نعرف المرايا، كم سنكون سعداء؟ لن تهمنا صورتنا في نظر الآخرين، وسنكون أنفسنا. أليس الوجه هوية الإنسان؟ أريد أن أكون بلا هوية أو انتماء. آآآه ما أصعب أن يكون الإنسان نفسه».

تقدمت نحوها عدّة خطوات: «ضعي السكين جانبًا، ودعينا نتحدّث».

أنزلت دافني السكين عن خدها، وانهارت على أرضية الغرفة.

ركضت باتجاهها، وحضنتها. كانت تنشج بالبكاء وجسدها يرتعش، فطوّقت عنقها بذراعي. دسّت نفسها وتكورت في حضني كالجنين. كانت ترتدي القميص الذي تركته على حبل الغسيل. مسّدت شعرها، ورحت أهمس في أذنها اليمنى: اهدئي لم يحدث شيء. لماذا ترتدين قميصي؟

« لأن رائحتك عليه» قالت، وارتعش قلبي.

عندئذ أمطرت وجهها وجسدها بالقبل. كانت قُبلًا محمومة ومجنونة، تنزل بعشوائية على العينين والخدين والعنق، فيما راحت يدها تجوس في شعر صدري، كما امتزجت الدموع والرعشات، أحسست بأننا أصبحنا كيانًا واحدًا يتألم، ويصرخ. أصبح صدرها يرتفع إثر الشهقات المتتالية، وارتفعت درجة حرارة جسدها، ثم تصلّبت الحلمات واكتسى الجلد باللون الوردي، عندئذ وضعت يدي تحت تنورتها، بيد أنها دفعتني.

ـ ليس الآن.

حاولت أن أضمها إلي من جديد، لكنها قاومت.

ـ ألا تريدين أن تكوني معي؟ مع الرجل الذي يحبك؟

ـ أريد، لكن في وقت آخر، أرجوك.

ـ متى يا دافني؟

ـ إن فعلتها ستقتلني، هل فهمت؟ أنا بحاجة إلى الوقت.

طفلة صغيرة مشاغبة، تصرخ بي طوال الوقت: لا أريدك. وعندما

تتعب من الصراخ وتريد أن تنام، تنام على ذراعي. تذكرت أنها طفلة، عذراء، في التاسعة عشرة من عمرها، فتوقفت عن المحاولة، وجلسنا على السرير لنكمل حديثنا.

ـ هناك أشياء ليس لك يد فيها، أنت لست مسؤولة عن خطايا العالم، في التراجيديا الإغريقية القدر هو الذي يختارنا وليس العكس، لم تختاري زمرة دمك أو لون بشرتك أو حمضك النووي.

أشدُّ على يدها الناعمة والدافئة.

ـ قضيت حياتي وحيدة، ممارسة الجنس ستكون نقطة تحول، أنت تعرف أن في كل قصة انعطافة حيث لا تعود الأشياء نفسها، ستتداخل العوالم، وقد تحدث أشياء خطيرة. هل ترغب فيّ إلى هذه الدرجة؟

ـ نعم، أريدك بجنون، الحب معناه أن نمنح الآخر كل ما لدينا، هل أنت خجلة أم خائفة؟ أنا بحاجة إلى إعادة التوازن، داخلي عبارة عن قطع بازل، إنه مركب ومتشابك.

قالت وهي تنظر إلي بعينين حزينتين: هل أنا عقبة أمام توازنك الداخلي؟

رفعت وجهها نحوي.

ـ ليس هذا ما أعنيه، لنترك الأمر للزمن، لكنك كعبي الأخيليّ.

كانت متمددة في حضني، نظرت إلي باستغراب.

ـ ماذا تقصد؟ لم أفهمك.

ـ كعب أخيل يرمز إلى نقطة الضعف في الإنسان، إنها موجودة

في كل واحد منا، نحرص دائمًا على ألا يعرف بها الآخرون. تقول الأسطورة اليونانية إن أخيل بطل ملحمة طروادة، عندما كان طفلًا قامت أمه بتعميده في المياه المقدسة التي تهب من تلامسه الخلود، أمسكت به من كعبه، لذا كان كعب أخيل هو النقطة الوحيدة التي لم يصل إليها الماء. ظل جسد أخيل في مناعة من ضربات السيوف حتى اهتدى باريس إلى نقطة ضعفه، فأطلق السهام على كعب قدمه، فمات.

ـ أنا نقطة ضعفك؟

ـ أنت مقتلي، إنني أشتهي الموت في حضنك، بعد أن تكوني امرأتي كاملة دون نقصان، وتمنحيني نفسك.

(٥)

صباح ١١ أيلول، عام ١٩٧٥م، شعرت الفتاة بخدر شديد في مفاصلها. كان صوت أمها القادم من الصالون، منبهًا إياها بوقت الفطور، يضيع ما إن يصل إلى باب غرفتها، كأنه قادم من أعماق بئر، وليس من غرفة مجاورة. لكن، بعد عدة دقائق، حدث تطور جديد، إذ شعرت بدوخة خفيفة، وحاجة ملحّة لإفراغ معدتها. نهضت من السرير، وهرعت باتجاه الحمام.

وقفت الأم وراء الباب، وراحت تتسمّع محاولة استيعاب الأمر. لقد سمعت ابنتها (تلك التي ستصبح أم دافني) وهي تتقيّأ. عندما خرجت، لاح وجهها الشاحب والمتعرّق. لم يكن بوسع الأم أن تتحمّل الصدمة، فسقطت مغشيًّا عليها.

لم ينتظر الوالدان كثيرًا. عرض عليهما الأب السّكن في الطابق الأول، مقابل أن يحدث الزواج في أسرع وقت ممكن. بالفعل، تزوّجا بعد أسبوع واحد.

كانت أم دافني نحيفة، إضافة إلى طولها الفارع، فتبدو مثل عود خيزران. في كل صباح، تقف عارية أمام المرآة، ثم تتفقد أعضاءها: العنق، الصدر، الخصر، الردفان. إنه طقسها اليومي المقدّس. تنظر إلى نهديها، ثم تحاول بواسطة يدها أن تقيس حجمهما، متفائلةً بأن تجدهما أكثر اكتنازًا واندفاعًا. ذات صباح، اكتشفت شيئًا أدخل السعادة إلى قلبها: وجدت أن الثدي الأيمن أكبر من الأيسر، إضافة إلى الحلمات التي ازدادت طولًا وقتامة. رغم ذلك، لم يمنعها هذا التحوّل الجسدي الطفيف، من أن تقوم بعادتها الأثيرة، بأن تضع قطعًا من القماش تحت السوتيان، حتى يبدو صدرها أكبر من حجمه الطبيعي.

لم تشعر بأنوثتها يومًا. فما الذي يُغري في جسدها؟ لا شيء، كانت تقول لنفسها. في جامعة فلورنسا، ثمة كائن بشري وجدها جذّابة، بل كما قال لها: تشعُّ جنسًا.

«تشعُّ جنسًا»، أعجبها التركيب اللغوي، الذي يتكوّن من مفردتين فقط: إشعاع + جنس. كانت اللغة مصيدة، ولنكن أكثر دقّة، لنعترف بأنها كانت المفتاح، نحو الجسد المغلق على نفسه. قال فريدريك نيتشه: المرأة لغز، وحلّه الحَبَل. وهكذا حبلت المرأة مسلوبة الإرادة، منقادة لطالب العلوم.

شعرت وهي معه في السرير، بأنها تلعب دورًا مركزيًّا في هذا العالم. لذلك، حين حاول الشّاب سحب نفسه، التصقت به أكثر، وراحت تشدّه نحوها، صارخة بأعلى صوتها: افعلها! بالفعل، انطلق على وجه السرعة، أكثر من ٤٠٠ مليون حيوان منوي لاصطياد بويضتها. وهكذا، أصبحت أمًّا ببطن كبير كما اشتهت.

لكن طالب العلوم لم يكن أكثر من طالب مجتهد، بنظارات طبيّة، يرى بأن المسألة معقدة، بحاجة إلى ليالٍ من السهر والتعب، حتى تكون النتائج مضمونة. والمرأة كانت تريد للأشياء أن تأخذ مسارها الطبيعي، مثل النبات في الأحواض: تضع البذرة، ثم تسقيها في كل ليلة. لكنه، وضع البذرة، ثم كأنه انتهى من وظيفته الوجوديّة، أدار لها ظهره وأخذ يشخر، دون أن يهمس لها بأي شيء. عندئذ اكتشفت بأنها مجرّد ماكينة أو فقّاسة لإنتاج الأطفال، فكرهت طفلتها، وهي لا تزال جنينًا.

حاولت التخلص من الجنين، لكن يدًا إلهيّةً حالت دون حدوث ذلك. في النهاية، جاءت دافني إلى الحياة، بدموع في العيون، وصرخة في الحلق. لم تكن ملامحها شبيهة بالأم، إنما أخذت كثيرًا من بشاعة الأب. والحق يقال، لقد كانت جميلة مثل ملاك، لكن الأم رأتها أبشع مخلوق في الكون، واعتبرتها لعنة.

كان أبوها يملك متجرين، في وسط المدينة. التحق الزوج بالعمل مع حماه، مكتفيًا بما يأخذه من مال. لم يكن طموحًا، وهذا كان عيبًا لا يغتفر لدى زوجته. كانت تقول له دومًا: لولا اعتنائي بطفلتك الحمقاء،

لكنتُ الآن أفضل مهندسة معماريّة. لكنها جاءت بالخطأ، لست أدري لماذا تشبثت بك كالمجنونة، في تلك الليلة؟ في سرّها، كانت تعرف تمامًا لما التصقت به، ولم تبعده عنها حين شعرت بأنه سيقذف.

لقد طمحت إلى إحداث تغيير ما في خارطة جسدها: ثديان مثل أكياس بلاستيكية مليئة بالحليب، وردفان كبيران. بعد الحمل، رأت أن جسدها قد تشوّه، فجلدها أصبح شمعيًّا وسميكًا، إضافة إلى آلام في مفاصلها، وقدمها اليسرى. كما أنها زادت ١٠ كيلو غرامات في الشهور الأولى، وهذا كان أكثر مما قد يتصوره عقلها.

بالتالي، كل هذه المغامرة، غير محسوبة العواقب، كانت متوارية خلف مصلحة شخصيّة: إضافة لمسة جمال عبر الحبل بطفلة. وبما أن أمرًا مثل إنجاب الأطفال، بحاجة إلى تضحيات، انتهى الأمر إلى أن صار الحبل بطفلة، من وجهة نظرها فعلًا أحمق، لا ترتكبه سوى غريبة أطوار، ومختلّة عقليًا مثلها، فراحت تشتم كل الأرحام القذرة التي أنتجت، وما زالت تنتج للعالم كائنات مثل ابنتها.

إضافة إلى أنها كانت تعتبر دافني لعنة، اعتبرتها أيضًا نحسًا. فبعد مولدها بأسبوع مات والدها، وشعرت أنها على موعد مع قائمة من الوفيات، فحاولت أن تخنق ابنتها، لكنها فشلت.

منذ الصغر، والأم تنظر إلى جسدها بارتياب، تحاول أن تتعايش معه مكرهة. تجده مفعمًا بالشكوك، إذ إن العلاقة التي تربطها به، علاقة توجُّس، لا تعرف اليقين. في المرة الأولى، شعرت بأن جسدها أدنى

من غيره، وعديم القيمة، بل ينقصه شيء ما. سألت نفسها، بعد أن عرّاها الصبي الصغير، ابن جيرانهم، وتعرّى بدوره: لماذا ليس لدي ذاك الشيء الذي عنده؟

كانت تعيش صراعًا، لكنها لم تكن بهذا الوعي، كي تعرف ما معنى أن يكون الإنسان، على خصام مع جسده: صراع بين ما يريده الدين المسيحي والأهل والمجتمع. من ناحية أخرى، كان الجسد بالنسبة إليها شيئاً خاصاً وحميماً، بحاجة إلى حماية وعناية طوال الوقت، على الرغم من أن رغبة عميقة في التعرّي، لكنها مقموعة ومكبوتة، راحت تكبر في داخلها.

في الحقيقة، يعرّف الجسد ليس بكونه وعاءً للروح، وإنما بذلك الجزء المحسوس، الذي بإمكاننا أن نقيم معه تواصلًا، وحوارًا حميمًا. يلمس الرجال أجساد حبيباتهم، فيشعرون بأنهم موجودون: أن تشعر بجسدك بكامل طاقته وحيويته، يعد دليلًا دامغًا على أنك موجود. وحين يتوقف الجسد عن الإدهاش، والشعور بالرجفة والرعشة، ولا يهزه أي شيء، فهذا يعني أنه ذاهب نحو النهاية. جسدٌ لا يصنع الدهشة، هو جسدٌ ميّت، أو في طريقه لأن يصبح، في أحسن الأحوال، قطعة أثرية في متحف. ما أهميّة أن نحترم أجسادنا، ولا ننظر إليها بازدراء ودونيّة؟ هذا السؤال، الذي لم يكن يفارقها.

لقد كانت تمقته وتخافه، تحرص على إطفاء الأنوار، حين تريد أن تبدّل ملابسها. شعرت بأنها ظلمت، ولم تأخذ حصتها من الجمال.

من هنا، كانت تتأتى هذه النظرة: تقزز، احتقار، وأمنيات بسيطة في إحداث تغيير في خارطة جسدها. والحل الوحيد كان في الحبل. حبل المرأة، هو مصدر للزهو والشعور بالافتخار، امرأة حامل هي امرأة بكامل عنفوانها، إنها تقوم بشيء في غاية الأهمية: الحفاظ على الوجود البشري.

ما بعد الولادة، نشهد انتقالًا جوهريًا من الشعور بالزهو إلى اللامبالاة. بعد أن كانت تتوقف ساعات أمام المرآة، لتسجل التغيرات الجسدية، أصبحت لا تلتفت إليه، لسبب بسيط جدًا: لقد تشوّه، وعاد أبشع مما كان عليه. رغم أنها كانت تكره ابنتها، إلا أنها استمتعت بتجربة إرضاعها في المرة الأولى. مركز المتعة كان في الأعصاب والأوعية الدموية والأنسجة التي تنتشر في نهديها، لقد كانت ممتنة لكل هذه الأشياء التي لا تعرف عنها، سوى أنها تمنحها شعورًا مريحًا افتقدته كثيرًا.

من ناحية أخرى، ربما، يكون تحوّلًا معرفيًا غير مدرك من جانبها، بمعنى أن المتعة ليست حسيّة، وإنما معنوية، يكمن في تحول مشاعرها تجاه جسدها، من كونه عديم القيمة والنفع، إلى جسد ذا قيمة عظيمة، إذ إن هناك من يحتاج إليه ويبكي ويتشبث به، طالبًا إياه.

تشوه الجسد هو تحرر إضافي.

بعد أن لمس فم الرضيعة حلمة الأم، اختفت مشاعرها بالخزي والخجل. انفتح الجسد المغلق على نفسه، فانفتح الجسدان كلاهما

على الآخر، ولم يعد هناك مبرر للتخفي، وأصبح الاقتراب بين الجسدين أكثر راحة، من اقترابها باتجاه جسد ذكري.

بعد أن فكّرت طويلًا في الاسم الذي ستطلقه عليها، خطرت لها أن تسميها دافني. لقد قرأت الاسم في الصحيفة وأعجبها، وحسب الميثولوجيا الإغريقية، هي إحدى الحوريات وعشيقة أبولو.

والقصة كالآتي، حسب كتاب أوفيد «التحوُّلات»:

رأى أبولو إله الحب إيروس، يلعب بالقوس والسّهام، فقال له: «ماذا أنت فاعل بهذا السلاح الحربي؟ اتركه ليد جديرة به». وعقابًا لهذا اللوم، جرح إيروس أبولو بسهم ذهبي، ما جعله يقع في حب «دافني» ابنة إله النهر بينيوس. ثم جرح إيروس الحورية الجميلة دافني، لكي لا تستجيب لاستمالات أبولو. (في الواقع، فإن قوة السهم كانت فعالة جدًا لدرجة أن دافني على الفور رفضت جميع عشاقها). يتوسل أبولو الذي ضرب بسهم الحب إلى دافني، كي تلبّي رغبته، وتتزوجه. لكنها رفضت الفكرة، فتبدأ بالفرار، ليزداد أبولو افتتانًا بجمالها، واشتعالًا بعشقها. ذات يوم ينفد صبر أبولو فيعدو خلفها، ويلحق بها، بتسريع من إيروس. ومع تباطئها وخور قوتها، تصرخ دافني لوالدها، بمجرد أن يمسك بها أبولو. وما هي إلا لحظات حتى يتحول جلد دافني إلى لحاء وشعرها إلى أوراق، وذراعاها إلى فروع، وقدماها إلى جذور ووجهها إلى وجه شجرة. هكذا يحمي بينيوس ابنته بتحويلها إلى شجرة الغار. بعد التحول يحتضن أبولو الشجرة، ثم يقوم بقطع بعض الفروع

والأوراق، ويصنع منها إكليلًا، ويعلن شجرة الغار شجرة مقدسة. في النهاية تتحول الحورية إلى شجرة غار، بعد ذلك يتخذ هذه الشجرة شجرة مقدسة له، يبقيها خضراء يانعة لا تذبل، ويجعل رؤوس الأبطال مكللة بها.

(٦)

ذات مساء، وصلت إلى المحطة المركزية في فلورنسا. كنت في الثامنة عشرة من عمري، عشت في مهجع للطلبة يقع على أرض مستوية، في منطقة هادئة تسمّى «كاريجي»، بين تلال كثيفة الأشجار. يتكون المهجع من بنايتين ضخمتين، ومطعم، وسينما، وقاعات للدراسة، وغرفة حاسوب. كنت فلسطينيًّا جديدًا على المدينة، والعيش وحدي في بلاد غريبة، كان أول الاختبارات الصعبة التي واجهتها. يوفر المهجع وجبتين من الطعام يوميًا بتكاليف مقبولة.

كانت ثمّة أشجار ضخمة أمام المهجع، تحديدًا في الساحة الأمامية حيث تنتشر عدّة مقاعد، لجلوس الطلاب أثناء أوقات استراحتهم. بعد الساحة، يقع طريق معبّد مستقيم يصل إلى مستشفى كاريجي، حيث يمكنك سماع سيارات الإسعاف المارة كل خمس دقائق. خلف المهجع، هناك ملعب تنس ومروج خضراء ونهر صغير يمر بالحي، قادمًا من التلال.

على أية حال، كان المكان جميلًا وهادئًا، لو لا النشاطات السياسية

داخله. كانت تسيطر على المهجع جماعة يسارية، لذلك كان علينا أن نشارك في حضور الأفلام الوثائقية والمحاضرات والاجتماعات، وإلا سنصبح معرّضين لخسارة بعض الامتيازات والمساعدات الطلابيّة.

لقد قضيت في هذا المهجع من صيف ١٩٩٤ إلى صيف ١٩٩٦، وأثناء هذه الفترة تعرّفت إلى دافني، الطالبة وعازفة الكمان الإيطالية، التي أصبحت فيما بعد زوجتي.

كنت أشغل غرفة مزدوجة، مع طالب آخر أريتيري الجنسية، وكان أثاث الغرفة عمليًا ومتواضعًا. سريران حديديّان، وطاولة صغيرة للدراسة إلى جانب الحائط، عليها كتب دراسية وقاموس وروايات، وخزانة متوسطة الحجم، ورفوف عليها شاي وسكر وحليب، إضافة إلى أباريق وصحون وإبريق كهربائي، لتسخين الماء من أجل القهوة والمشروبات الساخنة.

كانت الغرفة على قدر كبير من الفوضى: أوراق مبعثرة على الأسرّة. رماد السجائر وأعقابها على الطاولة. الملابس في كل مكان تقريبًا، إضافة إلى الصحون والكؤوس المتّسخة. العلب الفارغة وأكياس النايلون تملأ الأرضية، والعناكب نسجت بيوتها في زوايا الغرفة. زميلي في الغرفة كان مهووسًا بالنظافة، وأنا كنت أرتاح لفكرة الفوضى، كنت أغسل ملابسي وحتى الستائر، ولا أطيق أن أرى الغبرة في الغرفة، لكني لم أكن أرتّب الأشياء، بل أرميها كيفما اتفق.

لم أكن مستاءً منه، لقد كان هادئًا ولا يحشر أنفه في ما لا يعنيه.

وحين يجدني منغمسًا في القراءة أو منهمكًا في الكتابة، كان يدخل الغرفة على رؤوس أصابعه، لكي لا يثير أي إزعاج، ويشتت تركيزي. لقد أحببت فيه حسن التصرّف وحرصه على الهدوء، إلا عند منتصف الليل. ما إن تشير ساعة الحائط إلى الثانية عشرة، حتى ينهض ليرقص الهيب هوب. كنت أقول له: لماذا لا ترقص نهارًا، يا فابيو؟

«لأنه يجب أن أرقص في الليل».

وكانت إجاباته أحيانًا حمقاء.

ذات مرة قال لي: أنا أدرس السينما، في أكاديمية الفنون، وأضاف، أحب الرقص والموسيقى.

«جميل، هذه تنويعة ساحرة أن تجمع بين السينما والرقص والموسيقى».

سألت: «هل ستصبح راقصًا أم ممثلًا أم مخرجًا؟».

قال: «أطمح أن أصبح مخرجًا، وأنت؟».

«أدرس الطب، لكني أكتب النصوص والمقالات، وأقرأ الكتب خصوصًا الروايات».

« أتنوي أن تصبح كاتبًا؟».

«كنت أرغب في دراسة الأدب العربي، إلا أن والدي رفض ذلك رفضًا تامًا، لأنه يعتبره هرطقة وعلمًا غير مفيد، ولكي أتفادى تهديد والدي بدراسة الشّريعة الإسلامية، خصوصاً أن مجموعي كان عاليًا، وجدتني مجبرًا على دراسة الطب. أضف إلى ذلك، أن دراسة الأدب

في بلادنا، يعني أن تحصل على وظيفة حكومية في مدرسة، هذا أقصى ما قد تطمح إليه. في النهاية، كلامك صحيح، إنني أطمح لأن أصبح كاتبًا عظيمًا، وليس عاديًّا».

«هذا يحتاج إلى الوقت والجهد، ستمر بكثير من العقبات ومحطات الفشل. سمعت أن هناك آلاف المخطوطات التي تصل الناشرين سنويًا، بالتالي يجب عليك أن تتعب على روايتك، لتحظى بإعجاب أحد الناشرين، لكي ينشر لك».

«صحيح، طريق الكتابة شاق ومليء بالخيبات. قد تقضي عمرًا كاملًا في العمل على كتاب، وفي النهاية يُسرق منك ليذهب النجاح إلى شخص آخر، أو لا تجد أي دار نشر تدعمك، خصوصاً إذا كان عملك الأول».

«ماذا تعني لك الكتابة؟»

«أوه أشياء كثيرة. الآن، في الغربة على سبيل المثال، الكتابة بمثابة التعويض عن الأهل والوطن. أشعر أن جسدي مفعم بالرغبة في البوح والقول، إني ممتلئ بأفكار، تخيلات، وصرخات مكبوتة».

كان قصير القامة، يرتدي دائمًا بناطيل جينز، وقمصاناً ذات لون أبيض، ويضع في معصمه ساعة بلاستيكية رخيصة الثمن. كنّا نذهب في نهايات الأسبوع إلى السينما، بواسطة الدراجات الهوائية التي استطعنا الحصول عليها بأثمان زهيدة، كما كنّا نقضي فترات العصر وقبيل الغروب على ضفة نهر أرنو الذي يشق المدينة، بينما في الآحاد

نذهب إلى حديقة «كاشيني» حيث نلعب كرة القدم ونأكل على المروج الخضراء، بين الأشجار الضخمة.

ما أعجبني أكثر أنه لم يكن معنيًّا بالسياسة، ولكن بالفتيات. كان يلاحقهن مثل صيّاد ماهر في الجامعة والمهجع والحدائق.

قال لي ذات مرة، وهو يدس يديه في جيبي بنطاله الجينز.

«اخرج من العالم الذي تتقوقع داخله. ابحث لك عن فتاة جميلة من فتيات المدينة، واستبدل هذا الوجه الكئيب بآخر أكثر مرحًا، إنّ النساء لديهن قدرة عجيبة على التأثير في الرجال. امرأة جميلة تحبك بوسعها أن تجعل الحياة أقل قسوة، دافعة بك إلى تحمُّلها رغم ما فيها من بشاعة».

«أعرف فابيو، كل ما تقوله صحيح، أعترف، وأنا لست كارهًا للنساء، إنما أنا مشغول بالقراءة والتفكير والكتابة، الأمر ليس سهلًا كما تتصور. المرأة تحتاج إلى الحب والاهتمام والعناية، ليس لدي الوقت للاعتناء بنفسي».

«انظر، كل المبدعين عبر التاريخ كان لديهم علاقات مع نساء. الفاشلون فقط هم من يظلون مختبئين في العتمة، ومنزوين عن الآخرين».

وأخذ بيدي إلى حفلة رقص قائلاً: «هيّا، لقد جاء الوقت لكي تجرّب فيه قضيبك اللعين، لقد غطّاه الصّدأ يا رجل». كان دائماً يتفاخر بالنساء اللواتي عاشرهن، قال إنهن يزدن عن الخمسين. لم أصدقه قط، أو لعلّي خشيت أن أصدقه.

كان الأمر سهلًا مع الفتيات. في المرة الأولى، تعرفت إلى فتاة فلبينية، حوريّة، بيضاء البشرة، صغيرة الحجم، شعرها أسود طويل، رقصنا، شربنا، ثم انتهى الأمر بممارسة الجنس في غرفتي. هكذا، توالت التجارب الجنسية، لكني كنت أجلد ذاتي وأشعر بالذنب بعد كل تجربة، لعدّة أسباب: كوني مسلمًا، لذلك كنت أشعر في أعماقي، بأني أقوم بشيء خاطئ ومكروه، مهما ادّعيت بأني غير متدين وعلماني، ثم لأن الفتيات كن مجهولات، بالكاد أحفظ أسماءهن، كل ما كان يهمنا هو ما بين أرجلهن. اللذة المسروقة في الليل على حين غفلة من العالم.

ولم أكن أريد أن أصل إلى هنا، فلعنت فابيو والفتيات ووجه المدينة.

أصبح الأمر تافهًا ومبتذلًا. يكفي أن تتشرّب الأجساد الجميلة قليلًا من الكحول، حتى تستسلم وتصبح ممدّدة على الأرائك والأسرّة. الحب؟ أردت حنانًا واهتمامًا. شعرت بنفسي طفلاً تائهًا، ويتيمًا، وكل العالم يرفضه. كنت محتاجًا إلى حضن باتساع البحر، يغمرني بالحنان، وليس أجسادًا تصرخ من اللذة للحظات، ثم تذوي وتخبو وتموت.

بلا شك كانت ليلة ممتعة، لكن، في الصباح، عندما كنت أصحو، وأجد فتاة غريبة في جواري، ثم أشعر بصداع رهيب نتيجة الكحول، كنت أبصق على نفسي، وأركض نحو الحمام لأغتسل تحت الدوش، وأزيل ما علق على جسدي من روائح.

المشهد نفسه: تصحو الفتاة الغريبة، تتلمس طريقها نحو ملابسها

الداخلية، وتجلس أمام المرآة تصلح ماكياجها وشعرها، وتقول: اللعنة عليك، لقد كانت أسوأ ليلة في حياتي.

بعدها، سألت فابيو: ألا تشعر بالملل؟ أمر مقزّز ومقرف أن تعاشر فتيات مجهولات الهُويّة. إنها ممارسة حيوانية، تخلو من أي عاطفة.

«يا صديقي، ثمّة فرق شاسع بين الجنس والحب. من قال لك إن الجنس هو عمليّة ميكانيكيّة، تخلو من المشاعر. حينما تذهب نحو أنثى وأنت ممتلئ بالاشتهاء، هذا يعني أنها جذبتك من بين نساء العالم، بالتالي هناك ما تحرّك في أعماقك، إحساس أو رغبة. والجنس عمومًا لذيذ، حتى لو كنت لا تعرف المرأة». وأضاف: «هل تحب المرأة المتبرّجة؟».

«أعتقد أنه شأن شخصي. بالنسبة إلي أحب المرأة التي على طبيعتها، أما مثيرات التوجُّس والشك، اللواتي يكثرن من مساحيق التجميل وأحمر الشفاه وطلاء الأظفار، فإنهن ربما يشعرنني بعدم الراحة أو حتى الخوف».

«اسمع لا يوجد امرأة بشعة، هناك امرأة لا تهتم بنفسها. هي جميلة، سواء ارتدت تنورة أو بنطلون جينز، أو انتعلت أحذية رياضية، أو ذات كعوب عالية، جوارب وردية أو شبكيّة. وضعت العطور أو اكتفت برائحة جسدها. سرّحت شعرها أم تركته على سجيّته، فوضويًا، مبعثرًا».

«هل تعرف أنني تردّدت إلى طبيب نفسي طوال عام كامل؟ مازلت

حتى الآن أرى كوابيس في نومي: قططة تأكل من جسدي، حشرات وأفاعٍ وعناكب، كلاب سوداء متوحّشة، تلاحقني. نصحني الطبيب بأن أترك الكتابة، قال لي: الحكايات تأكل من دماغك ليل نهار، ينبغي لك أن ترتاح. بيد أنني لم أستمع إلى نصيحته، وواصلت القراءة والكتابة، ثم هذا الجمال الأنثوي، تعلم، الجمال مُرهِق للغاية».

لم أعترف له بالحقيقة كاملة.

لقد كان لي صديق مات منتحرًا، قبل وصولي إلى إيطاليا بسنة واحدة.

لم أسمع في حياتي بعاشق، يذهب نحو الموت، بكامل قراره، مثلما فعل معتز اللبدي. في الصف، وأثناء المرحلة المدرسية، كان زملاؤه يتنمّرون عليه إذ كان ضئيل الجسم، وله وجه مضحك وأنف كبير مفلطح. كان الناس يقولون بأنه أكثر الأولاد قبحًا في القرية. على الرغم من ذلك، كان شاباً ذا طابع فكاهي مرح، انغمس في اللذات، حيث كان شعاره في الحياة «غامِر، تكسَب». كانت لديه هذه الشخصية المزدوجة، تجمع بين ثنائيتين أو متضادّين: الرقّة والعنف، الانطواء والانطلاق، الكآبة والمرح.

يخيّل إلي أنني أحببته كثيرًا. فإن تصرّفت بشكلٍ خاطئ، أو قمتُ بموقف محرج، كان يغلق أذنيه بإصبعيه، ثم يطبق بكفه على عينيه وفمه، كأنه يريد أن يقول لي: لا أرى شيئاً، لا أسمع شيئاً، لا أقول شيئاً. وحينئذ كنت أغرق في الضحك.

ذات ليلة، بينما كنا نتسلق أحد المنحدرات في غابة وارفة الظلال، حدّثت دافني عن طرائف فابيو ومأساة معتز. لقد كنت حقيرًا وممتلئًا بالخسّة، إلا أنني كنت أبحث عن أي شيء، لأثير ضحكها أو دهشتها.

قالت: «يبدو فابيو رجل أمن إزاء النظافة، ودُنجوان إزاء الفتيات، أما صديقك الآخر فقد كان أكثر شجاعةً مني ومنك. إننا لم نخلق لهذا العالم، أنا أقلّه، أراني أتيت بالخطأ، أو دعني أكن دقيقة: كيان غير مرحّب به. لقد اعترفت لك بأن أمي حاولت أن تتخلّص مني غير مرة، وحينما أتيت إلى الدنيا رفضت أن تُرضعني».

«لا أدري، دعيني أعترف بأنني فكرت في الانتحار غير مرة. كيف يمكن لطفل أن يفكر في الانتحار؟ ما هي الدوافع والأسباب؟ ما الذي رآه من الدنيا، لكي يأخذ قرارًا بأن ينهي حياته؟ مستحيل أن تكون بالوراثة. سألت أمي وأعمامي، وبحثت في شجرة العائلة، لم أجد أحدًا قد مات منتحرًا سوى أختي».

«في اليابان، هناك غابة مخصصة للانتحار، تجدها مليئة بالهياكل العظمية. إنها ثقافة، فالياباني لا يرضى الذل أو الخسارة، حتى على مستوى امتحان الثانوية، لقد كان سببًا في انتحار الآلاف. لديهم الأمر أسهل من جرعة ماء».

«ومع ذلك يا دافني، علينا أن نحيا ونواصل الحياة. إنّ الجبناء وحدهم من ينتحرون».

«الشجعان من ينتحرون. إنها حياة لا تستحق أن تعاش».

قلت بابتسامة حزينة: «دافني أنتِ تعبة، أخرجي هذه الأفكار الغريبة من رأسك».

أجابت بعد صمت طويل: «الأمر أصعب مما قد تتصوّر، إنه عميق جدًا».

ثم مشت قليلًا، وراحت تضرب الحجارة بقدمها. كانت أوراق الشجر اليابسة تتمزق تحت حذائها، وضوء الشمس الذي يتخلل الأشجار يبرق فوق كتفيها.

قلت لها وأنا أضغط على يدها: «لا ترهقي نفسك، إن الأشياء تمضي وحدها».

أضافت: «قل لي لماذا لا تتركني؟».

وضغطت أكثر: «لأني أحبك، تي آمو».

«يا إلهي، لماذا قلتها؟ كيف أمكنك قول ذلك؟».

«لأنني أحبك. هل أصرخ للعالم بأنني أحبك؟».

وراح صوتي يتردّد في أرجاء الغابة. خيّل إلي أن طيورًا على قمم الأشجار كانت تزقزق، وتذكّرت قصيدة لغوته يقول فيها «العصافير تغني على قمم الأشجار»، وشعرت بأن العالم قد أصبح أقل بشاعة.

اندفعت نحوي باكية، ووضعت رأسها على صدري: «لا أرغب في أن يأتي يوم لا تحبني فيه. أريدك أن تتذكر أحاديثنا ورحلاتنا. أخاف أن تنساني، إن النسيان لعنة».

وكنت أعرف أنها امرأة غير قابلة للنسيان.

«أنا خائفة، لا أريدك أن تتعلق بي، أنا فتاة لا أمل فيها، لدي إحساس أنني سأموت وأنا في الثلاثين، على الأغلب أواخر الثلاثينات».

قلت لها، وأنا أضمها إلى صدري: «لا تقولي هذا الكلام، ستعيشين حياة طويلة وجميلة، فقط أخرجي هذه الأفكار من رأسك».

«لا أعلم، لدي هذا الهاجس منذ الصغر، لا أريد أن أترك فراغًا في حياتك بعد رحيلي، أعرف طعم الفقد، أنا خائفة. إذا رأيت المياه تنحدر في قنوات من الأماكن المرتفعة إلى الأماكن المنخفضة، فلن يثير هذا دهشتك، لكن المياه في داخلي تجري بالعكس، هل فهمت؟ من الأسفل إلى الأعلى، من دون مضخة أو قوة دافعة».

«لا تخافي، وأنا إلى جانبك، دافني، لنهرب من هذا العالم، إلى مكان لا يعرفنا فيه أحد، أريد أن أكون معك» .

« أتقصد عالماً آخر غير الواقع، خيالياً؟»

«في السادسة عشرة كانت لدي هذه الرغبة في تغيير الأماكن، أن أسافر إلى عالم آخر، أتعرف فيه إلى أناس غير مملين، أو أن أعيش في عالم خاص، أقرأ فيه الكتب وأستمع إلى الموسيقى، دون أي إزعاج خارجي، كنت ومازلت أعشق عالم الأحلام، تشعرين أنه أكثر حقيقة من عالمنا، قد تنهضين من النوم ولديك هذا الإحساس بصدق ما عشته في الحلم».

«أعتقد أنه لدينا هذه الرغبة في السفر، وتغيير مكان الإقامة، أثناء هذه المرحلة العمرية، ثم نغدو أكثر تصالحًا مع الأماكن والأشياء. كلما

كبرنا كبر الخواء والفراغ في دواخلنا، تبدو علاقة طردية، كنا ممتلئين بأشياء كثيرة».

صباح اليوم التالي، عندما تلاقينا في الحديقة العامة بـ(سكانديتشي)، رأت مسحة حزن في عينيّ، قالت لي: من أين لك هذا الحزن؟

كانت تعتقد أني خالٍ من الأحزان والأوجاع، كنتُ لها الروائي المدلل المشغول بروايته الأدبية. الشاب كثير السفر إلى قلوب الفتيات، لم تعرف مدى الألم الذي سكنني في الماضي ولايزال، ربما معاناتي ليست بحجم ما عانته في صغرها، لكنها تراكمات تخنق، تجثم على صدري منذ ولادتي، كنفايات مدينتا الصلبة التي تنتشر في الأزقة والعشوائيات. كنتُ وكان الكبت وقيل بأنه يولد الانفجار وانفجرت، لملمت أجزائي المتكسرة، وقرَّرت الرحيل. لم أجد سوى الخيال ليرافقني في الرحلة، رأيت المراكب، وعباب البحر، والشمس الغاربة، أبصرتُ ما لم يبصر به الناس، ذهبت إلى قارات تفترش الشِّعر، تعرف مغازلة النساء والكلام الجميل، تحب الحياة ولا تخاف الموت.

ـ إنه زمن الكبت.

لم تترك الكلمة تمرُّ بسلام، لقد أصبحت أعلم أنها فضولية، تتلذذ بطرح الأسئلة.

ـ ماذا قصدت بالكبت؟

ـ الكبت وليد الخوف، هو القتل البطيء عندما تزداد المحرمات والممنوعات من حولنا دون أن نعرف السبب.

ـ أحبك كادم.

ـ لن أتركك أبدًا دافني، أنت مكانك هنا.

أخذت يدها، ووضعتها على الجانب الأيسر من صدري. رأيت حمرة الخجل قد اعترت وجنتيها، وقالت:

ـ أنت لا تعرف شيئًا.

ـ بلى، أعرف. أستطيع أن أقول إنني أضعت البوصلة، وأنت كذلك، ليس لدينا طريق نسير فيه أو مكان خاص، نحن كائنات ضائعة ووحيدة، هل هذا ما تريدين قوله؟

أومأت برأسها، ثم أضافت.

ـ سيأتي يوم ونندم فيه.

ـ أنت تبالغين، هيّا، قولي لي أي شيء ترغبين في فعله هذا الصباح، أريد أن أكون مجنونًا ولو يوماً واحداً.

رأيتها وضعت إصبعها على وجنتها، وأطرقت تفكر.

ـ أريد أن أفعل شيئًا طفوليًا، سخيفًا، مثيرًا للضحك. مم، هل بوسعك أن تأتي لي بتنّين؟ سأحبك بجنون إن أتيتني بواحد، سنلعب معه هنا، إنه أمر لطيف، أليس كذلك؟

ـ سيحرقنا ويحيلنا إلى رماد.

ضحكت.

ـ بالعكس، إنه كائن لطيف.

ـ أنت مجنونة، تحبين الحيوانات الخرافية، وحوش الأساطير الإغريقية، تعشقين القططة ودببة الباندا، وتحلمين بتغيير العالم عبر تدميره، والآن تطلبين تنينًا؟

ـ أضف إلى ذلك، أنني وهم، مجرد إسقاط لدافني أخرى عاشت وماتت، ربما ابنة إله النهر بينيس، وعشق أبولو المستحيل، حسب الميثولوجيا اليونانية.

ـ يا لأفكارك الغريبة، حسنًا، سأكون أكثر جنونًا منك.

أخذت بيدها ونزلنا باتجاه النهر.

ـ أين تأخذني يا مجنون؟

ـ سترين، سنبحث عن والدك بينيس، أليس هو إله النهر؟

عندما توقفنا على ضفة نهر أرنو، قلت لها: هيا، لنخلع ملابسنا.

ـ أنت مجنون!

ـ سنفعل أمرًا جنونيًا، سنسبح في مياه النهر الباردة، هيا اخلعي ملابسك.

خلعت قميصها وبنطالها الجينز، ظلّت بالملابس الداخلية، كانت بشرتها صافية وأشعة الشمس تبرق على شعرها المنسدل على كتفيها.

وضعنا الملابس فوق صخرة صغيرة، وركضت نحو النهر.

ـ هيّا، دافني تعالي إلى هنا.

لوّحت لها بيدي، وضحكة كبيرة على وجهي.

ركضت ثم رمت بنفسها داخل النهر، رأيتها تشهق نتيجة لسعة الماء البارد. تقدمت نحوي، وهي تصرخ ضاحكة: تعال، لا تهرب، اقترب أكثر. يا إلهي، المياه باردة.

ـ لا تخافي، أعطني يدك. وأخذت يدها بيدي، كانت ضحكتها تشعُّ في المكان، ضممتها إلي فحاولت أن تسحب نفسها، لكني حبستها بين ذراعي وأطبقت عليها. وضعت قبلة على شعرها، وشممت رائحتها. حضنتني بقوة وغرزت أصابعها في ظهري. لعبنا بالماء، تراشقنا، ضحكنا، كنا أكثر من مجنونين، فرحين، نسيا للحظة ألمهما والعالم.

عندما خرجنا، جففنا جسدينا وارتدينا ملابسنا. ثم قمنا بجولة في المدينة، قلنا لأنفسنا: المشي دون وجهة محددة، هو أفضل طريقة لنسيان جروحنا، المشي في الدروب دون هدف، حتى تتعب أجسادنا.

(٧)

في أحد المساءات أوصلت إليها بمساعدة صديقة باقة ورد أحمر، وصندوقاً يحتوي على فستان أسود، أرفقت معه بطاقة كتبت عليها «كل عام وأنت بخير، أنتظرك في مطعم العم أنطونيو، أحبك». كان عيد ميلادها العشرين. ارتدت الفستان ووضعت عقدًا في عنقها، ولبست خاتمين، رشّت العطر، صفّفت شعرها، وضعت بعض اللمسات على وجهها، مكياجاً ناعماً وخفيفاً.

عندما دخلت إلى المطعم، رأيتها تحمل وردة في يدها، شعرت

بالخجل إذ إنني كنت أكره التعامل مع الورود: حملها، إهداؤها، تلقيها. لم أكن معتادًا الأمر، لقد جرّبت أن أهدي وردة إلى فتاة أثناء المرحلة المدرسية، كنت أحبها بجنون، لكنها كانت تجربة سيئة للغاية. خرجت مبكرًا قبل أن يستيقظ أهل القرية وطلاب المدارس، ورميت بالوردة على عتبة بيتها، ثم انزويت في مكان يمكنني أن أراها منه، وليتني لم أفعل، حيث داست الوردة بقدمها، وألقت بها في حاوية النفايات. كان تصرفًا جارحًا من أول فتاة أحببتها في حياتي، حينئذ عرفت أن الحب ليس فردوسًا أو رحلة ممتعة، بل وجعًا وحزنًا لانهائيين. إضافة إلى ذلك، كانت البيئة القروية ترى في إهداء الورود رومنسيات وعواطف مفرطة، هي للنساء أنسب منها للرجال. فالرجل القروي يجب أن يتصف بالقوة والصلابة كالجبال.

أخذت منها الوردة ووضعتها على الطاولة، خطفت يدها ومررت يدي عليها بنعومة، وطبعت قبلة. كانت كالطفلة التي فاجأها والدها بقطعة حلوى، أو لعبة جديدة تضيفها إلى قائمة لعبها. لحظات وإذ بالنادل يتقدم نحونا، وفي يده كعكة مغطاة بالشوكولا، ومحشوة بالكرز والفراولة، يعلوها بعض الشمعات الملونة، بينما انطلقت من زاوية المطعم مقطوعة موسيقية لموزارت.

مساء ارتميت على السرير بكامل ملابسي، لم أخلع حذائي، كنت مجهدًا، خائر القوى، ثبتُّ نظري في السقف، رأيته صامتًا، بليدًا. دقائق وإذ بدافني تقف عند باب الغرفة، اليد اليمنى تسندها إلى الباب،

والأخرى تتدلّى منها قبعة سوداء، وضعتها على رأسها، ثم نظرت إلي ضاحكة، عيناها تشعان بالدهشة، تقدمت إلى وسط الغرفة، وأخذت ترقص وتدور حول نفسها.

ـ دافني، أنت مجنونة، كان عليّ ألا أعطيك المفتاح، أنا متعب جدًا، لقد كنا معاً قبل قليل، لو أنك في الخارج لتركتك تدقين الباب حتى الصباح.

ـ كم أنت قاسٍ يا طفلي!

ارتمت إلى جانبي على السرير، ثم أخذت تقفز عليه كالقطة المشاغبة، كنت أتأملها وأقرأ تفاصيل انتبهت لها لأول مرة: أنفها الدقيق والمرسوم بحرفية، الشامة التي على كتفها اليسرى. ثم أخذت تغني بعربية رديئة: بهبك بهبك لأني بهبك، إنت هبيبي. وكررتها ثلاث مرات.

ـ هذه مفاجأة جميلة، أيام قليلة وتتكلمين أفضل مني.

ـ بدأت بتعلم العربية، كل يوم ساعتان في مركز فلورنسا لتعلم اللغات، لغتكم جميلة لكني أحسها ذكورية، صعبة وخصوصًا هذا الحرف.

أخذت تجرّب نطق حرف الضاد.

ـ هذا الحرف غير موجود إلا في اللغة العربية. على كل حال، الإيطالية لغة أنثوية، يمكننا أن نزاوج بين اللغتين ونخرج بشيء جميل. كيف استنتجت أنها ذكورية؟

ـ فيها الكثير من الخشونة والقسوة.

ـ لكنها مفعمة بالأحاسيس والمشاعر، يشعر العربي بأن اللغة أمه حين تغيب أمه الحقيقية.

فتحت ذراعيها في رسالة واضحة بأن أحتضنها، لم أفكر كثيرًا، وجدتني كطفل صغير في حضنها، وضعت رأسي على كتفها، في حين أحاطت يداها برقبتي، تشبثت بي ولم تتركني، همست لها: هذا الدفء هو الذي أعشقه.

ركضت نحوي كل الأشياء التي أردت نسيانها، وشعرت بأن روحًا جديدة قد غمرتني، كانت شهية كأنها تفتّحت في الحال، لكنها أفلتت، كلما هممت أن أمسك بها هربت، لاحقتها في الغرفة، شعرت بأنها مشتهاة، فاتنة، مسكرة، لذيذة، أعجبها الدور، رجلها يركض خلفها فاشتعلت أنوثة.

(٨)

الذكريات، تتمشّى في رأسي ريثما تجد مستقرّاً لها. خرجت من بيتي صباح اليوم التالي، وجلت في شوارع المدينة. بحثت عن وجه طفل ضاحك، عن بقايا حب على أحد المقاعد، وعن مكان آمن ومريح كي أوقفَ الصّداع.

أصابتني نزلة شوق إلى الماضي. رأيت صبيًّا يشبهني، يخرج صباحًا وفي جيبه خمسة شواقل، «شيقلان فلافل، وثلاثة حمّص»،

العبارة نفسها التي أنطق بها لصاحب المطعم، مذ أصبحت مؤهلًا للذهاب وحيدًا كي أشتري الفطور. ذات مرة، أوقفني ولد من أولاد قريتنا السّيئين، أخذ مني النقود، ثم أوقعني على الأرض وركلني بقدمه. عدت إلى البيت مهزومًا، حزينًا، دفنت رأسي في حضن أبي، وبكيت.

اسمي كاظم اللبدي، وأنعت بالابن الضال للشيخ عثمان.

مات والدي قبل سفري إلى إيطاليا بأسبوعين، خرجت جنازة كبيرة من مسجد القرية القديم، حمله الأهالي في تابوت أخضر وساروا به نحو المقبرة، أراقت أمي عليه الدموع حتى جفّت عيناها. يبدو أنها لم تقدر على العيش بعده، إذ لحقت به بعد شهر واحد، ماتت وتركتني وحيدًا. كانت لا تفارقه، تخدمه بعينيها، تحضّر له الفطور بقلبها الكبير قبل يديها، تسهر على راحته إذ يمرض، تحزن لحزنه، وتفرح لفرحه، على الرغم من معاملته السيئة لها.

لم يكن يتراجع عن ربطي بالسرير، الذي كنت أتمدد عليه للقراءة إلا بعد مرور أيام، على الرغم من توسلات أمي. وعندما كنت أتجرأ وأسأله لأغيظه بعقليتي الصبيانية: بابا، من يلعن الله، يلعنه في الدنيا والآخرة. لأنه كان يشتم الله كلما غضب. كان يصرخ بي ويكمل شتائمه: اخرس يا حيوان، بدك تعلمني ديني؟ ثم يحوقل ويستغفر بقية الليل.

كان قاسيًا وصلبًا كالصخر، حينما كانت قبضته تسقط على وجنتي، كنت أرى جهنم أخرى في الدنيا أشد عنفًا وعذابًا، من جهنم

التي كان يحدثني عنها. وكان من أولئك الرجال الذين يأخذون كل شيء مأخذ الجد.

بعض الأحيان كانت تنزل عليه ملائكة الرحمة، فتهمس في أذنه: ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يمسك نفسه عند الغضب، فيتركني وشأني. في اليوم التالي، يجلسني إلى جانبه، ويسكب في رأسي مواعظه ودروسه التي ما كانت تدخل إلا لتخرج. الحقيقة أنه لم يكن متفقهًا في الشريعة والسنة، وكانت الشكليّات على رأس أولوياته، العمامة شيءٌ أساسي، والسّواك والعطر الحجازي، يظهر عكس ما يبطن، فهو داخل البيت ظالم ومستبد، وفي الخارج نبي مرسل.

لطالما فقد أعصابه، وشتم بكلمات نابية، وكسّر الأغراض والأشياء. أذكر تلك الليلة حين كان غاضبًا، فالتقط كوب الشاي بسرعة، ورماه نحو أمي التي كانت شاردة الذهن، فضرب وجهها ما أحدث جرحًا بالغًا فيه، يثير غضبه أي شيء تافه: الطعام مالح، وذاك الطبق لا نكهة له، والقميص غير مكوي. ثم يصرخ بنا: أفواه كبيرة لا تشبع، من أين أطعمكم وألبسكم وأدفع أقساط مدارسكم؟ ليس لدي الوقت لأعمل، هذه الدنيا زائلة وأنا أعمل في الدعوة، ابحثوا عن عمل، لا أريد أن أرى أحدًا منكم.

استشهد جدي لأبي، في إحدى معاركه ضد الإنكليز بالقرب من مدينة جنين، ظلّت جدتي تسبّح باسمه حتى ماتت. كانت أمي تخبرني بأحاديثها وحكاياتها، كأنه فرض عائلي ومهمّة وطنيّة، قالت لي إنه كان

يحمل لجدتي برتقالة من حيفا، تشم رائحتها عن بعد ميل، لا أدري إن كانت جدتي تبالغ أم أنه الحُب. صارعَ ضبعًا ذات مرة فقتلها، ثم حملها على كتفيه حتى وصل إلى القرية، أحاط به الشباب وحسدوه على قوته رغم كبره. ذهب مع الثوار وعاش في الجبال مع الوحوش، لم تبقَ مدينة أو قرية في شمال الضفة الغربية لم تسمع به.

قالت لي أمي إنه حين وصلها خبر استشهاده، تغيّر لونها ووجم وجهها لكنها لم تبكه، إنما ذهبت إلى غرفتها بعد أن تعثّرت وهي في طريقها غير مرّة، أغلقت خلفها الباب، ولم تخرج من الغرفة إلا بعد سنة، وحين خرجت لم تتحدّث إلا عنه، كأنها كانت تتنفسه وتعيش فقط على ذكراه.

في القرية، يتوارث الناس الأشياء من جيل إلى جيل، بما فيها الوسائد والبطانيّات الشتويّة. تصنع الجدّة ما تحتاج إليه العائلة بيديها، حسب الفصول والأمزجة. طالما شعرت بدفء هذه البطانيّات والحرارة التي تبثّه في جسدي، كانت لي واحدة، أعطتني إيّاها أمي في بداية الشتاء، قصيرة ومزركشة وعليها رسومات، طواويس وأسود وأحصنة، الدفء له نكهة أخرى، ليس له علاقة بنوع القماش أو الصّوف. أدركت بإحساسٍ طفولي أنه دفء يأتي من زمن آخر، فيه من حنان الجدّة الذي افتقدته طوال عمري. عندما فتحت عينيَّ على الدنيا، وبدأت أتقفّى رائحة الحليب في نهدي أمّي، كانت الجدّة الجميلة التي أعلق صورها في غرفتي وأنام على وجهها، قد ماتت.

أحملُ هذا الفقد في قلبي، وأشعر بهذا النّقص الذي يتعمّق حين أرى جدّات الآخرين.

كنت في العاشرة من عمري. طفل خجول، لا أحب النّاس وأولاد الحارة، بينما أعشق ضفائر أمي المخضّبة بالحناء، ومراقبة الفتيات اللواتي كنّ يلعبن الغميضة إلى جانب الدّار. أذكر تلك الليلة الشتويّة، كانت قارسة البرودة، وعامرة ببطانيات الجدّة وحكايات الأم، وبموقد نار وكستناء وبيض مسلوق، ليلة دافئة قضيتها مع أفراد عائلتي.

قبيل الفجر كان عليّ النهوض من الفراش، لأذهب برفقة أختي لجلب الحليب، من امرأة عجوز في الجانب الآخر من القرية.

كانت القرية قطعة مظلمة، لا إنارة في الشوارع، والأضواء المتسرّبة من نوافذ البيوت كانت شحيحة، فالناس تنام وتمارس الجنس في العتمة. كان عواء الكلاب وجرائها يأتينا من كل الجهات. الجِن والعَمورة والغوليّة والصُّلّاح والأولياء كانوا يطلّون علينا برؤوسهم من حكايات الجدة، ويتربصون بنا في طرقات القرية وأزقتها. مغامرة طويلة وشاقّة، كان علينا القيام بها في كل صباح، وكلما عدنا سالمين، لم يمَسَسنا جِن، أو تأكلنا غوليّة، كان علينا الاحتفال بكوبين ساخنين من الحليب قبل الذهاب إلى مدارسنا، لنُذهِبَ الخوف الذي تلبّسنا.

مغامرة يوميّة، لا تخلو من لذّة المخاطرة والاكتشاف، حتى جاء فجرٌ لم نسمع فيه عواء الكلاب الذي اعتدناه، كانت الطُّرق خاوية، وشخوص حكايات الجدّة لم تخطر على بالنا. نهضت من الفراش،

كان وجه أختي وداد أول وجهٍ أراه، لم يكن هناك داعٍ لغسل وجهي، لبست ثياب الخروج، أمسكت وداد يدي وخرجنا.

نزلنا، صعدنا، انعطفنا، حتى وصلنا إلى بيت بائعة الحليب. بيت قديم من طابقين، في الأسفل تعيش المواشي وتوضع براميل الزيت، في الأعلى تعيش العجوز وحدها. لم تتح لنا الفرصة لنراه من الداخل، كانت العتبة الثالثة من الدرج الموصل إلى الطابق الثاني، هو الحد المسموح لنا بالوصول إليه، بعدها نصبح عرضة للشتائم والدّعاء «بقصف العمر» أي دنو الأجل، أو «يَتْمَك» دعاء بأن نتيتّم.

كانت العجوز قاسية جدًا، لكن وحدتها وحرمانها من الزوج والأولاد، مبررات كافية من وجهة نظرنا لنغفر لها، ثم حديث الوالدة عنها إذ تذكرها بالخير «كانت وجدّتكما مثل الأخوات»، «حزينة، لا زلمة ولا ولد»، هكذا كنّا نلمس في حديث أمنا احترامًا ممزوجًا بشفقة. رأتنا العجوز فدخلت لتحضّر قنينة الحليب. لا أدري أي شيطان لعب في رأسي «بينج بونج» لأفلت من يد أختي وألحقها، نادتني: كاظم ارجع.

لكن الوقت كان قد فات، ما إن أحسّت العجوز بحضوري حتى استدارت، هجمت عليّ ولم يشفع لي صغر عمري، ولا جسدي الذي انكمش على نفسه. أمسكت بي من رقبتي، دفعتني عبر الباب، لأجد نفسي أتدحرج على الدرج. غبتُ عن الوعي لحظات، قبل أن أستيقظ على وجه أختي مبللًا بالدموع، بعدها صرت أرى عيونًا أنثويّة خائفة أينما أذهب، زرعت العجوز حياتي بالعيون الخائفة.

وجدتُ من والدتي اللوم والمواساة: «ألم أقل لك يا حبيبي إنها مجنونة». «لا، قلتِ إنها طيّبة مثل جدتي» نظرت إلي بإشفاق، ولم تضف شيئًا.

دخلت إلى غرفتي غاضبًا، أنزلت صور الجدّة عن الحيطان، وأخرجت حكاياتها من رأسي وحياتي، ثم أصبحت أرى كل الجدّات بائعات حليبٍ قاسيات، يدمينَ الأطفال ويزرعن في قلوبهم الخوف بالخرافات.

رغم أن القصة حدثت منذ زمن بعيد، إلا أن آثارها ما زالت تظهر في تفاصيل حياتي، تصبغها بالخوف، وتشي بقسوتها حين تطلُّ برأسها بين وقت وآخر. توقّفت عن شرب الحليب، وذكر حسنات الجد والجدّة، ابتعدت عن الخرافات وأصدقائي من الجِن والوحوش، والشاطر حسن والغول وجملة الحكايات الشعبية. الحاجة إلى فم كبير لا يضجر من القَص والحكي، استبدلته بكتب كثيرة على رفوف مكتبتي.

ضمّنا بيت تطغى عليه ملامح البساطة. غرفتان ضيقتان، ومطبخ وحمام، وصالة جلوس طالما كنا نقضي فيها أوقاتنا، محاولين نسيان هموم العائلة عبر تبادل النكت ومشاهدة التلفاز. تحيط به حديقتان، حديقة صغيرة من شجر الزيتون، وحديقة فسيحة من الرمان والتين والتفّاح. يبدو بيتنا واحة جميلة وسط بيوت القرية المترامية الأطراف، يقع على قمة جبل، يشرف من ناحية الشرق على جبال نابلس، ومن الغرب على مدينة طولكرم والسّاحل الفلسطيني.

في اللغة العربية، ثمّة فرق جوهري، بين الدار والمنزل. في حين أن المنزل بوسعه أن يكون فندقًا، أو استراحة مسافر، ليس بوسع الدار أن تسمى دارًا، من دون بئر وشجرة جميز.

إنها حكاية قديمة، تعود إلى عشرات السنوات. فيما بعد، أصبحت أسطورة، تتردد في عائلتنا، من جيل إلى جيل: قام جدّي لأمي، بقطع عدّة أغصان من شجرة الجميز، وغرسها حول الحديقة، ليصنع منها سياجًا يحمي الدار وأهلها، صارت العُصي مع الوقت أشجارًا، إذ امتدت جذورها عميقًا في الأرض.

لكنّ السياج المصنوع من أغصان الجمّيز، لم يمنع (اليهود) كما قال، من اقتحام الدار. لم يصمد أمام الدبابات والأسلحة الثقيلة، ففسح المجال للأعداء بأن يدخلوا، بيد أنه لم ينكسر. بالفعل، ما زال صفٌّ من أشجار الجميز يحيط بدارنا المهدّمة، شاهدًا على الأسطورة وصدق جدّي.

طالما قال إن هناك بئراً وأشجار جمّيز في داره في حيفا. ولما كان يُسأل عن ماهيّة هذه الشجرة، كان ينظر بعيدًا ويقول بأنها أطول شجرة قد رآها في حياته: صلبٌ خشبها، دائمة الخضرة، وثمارها خضراء تستحيل إلى الوردي حين تنضج، حلوٌ مذاقها، تشبه ثمر التين.

لم أكن أعرف، قبل ذلك، بأنه شاعر.

لقد كان يرى في الشجرة، جزءًا من حلم أكبر، اسمه العودة.

«العصافير تقف على قمم أشجار الجميز»، إنه ليس عنوان

قصيدة، أو اسم لوحة، رغم أنه يليق بذلك. إنها العبارة التي قالها الجد، الذي لديه الآن قبيلة من الأحفاد، حين سمع بزقزقة العصافير عند باب المخيم، وهو مصاب بالحمى. حاولوا إقناعه بألا أشجار جمّيز في الغربة، بل صفيح وأمنيات ودموع، لكنه ظل يردد تلك العبارة، كلما سمع زقزقة العصافير.

في آخر حياته، كان يشغل وقته بروي الحكايات (تنشيط الذاكرة)، إضافة إلى ممارسته اليوميّة، بترديد لفظة «جمّيز» على سَبحته. خيّل إلي أنها شجرة من الجنة، حلوٌ ثمرها، وفيها شفاءٌ للناس، لكنها كانت السبب في موت جدي بالحسرة والألم.

صنعوا له تابوتًا من خشب الجميز، وفي داخله نُثر عدد من أوراقها. لقد قضينا حياتنا، نحلم بالعودة، إلى ذاك النوع من الأشجار، الذي يحيط بدارنا، ولم نعد.

أسرتنا متوسطة الحال. لم يكن أبي كادحًا، بل متواكلاً على الله، كل عمله الدين والدعوة. ولم يكن دمي أزرق، لست من سلالة برجوازية عريقة، نحن مثل آلاف الأسر الفلسطينية التي تقاتل في الحياة من أجل لقمة عيشها.

تقول أمي: عندما رآني، أصرّ على والده الحاج مفيد لكي يتقدم للزواج مني. كان أبوك واسع القلب في ذلك الزمن، يحمل في داخله حبًّا عارمًا لي ولأبنائه، لكنه بمرور الوقت تغير. لقد أصبح أكثر قسوة وصلابة، لم يأخذ من الدين سوى اللحية والتكشيرة التي

لا تغادر وجهه، رغم ذلك، والدك طيب وإنسان حنون ... لا أريدك أن تكرهه.

حنت رأسها، وثبتت عينيها على الأرضية المحروقة، ثم أكملت حكيها بنوع من الحرقة: عندما بدأت تتحرك في بطني، أحسست بفرحة عارمة، كأن الدنيا فتحت لي جميع أبوابها. كنتَ كثير الحركة، لا تتركني أرتاح لحظة واحدة. ذات ليلة، خرجت من جوفي إلى العالم والدمعة في عينيك، كانت ولادتك متعسِّرة، بكيت وصرخت طويلًا حتى ضج المستشفى.لم تتوقف عن قذف صرخاتك، إلى أن أتينا لك بالملح ووضعتك على صدري، ثم أقسمت أن أسميك كاظم باسم خالك الذي هاجر نحو الشمال، لكنه لم يرجع إلينا كما كان يحلم، بربطة عنق أنيقة وحقائب تطفح بالمال.

مات هناك كما أخبرتنا السلطات الإنكليزية، بعدما وجدوه مرميًا إلى جانب نهر التايمز، ولم نعرف هل قضى منتحرًا أم مقتولًا. كان رجلًا غريبًا، يقضي معظم وقته في الغرفة، يقرأ ويفكر ويحدق إلى السقف، لكنه كان طيبًا وحنونًا، لم يقصر معي بشيء.

كان اسم أمي صفيّة. امرأة فارعة الطول في التاسعة والخمسين، رخامية الوجه، شعرها يغزوه الشيب، شفتاها مكتنزتان ومستديرتان، لكنها يابسة كغصن شجرة في فصل الخريف، الزمن نحت في جسدها علامات الكبر، تسع ولادات، خمس بنات وثلاثة أولاد، وآخر ميت، حصيلة الولادات التي حصدتها، وهي كالقرية والأماكن التي تسكنها صامتة، وقنوعة، لا تتغير.

كانت تعتبرني ولدها المفضّل، وقد كبرت وظللت في عينيها طفلها المدلل، لم تشعرني قط بالنقص أو الحرمان. كانت تجاهد كي تخفف من وطأة كلام والدي على نفسيتي، تشجّعني وتقف إلى جانبي على الدوام، ترد عليه كلما شتمني ووصفني بالمجنون والمعقّد، تقول له: ابني سيرفع رأسي في يوم من الأيام، إنه موهوب ومتفوِّق.

أتذكر عند عودتي إلى البيت، بعد نهار طويل من اللعب في الحارات مع أولاد القرية، كانت تستقبلني بحاجبين مقطّبين، ثم تهرع بي إلى الحمام، وتدلك جسدي الصغير بالصابون، لتزيل الرائحة الكريهة والأوساخ التي علقت بي، وتخبرني بينما تمرر أصابعها بين خصلات شعري.

ـ آخر العنقود هو سعادة البيت، لا طعم للحياة من دونك يا كاظم، الله يحميك يا يمّـا، ويبعد عنك أولاد الحرام.

كان هذا طقسنا اليومي بين ملاك حارس وطفل مدلل. كنت ألطّخ ملابسي بالوحل عمدًا، حتى أنال حمامًا ساخنًا وتدليكًا من يدي أمي الحانيتين.

لطالما تحمّلت مصاعب الحياة، وإساءة زوجها في سبيل تربية أولادها، الذين نالوا أرفع المراتب العلمية. حاربت وقاومت وسط جو من الفوضى والعنف، فأحداث ما بعد النكسة، ألقت بظلالها على عائلتنا، وحُرمنا من فرص كان من الممكن أن نحصل عليها، بعيدًا عن الاحتلال وتضييقاته. كلما نظرت إلى أمي، سألت نفسي: كيف

تحمّلت وصبرت؟ وأي قوة روحية تمتلكها، وتدفعها إلى الاستمرار على الرغم من قسوة الواقع؟

كانت تتمتع بالرأفة، والرحمة، وضبط النفس، فلم أسمعها تلعن أو تشتم، على الرغم من الظلم الذي وقع عليها. كانت تحرص دائمًا على أن تبدو قوية، وصلبة أمامنا، لكي لا تشعرنا بالنقص أو الضعف، محاولة باستماتة حمايتنا وإسعادنا، فهي التي أفنت عمرها في خدمتنا وتربيتنا وتعليمنا.

كان من الممكن أن يكون مصيرها غير هذا، لو أنها أكملت تعليمها، ولم تخرج من المدرسة، لكن نكبة عام ١٩٤٨م، قلبت حياة عائلتها رأسًا على عقب، فعلى الرغم من ثقافة ورجاحة عقل والدها، وحبّه للعلم والتعليم، إلا أن الظروف التي تلت تهجيرهم من حيفا كانت صعبة، أكبر من قدرتهم على التكيّف معها؛ فالخيام وشحّ الحليب وضيق الحال. كنت أقول لها: أمي أنتِ تستحقّين أفضل من هذا المصير، لو أكملتِ تعليمك لكنتِ الآن أديبة، لما تملكينه من موهبة فطرية، وإحساس مرهف، وقوة ملاحظة. أجابتني: أنا لست آسفة، لقد فعلت أفضل من ذلك، لقد علّمتكم وربيت عائلة.

(٩)

في صبيحة أحد الأيام، قررت الخروج من السكن الطلابي. تحررت من أجواء الغرفة المغلقة، واستنشقت الهواء العليل الذي

يجوب شوارع فلورنسا. مدينة جميلة بنهرها وجسورها وتماثيلها التي تنتشر في ساحاتها. عبرت أحياءها وأزقتها الضيقة، والأسواق التي تباع فيها التحف والخزف القديمة، ثم تدحرجت نحو إحدى الحدائق، كانت تتوسطها نافورة ماء كبيرة يسبح فيها البط والبجع، وتطوقها أشجار خضراء طويلة. المقاعد الخشبية تنتشر على طول مساحاتها الفارغة، جلست على أحدها.

ساقتني عيناي نحو عجوز بدا لي أنه في الثمانينيات من عمره، شعره ملفلف، وجهه حنطي مائل إلى الصفرة، شدتني ملامحه العربية. جلست إلى جانبه على المقعد نفسه، تفحصت وجهه ثم التقت عيوننا فحييته، رد علي وقد اعتلت وجهه ابتسامة هادئة، صدمني لسعادته الكبيرة بوجودي، كأنني جئت وملأت فراغًا في صباحه ذاك. سألني بحيرة.

ـ من أين أنت؟

ـ من فلسطين.

ـ أنت تحمل رائحة البلاد. فلسطين في القلب حتى ولو كانت بعيدة، من أي مدينة؟

ـ طولكرم.

ـ ما هو اسمك؟

ـ كاظم اللبدي.

ـ وأنا فتحي جردات، من القدس.

ـ حقًا، كيف أتيت؟ كم مر من الوقت على وجودك هنا ؟

تدحرجت كرة طفل فوق العشب، ثم توقفت بين رجليه، عندئذ انحنى وأعطاها للطفل الذي ضحك، وأعاد رميها من جديد نحو البركة، نظرت إليه أمه مؤنبة: لن أشتري لك كرة جديدة.

أخذ الرجل نفسًا عميقًا، ثم رشق نظره بعيدًا في السماء. بلع ريقه وزم شفتيه. أسند ذراعه إلى طرف المقعد الخشبي، وقال بصوت أراده أن يكون قويًا وصلبًا، لكنه خرج ضعيفًا وحزينًا.

ـ طوال السنوات الماضية، وأنا منغلق على نفسي كشرنقة، لا أتكلم إلا نادرًا. الهزيمة وضياع البلاد كسرا ما بداخلي. كنت مقدسيًا يعشق تراب تلك الأرض حتى الموت، لذلك أنا الآن جسد مسجى على هذا المقعد بلا روح، فروحي تركتها ترفرف هناك فوق أسوار وحارات القدس.

لوهلة ظننته سيذرف الدموع، لكنه تماسك ثم ساد قليل من الصمت.

ـ آسف، لقد فتحت لك جروحك.

ـ لا عليك يا ولدي. جروحنا تتفتح في كل يوم، هذا نصيبنا، ماذا نفعل؟ هل نبكي وننتدب حظنا؟ بعد أن سقطت القدس في عام ١٩٦٧م، لم نستطع الصمت على ممارساتهم بتهويدها وتغيير طابعها، وتهديم أبنيتها القديمة. ازدادت اعتداءاتهم على سكانها العرب، وسيطروا على المدينة المقدسة بكاملها. كنت أملك محلًا لصناعة

الحلويات، وفي أحد الأيام، انتهيت مبكرًا من العمل فعدت إلى البيت، صادفت مجموعة من الجنود يعتدون على إحدى الفتيات، لم أحتمل الموقف، انفجرت، ركضت باتجاه الجنود وقد استبد بي الغضب، كانت بحوزتي أداة معدنية أستخدمها في عملي، ضربت بها أحدهم على رأسه، فسقط على الأرض جريحًا، نزف كثيرًا لكنه لم يمت. في أقبية التحقيق، اتهموني بأني أرأس إحدى الخلايا التي تسلح نفسها بالسكاكين والأدوات المعدنية، لم يحاكموني. ليتهم سجنوني وبقيت هناك، لكنهم أجبروني على الهجرة وترك المدينة، كان هدفهم إفراغها من السكان العرب، طردوني بالقوة، خرجت في البداية إلى الأردن، لكن الحياة هناك كانت صعبة ومذلة، وبعد أحداث أيلول الأسود غادرت عمان إلى إيطاليا.

ـ الإسرائيليون يواصلون ابتلاع الأرض، وكل ما يمكن أن يسيطروا عليه، حتى حياة الناس حولوها إلى جحيم.

ـ هؤلاء يا ولدي ملاعين. يدرسوننا ويعرفون كيف نفكر، لديهم نوع من طول النفس والتخطيط ولا يتركون شيئًا للصدفة، ليسوا مثلنا، نشعل انتفاضات عفوية دون أي تنظيم أو ترتيب، نبدأها ولا نعرف متى تنتهي، ولا ندرك أبعادها أو نتائجها.

ـ كلامك عين العقل.

ـ قل لي، لماذا أتيت إلى هنا؟ إيطاليا يا ولدي تموت جوعًا، أهل البلاد يغادرونها إلى أقطار أخرى بحثًا عن عمل وحياة كريمة.

ـ أتيت بحثًا عن ذاتي. لم يكن لدي الكثير من الخيارات، والمنحة التي حصلت عليها كانت فرصة بالنسبة إلي، إضافة إلى الرغبة في التجربة والاكتشاف، الأمر الذي لا توفره لنا بلداننا العربية.

ـ الحرية؟

ـ نوعًا ما.

ـ الحرية هي أهم أمر في الحياة المعاصرة، إنها أجمل ما يمكن أن يتصوره الإنسان.

قال العجوز، وفي عينيه بريق خاص لمع فجأة: أنت شاب ذكي، لكن نهايتك ستكون مأسوية.

ـ أوف، ما هذه النبوءة؟

ـ وراء الجرأة التي دفعتك لأن تترك بلدك وأهلك، وتأتي إلى مقبرة اسمها الغربة، يكمن جرح عميق وقديم، حتى عيونك تفضحك.

وبحركة لاشعورية، خفضت نظري وزرعته في العشب. ساد الصمت بعض الوقت، ثم أكمل: لديك إبداع، شيء عظيم داخلك.

ـ كيف تعرف هذه الأشياء؟

ـ «المكتوب معروف من عنوانه».

ابتسمت، وقلت:

ـ هل تأتِي إلى هنا يوميًا؟

ـ تقريبًا، ليس لدي ما أفعله، أصحو باكرًا، أشرب القهوة، أقرأ الجريدة، ثم أخرج إلى الحديقة، لأجلس على هذا المقعد. في أغلب الأحيان، أحمل معي كتابًا.

ـ منذ متى، وأنت تفعل هذا؟

ـ عشر سنوات، أقل أو أكثر. فتحت محلًا في مركز المدينة، لصناعة الحلويات الشرقية، ثم عندما كبرت في السن، أحلت نفسي على التقاعد. تعبت مثلما لم يتعب إنسان، يكفي هذا الركض وراء سراب الدنيا.

ـ ألديك أولاد؟

ـ بالطبع، يسعدني أن أعرفك إليهم إن أحببت.

وانبثق في رأسي سؤال غريب، وجد طريقه إلى لساني.

ـ هل عشت حياة سعيدة؟

ـ أووه، هذا سؤال إجابته طويلة. هيا، لنتمشى قليلًا.

وساعدته على الوقوف.

ـ هذا يتوقف على معنى السعادة من وجهة نظرك، أن تملك ما تشتهيه، أن تفعل ما تحبه. أتجدها في القضايا الكبرى أم في التفاصيل الصغيرة؟ في الكليات أم في الجزئيات! بالنسبة إلي، أنا سعيد، ها أنا آتي إلى هنا كل صباح، أقرأ، أتأمل في العالم ووجوه الناس. لا شيء يشغلني، هكذا بعد التقدم في العمر، تشعر بلامبالاة إزاء ما حولك. تكتفي، تتشبّع بما اكتسبته طوال حياتك.

كنت فرحًا بمعرفته، فهو يختلف عن أبي الشيخ عثمان المنغلق والمتشدد، أحسست أنه يشبه جدي الحيفاوي، الرجل المثقف والمنفتح على العالم. قال لي : تعال، أعرفك إلى عائلتي، أنت ما

زلت لا تعرف أحدًا هنا، بالتأكيد أنك اشتهيت أطباق الكبة باللبن والمسخن، وكل المأكولات الفلسطينية، والكنافة النابلسية وحلويات البلاد. وعدته أنني سأحضر إليه، ما إن يتصل بي في الأيام القادمة.

بعد ثلاثة لقاءات، أخذ رقم هاتفي. اتصل بي ودعاني على الغداء. كان الدرب الذي سلكته سيارة الأجرة مكتظًا بالعربات، يوازيه خطان من الأشجار، وكأنه يخترق غابة. النوافير، الدوارات الجميلة، التماثيل، كانت تسرق النظر وتجذبني من الدهشة وشدة الإعجاب.

دق الجرس. فتح الباب الخارجي كهربائيًا، لأجد نفسي وسط حديقة بأنواع مختلفة من الورود والأشجار، ونباتات متسلقة تتمدد على الواجهات والسياجات المعدنية. كان المكان مدهشًا وأنيقًا، يحمل رونق البيوت الأندلسية، ومشبعًا برائحة المعمار المقدسي القديم، كأن الحاج فتحي أراده أن يكون بهذا الدفء، ليشعر بقربه من الوطن.

استقبلني ابنه الأكبر حسين، وصافحني بحرارة، ثم أدخلني إلى الصالون. التقيت زوجته فلورا، امرأة إيطالية، شقراء وممتلئة، ولديهما داليا طالبة تاريخ وآثار، مهووسة بدراسة التراث العربي، وجان بالكاد أنهى دراسته الثانوية، وبارع في العزف على الجيتار.

بعد أن انتهينا من الغداء، الذي كان يتكون من مأكولات فلسطينية وإيطالية، توجهنا نحو الحديقة. جلسنا تحت أشعة الشمس، وتحدثنا طويلًا. حسين أراد أن يعرف كل صغيرة وكبيرة حدثت في البلاد، عن

مدنها وقراها وشوارعها وحال أناسها، بينما ظل الحاج فتحي صامتًا، غارقًا في تفكير عميق. حين ماتت زوجته قبل عشر سنوات ازدادت حالته سوءًا، دخل في قوقعة قاسية لم يستطع أحد إخراجه منها، قال لي حسين على حدة: شكراً لله الذي بعثك إلينا، ألم تره كم كان فرحًا بك؟

قلت للحاج فتحي الذي كان جالسًا إلى جانبي:

ـ لم أزر القدس إلا مرة واحدة مع والدي، كنت في الثالثة عشرة.

شعرت بيديه ارتجفتا، ورأيت حزنًا قديمًا لمع في عينيه.

ـ في زمن ما يا ولدي، كنت أحب القدس لدرجة أني صرت أشتهي الموت على أرضها، هكذا، أن نتماهى معًا في أقصى درجات العشق. من الذي يرى القدس ولا يحبها؟ هل تصدق لو قلت لك إني أحفظ كل حي وزقاق في المدينة؟ حارة المغاربة، حارة الأرمن، حارة باب حطة، حارة السعدية، حارة الشرفة، وحارة اليهود في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة، أعرف كل عائلة وحارة فيها ...

صمت قليلًا، قبل أن يكمل: عندما خرجت من القدس، شعرت بأن قلبي انفطر نصفين، خالجني شعور بأني لن أستطيع العودة إليها إلا في قارورة تحمل رمادي. هل تعلم يا ابني أني منذ رحلت عنها، وأنا لا أفعل سوى أن أتذكرها؟ ثم انتقل من الحزن إلى حالة غريبة من الفرح، فأخذ يضحك: كانت طفولتي جميلة في القدس، أذكر الزيتونة الوحيدة في ساحة الدار، كنت أنا وأخواتي نلعب حولها، نعتني بها، ذات مرة

نقشنا حروفنا عليها، وكتبنا: نحبك يا قدس. ها أنا اليوم، لم يبقَ لي سوى بقايا عمر، وأمل بالعودة.

ثم أخذ يكفكف دمعه، وحينما حاول ابنه حسين أن يأخذ بيده، ليرتاح في غرفته، طلب منه أن ينسحب ويتركه في مكانه: اتركني يا ابني، معلش، حاسس أيامي خلصوا، بدي أفضفض وأرتاح.

قلت له: يا عمي، لا تتعب نفسك، ادخل إلى غرفتك وارتح، سنكمل حديثنا فيما بعد.

ـ كل القوى الأجنبية التي احتلت المدينة رحلت عنها، حتى أقيمت إسرائيل وتمكنت في حرب ١٩٦٧م من احتلال الضفة الغربية وهضبة الجولان وسيناء، كانت هذه الضربة قاسية للعرب، فدمّرت الجيوش العربية وتوسّع الاحتلال، ثم دخل الجيش الإسرائيلي إلى البلدة القديمة في ٦ حزيران ومنع التجوال، بعد ٤٨ ساعة تحولت حارة المغاربة إلى ساحة البراق، ودمر في ذلك ١٥٢ مبنى وهجّر الأهالي بشكل كلي، أعلنت القدس «الموحدة» عاصمة لإسرائيل، وأعطي أهل القدس الهوية الزرقاء من الداخلية الإسرائيلية، وهكذا ضاعت القدس ورزحت تحت احتلال جديد، هو الأبشع والأكثر همجية في حياة الشعوب. أخرجوني بالقوة من الموت تحت ظلم الاحتلال إلى موت أكثر عنفًا اسمه المنفى. منذ نكبة ٤٨م ونحن نموت في اليوم غير مرة، سرقوا كل شيء يا ولدي حتى طفولتنا، لا تنسَ فلسطين، وأضاف بعد برهة صمت: رغم أني أعرف بأنه لا خير فيك.

كانت عبارته الأخيرة صادمة.

ـ لماذا تقول عني هذا الكلام؟

ـ لأني أرى الموت في عينيك. وأعاد تكرار العبارة نفسها: ستكون نهايتك مأسوية.

حاول حسين أن ينهي الحديث، قال لي: آسف، لا تآخذني، الحاج متعب. قلت له: انتظر، أريد أن أعرف أكثر، هل تراني لعنة أم شيطانًا؟ أنا شاب بسيط، وعادي.

ـ لن تكون كذلك، الدنيا تغير البشر يا ولدي. ستسعى وراء أشياء، تضع خططًا، لكن الحياة ستفاجئك على الدوام.

ـ ما قصة هذه النبوءة التشاؤمية؟

ـ المنحوس منحوس ولو حطوا على راسه فانوس.

لم يجبني، بل استأذن، ودخل إلى غرفته وأغلق الباب خلفه.

(١٠)

عصر أحد الأيام، هاتفت الحاج فتحي جردات، سألته عن حاله وما يفعله، طمأنني إلى نفسه، وأعرب عن شوقه للقائي. كان صوته متعبًا، أحسست أنه مريض، وحين استفسرت: عمي، أأنت مريض؟ قال لي محاولًا إخفاء أعراض مرضه التي امتدت حتى صوته: لا يا ولدي هي نزلة برد خفيفة وستزول.

كان الباب الخارجي نصف مفتوح، عندما دخلت وجدت كل

العيون متقيحة، أدركت أن الأمر قد انتهى، رائحة الموت كانت منتشرة في غرف البيت، انسحب المغترب بعد أن تملكته رغبة مجنونة في الرحيل، قال لي حسين: أراد أن يراك قبل أن يموت، ويوصيك بشيء ما، لقد أعطاني هذه الحقيبة التي كان يخبئها تحت سريره، وطلب مني أن أوصلك إياها .

كانت حقيبة جلدية، قديمة وشبه مهترئة، لونها بني غامق، مستفزة بشكلها ولونها، تبدو كأنها محملة بكثير من الأسرار والذكريات. ارتعشت يدي حتى كدت أسقطها، كم هو صعب وقاس أن تحمل أشياء إنسان ميت؟ أن تزرع في قلب بيتك حقيبة تجهل محتواها، يخرج منها روائح مبهمة، مخيفة، وكأنها من عمق قبر.

لا أدري كيف سافرت بي ذاكرتي المتعبة، إلى الحقيبة التي كانت تعود إلى المهندس يحيى عياش، وقد تركها لمن سيخلفه، ولكن الفرق بين الحالتين يبدو شاسعاً، ذاك هو مهندس متفجرات، بينما الحاج فتحي جردات لم يهندس سوى ذكرياته التي كانت تلتهمه في كل ليلة، وتهذيب أشجار الزيتون والنباتات وأنواع الورود التي كان يزرعها في حديقة بيته، رغبة منه أن يصنع جوًا من الدفء بعد سنوات طويلة من الغربة والتشرد.

كان مستلقيًا على الفراش. عندما رفعت الغطاء الأبيض عن وجهه، وجدته أصفر كليمونة ذابلة، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة، كأنه رأى حارته في القدس وجميع مدن فلسطين وهي تودعه.

قبلته على جبينه، كان باردًا، ارتعشت شفتـاي، خرجت بسرعة والدموع في عيني، لم أقل شيئًا، حملت الحقيبـة وغادرت.

لحظات وإذ بدافني تقف إلى جانبي، قامة طويلة، شعر جميل، معطف أسود طويل، حدقت إليها من أسفل إلى أعلى، ثم أمسكت بها من ذراعها، وانسحبنا من المكان.

عانقتها بحرارة، أحسست بمدى قربها مني.

ـ دافني، الفن أقـوى من الموت، أليس هذا صحيحًا؟ الموت جبان، وحقود، وبلا قلب، الإبداع هو الوحيد القادر على هزمه.

ـ كادم، ما لنا والموت؟! ما الذي ذكرك به؟

قلت لها، وأنا أرفع الحقيبة إلى مستوى نظرها.

ـ هذا الشيء يفوح منه رائحة الموت، قرن مضى من الهزائم والخسارات والأفراح الكاذبة تتصاعد منه. هذه الحقيبة تعود إلى الحاج فتحي جردات، أول شخص تعرفت إليه في هذه المدينة، تعامله الراقي والجميل أزاح صورة أبي القاسي من الذاكرة، كان حنونًا، وطيبًا لدرجة يصعب وصفها، واليوم ترك لي هذا الإرث الثقيل الذي لا أدري كيف أتصرف فيه. هل أتعدى عليه في غيابه، وأطّلع على أسراره وأموره الحميمة؟ أراد أن يقول لي شيئًا، لكني وصلت متأخرًا كعادتي، ربما أرادني أن أوصلها إلى شخص ما، أنا في حيرة من أمري، ما رأيك أنتِ؟ ماذا تنصحينني؟

ـ افتحها وانظر ما بداخلها، ربما تركها لك شخصيًا، أو أنه زرع بين محتوياتها رسالة سوف ترشدك إلى كيفية التصرف فيها.

كانت رائحة البحر تمتزج برائحة الموت التي تتسرب من الحقيبة، مكونتين جوًا غريبًا من الغموض واللذة المسروقة. الزرقة زحفت نحو عيوننا، جذبتنا، سحبتنا إليها، مشينا إلى الحافة، وقفنا وأقدامنا مثبتة على الخشب المبتل، نظرنا إلى الأفق حيث تراءت لنا السماء وقد التصقت بالماء، همست في أذنيها: أترين إبليس وحوله جمهرة من الشياطين؟ إنه هناك، جالس على عرشه، يصدر الأوامر لجنوده في حرب مجنونة مع البشر، يقال بأنه لا يهجر الماء أبدًا، ولا يقترب من اليابسة، البحر المتوسط هو قلعته الحصينة، هنا في قلب العالم القديم، المليء بالديانات والأساطير والصراعات.

ـ اصمت يا كادم، ما هذا الهراء؟

ـ لقد عشت صراعًا مريرًا.

ـ أي صراع؟

ـ كان البيت سجني الأول، كل ظلمات الدنيا كانت تتجمع فيه، يعلمونك القيم الجميلة بالتلقين، تحفظينها في سورة أو قصيدة، لكنك تصطدمين بأنهم أول من يخالفها، يحدثونك عن العدل والمساواة، في حين تحرم الإناث من حقهن في المعاملة الحسنة والميراث، ويتم تفضيل الذكور عليهن، يحشون رأسك بمفاهيم كبيرة حول الصدق والأمانة والمسؤولية، في حين تجدين المجتمع لا يسير إلا بالواسطة.

ـ دعنا من هذا الكلام، ألن تدعوني للعشاء عندك في هذا المساء؟

عندما وصلنا إلى غرفة السكن، انهمكنا في العمل، بدأت بتقطيع

الخضار، وتجهيز السلطات والشوربة، بينما كانت دافني مشغولة بتقليب الكاسيتات الموسيقية، وترتيب الطاولة. تذكرت عمي الحاج فتحي، شعرت بحرقة في قلبي، أوشكت أن أطلب منها أن توقف الموسيقى، ولكني تراجعت، قلت لنفسي إنه الوقت المناسب لسماعها، هكذا بين موجات الحزن والتذكر.

الموسيقى تريح القلب المتعب، وتخفف عنه أحزانـه.

كانت الحقيبة تلمع على الأريكة، حدقت إليها، وطفقت أفكر، شردت، تملكتني رغبة في فتحها، ولكني تراجعت، كنت أشعر بالخوف الشديد، ما هذه الورطة الجديدة؟ ماذا يمكن أن يكون فيها؟ وثائق؟ معلومات؟ توقفت عن طرح الأسئلة.

أمسكت بيدها، همست في أذنها: أنا لا أملك الشجاعة الكافية، يدك على يدي كما تعاهدنا.

وفتحناها معاً.

وجدت خارطة لفلسطين، وغصن زيتون يابساً، ومفتاحًا كبيرًا بحجم اليد.

ماذا أراد أن يقول لي؟ وذلك ما لم أفهمه بعد ذلك أبدًا.

(١١)

كنت أحب الجنس، مثل أي رجل طبيعي، فمن الذي لا يحبه؟ لكني، في الوقت نفسه، لم أكن فاحشًا أو مخلوقًا من شهوة.

أثناء الفترة الجامعية، التي راح فيها فابيو يدعوني للتعرّف إلى الفتيات، وقبل أن أتعرّف إلى دافني، عرفت إيفا في أحد بارات المدينة. استمرت علاقتنا شهرين، قبل أن تختفي. لم تترك خلفها سوى رسالة، ليست أكثر من سطر واحد:

أخاف التعلُّق بك. أنا امرأة حرّة وأكره أن يقيّدني رجل بحبال عشقه.

فتاة في الثلاثين من عمرها، جسدها برونزي وجميل كتمثال، عيناها واسعتان وفمها صغير، راقصة إسبانية من برشلونة، جريئة ومتحررة.كانت صيّادة رجال، تبحث كما قالت، عن الصداقة والجنس، ولا يهمها الحب. منذ الخامسة عشرة وهي تعاشر وتهجر من تريد، حتى طفح الكيل بوالدها، فطردها من بيته، وكانت حينذاك في الثالثة والعشرين. رحلت عن برشلونة قادمة إلى إيطاليا، وفي رأسها فكرة واحدة: أن أعيش كما أحب وأشتهي.

بمعنى آخر، أرادت أن تعيش حياتها كمغامرة.

فتاة تتخطى حقل التاريخ والأيديولوجيات والسياسة إلى جماليات اليومي المنسي. لها مسار خاص، نكهة خاصة لا تجدها في فتاة أخرى، إنها من ذلك النوع من الفتيات الفقيرات والبسيطات، لكنهن جديرات بالحب والحياة، لأنهن كريمات يمنحن من دون مقابل. كائنات وحيدة لا تطلب سوى الحنان وحضن دافئ.

قالت لي في أول لقاء، ونحن جالسون خلف طاولة البار: كانت

والدتي امرأة متحررة بشكل كبير، وجدتها في فراش والدي مع عشيقها العربي. الغريب أنها لم تتوقف عن الممارسة، بل استمرت وكأنها لم ترني. كنت في عمر المراهقة، شدني المشهد فرحت أتلصص عليهما، ثم أقسمت أن أنال ما نالته أمي من المتعة. شعرت بالغيرة، وبعد عدة أيام اندفنت في عمق السرير مع عشيق أمي، لذا أعرف رائحة العربي القوية، ونظراته التي ترشح بالشهوة والجوع.

وعندما سألتها عن دينها، قالت لي: لا يهمني كثيرًا الخوض في هذه المسألة. الدين بالنسبة إلي قضية شخصية، أشعر أحيانًا باندفاعة غريبة نحو اليقين المسيحي، الإيمان جميل حين يبقى في النفس، لكنه يصبح قبيحًا إن حولناه إلى أداة لتحطيم أفكار الآخرين، والتعدّي على حرياتهم الخاصة. إن الله في ذواتنا، فلماذا نبحث عنه في العقائد الدينية؟ إنه أقرب إلينا من الدم الذي يجري في عروقنا. ثم أضافت: الإنسانية ديني، وليس لدي شعائر سوى الحب. أنت، هل لديك مشكلة مع الدين؟

ـ مشكلتي ليست مع الدين، بل مع المتاجرين والمستثمرين فيه. أنت تعرفين أولئك الصّنف من الناس الذين يجمعون بين الدين والتجارة، إنهم موجودون في كل الأديان.

ثم ضحكت، فرأيت نهرًا من الألق ينهمر من عينيها.

قلت لها بعفويّة، لأخرج من النقاش: «أنتِ جميلة».

«فهمت ما ترمي إليه. ينبغي أن تنتظر. أتيت ورأسك معبأ بأفكار

خاطئة، لست كأمي رغم الشطط والحماقات التي قمت بها في مراهقتي. جسدي لن يناله إلا الذي يكشف أسراره ويفك أحاجيه، عليك أن تعلم أن الجسد أبجديّة، ومطلوب منك أن تتعب وتتهجاه حرفًا حرفًا. الجلد لا يلمسه إلا فنان، يعرف كيف يبث الحرارة في مساماته، أنت تضاجع امرأة بهشاشة فراشة وليس آلة».

«إيفا... أعرف كل هذا، أؤكد لك أني مختلف، أنا روائي، ولدي العديد من الكتب الجميلة. إضافةِ إلى أنني أحترم الجسد وأرفض ابتذاله».

«أخاف الروائي، فهو أعظم مخترع للأكاذيب في العالم، إنكم تتماهون مع الكذبة حتى تصدقوها».

كانت مراوغة، ذكية، يرشح منها دهاء ورقّة وأمور أخرى، تجذب المرء لكشفها ومعرفتها.

«لا، سترين كم أنا مختلف».

زمّت شفتيها باستياء. ارتسمت على وجهها ملامح الخيبة، ثم تسربت من أعماقها كلمات مرتعشة، مفعمة بالشكوك.

«الرجال هكذا، ما إن يعرفوا امرأة حتى يتخيلوها عارية في الفراش».

ثم خرجنا من البار، ومشينا في شوارع فلورنسا. الشمس تركض خلفنا، تضربنا بأشعتها الساطعة، ونهر أرنو يتلقفنا ببرودة مائه. في ذاكرتي، كانت وجوه تأكلها النار: الوالد المتعصّب دينيًا، الأصدقاء

الذين تركتهم في تلك البلاد ورحلت عنهم. بحثتُ عن النسيان، أين النسيان؟ هو يأتي بغتة فقط لكي يباغت الذاكرة، يخدرها، ويوهمها، وعندما ينسحب، تهجم الذكريات علينا كحمم بركانية. هي المدينة... الأنثى التي لا تقبل أنصاف الحلول، إما أن تأتي بقلبك وقالبك، بأعصابك وجنونك، وإما تبقى بعيدًا عنها، لا تقربها بتاتًا.

ذهبنا إلى ساحة ديلا سينيوريّا، كان الهواء مشبعًا برذاذ الماء. لاح لنا تمثال ديفيد لمايكل أنجلو، ونافورة نبتون، هرقل وكاكوس، والغول مع رئيس ميدوسا.

جلسنا إلى جانب النهر، ومن مكان قريب اشترينا قطعتي بوظة.

ـ إيفا، أنت لا تعلمين كيف نعيش؟ تعالي إلى هناك وامكثي فترة، وستلاحظين أنك بدأت تتحولين إلى مادة خام، عجينة لم تتشكل. لا أدري كيف أصف لك! الظروف قاسية، الحياة صعبة، لا تفعلين شيئًا غير الذهاب إلى المقهى، وعد الخسارات والهزائم المتتالية، لا جديد، روتين... روتين، مشاكل ورواسب وتراكمات تخنق الإنسان، الفساد، الفقر، البطالة، الكبت، والأدهى والأمر هو الاحتلال، حصار يطبق حول أعناقنا.

ـ كيف يعيش الفلسطينيون والإسرائيليون في تلك البلاد؟

ـ بمجرد أنك وضعت الاثنين في خانة واحدة، فأنت تساوين بين القاتل والضحية، هم ينعمون بخيراتنا، يعيشون أفضل منا بألف مرة، ونحن ماذا؟ لا نفعل سوى العض على ما تبقى من أرضنا بنواجذنا،

نربي أبناءنا على عشق تلك البلاد، ليس لدينا بديل سوى المواجهة والعيش رغم القتل والدمار، هل فهمتِ؟ نحلم بوطن الحرية والعدالة، حيث يجد الأطفال الحليب والخبز.

ـ تحب وطنك رغم الألم، أليس كذلك؟

ـ أحب الوطن الذي يغفر لنا ذنوبنا، يشاركنا في أفراحنا الصغيرة، عندما نحب يبارك لنا حبنا، لا يقف في طريقنا عثرة، يحن على المظلومين ويواسي المكلومين، أريد أن أعيش في وطن بلا بطالة، فقر، رتابة، أريده أن يكون وطناً للجميع.

ـ وما قصة تلك الفتاة؟

ـ فتاة! من تقصدين؟

ـ الفتاة الفلسطينية التي عشقتها في الثانوية.

ـ اسمها سندس، كان عمرها ستة عشر عامًا، وككل الفتيات في ذلك العمر، بدأت بالتمرد الخجول على النظام السائد في البيت، ثارت وطالبت بالمساواة في الوظيفة، هكذا، فهمت الأمور، كان أخوها يخرج متى يشاء، يكلم الفتيات الجميلات، يفعل ما يحلو له، كل يوم يقف أمام مدرسة البنات، وحين كانت تشكو الأمر إلى أمها، ثم بدورها تنقل الخبر إلى الوالد، كان يتغاضى ويتسامح، يقول: غدًا يضع عقله في رأسه، يكبر، لكنها عندما حاولت أن ترفع رأسها من بين الصحون التي تنهمك في تنظيفها، لترى أنوار الدنيا وتحب ككل المخلوقات، ضربت وأهينت، وأصبحت سمعتها سيئة بين الناس.

هتفت إيفا: ربّاه، ماذا فعلت؟

ـ كانت تحب ولدًا من القرية، ذات يوم تجرأت ولاقته بعد الدوام، لكنها كانت المرة الأولى والأخيرة، انتشرت القصة بين الأهالي بسرعة خيالية، حاكوا منها أساطير، طعنوا في شرفها، حتى وصل الأمر إلى أهلها، وهناك وقعت الكارثة.

ـ وأين المشكلة إن قابلته؟

ـ الحب في بلادنا يعيش في العتمة ... أشعر أن الله بعثني إليها رحمة بها، فجأة اسودت الدنيا في عينيها ولم تعد تثق بأحد، أصبحت تكره كل شيء حتى نفسها، قيّدها والدها في السرير، وحينما كانت المسكينة تريد الصلاة، كان أخوها الصغير يأتي إليها بوعاء مليء بالماء، لتتوضأ وتصلي على السرير والقيود حول معصميها، استمر الوضع على ما هو عليه، حتى رفع الجيران شكوى ضد والدها، وأجبروه على توقيع ورقة تلزمه بعدم إيذائها، لكنه استمر في ضربها، ذات مرة تعرضت للضرب المبرح ونقلوها إلى المستشفى، وحين سألتها الشرطة عن الحادث، قالت لهم إنها تعثرت على الدرج، كانت تقول لي: سافر يا كاظم، خض تجارب، لا تتوقف أبدًا عن الكتابة، ستصبح في يوم من الأيام كاتبًا عظيمًا وستكتب عن معاناتي، كن صوت الذين لا صوت لهم.

ـ كل هذا حدث لها بسبب أنها أحبت ولدًا من القرية!

ـ بالتأكيد لا، هناك سبب آخر موجع وعميق، لكنني لا أريد أن أنبش الجرح من جديد.

وأصرّت إيفا على معرفة كل شيء.

ـ كان أبوها قاسيًا كالصخر، مرعبًا بشاربيه الكثيفين، فظًّا وغليظ قلب. ينتظرها كل مساء في فراشه، بينما أمها تزداد التصاقًا بباب الصالون خوفًا منه، تنهال نظرات الشفقة من عينيها دون أن تبدي أي حركة أو أن تتفوه بكلمة. بدأت الحكاية منذ ذلك اليوم، حين أحسّت بنظراتٍ وقحة تخترقها، وهو يقول لها (كبرته وصار إلنا شغل ثاني)، ثم تواترت تلك النظرات وتصاعدت حتى جاء ذلك المساء، كانت جاهلة كما يقال ولم تدرِ ما كان يحصل، أمسك يدها النحيلة بقوة حتى كاد يعتصرها، أدخلها الغرفة، كانت ترتعش بينما يده تجوس وتحصد جسدها الذي لم يتفتح، كانت مسجاة على الفراش والألم يعتصرها، زحفت إلى زاوية الغرفة واختبأت، كانت رائحته كريهة وأنفاسه الخبيثة تخنقها، شعرت بالقذارة، وبقيت تتذوق مرارة هذا الأمر من أبيها وأخيها الذي اقتسمها أيضًا، بعدما هددها بالضرب المبرح حتى الموت، وعندما حاولت إخبار عمتها، كذبتها واتهمتها باختلاق القصة.

شعرت بالتعب والإرهاق الشديد. أنهكتني إيفا بأسئلتها المشرعة على الذاكرة، فتحت جروحي عن آخرها. وحين ذكرت عائلتها التي انهارت، لمست حزنًا على وجهها: كان أبي تاجرًا كبيرًا، تدر عليه المشاريع التي يقوم بها في المدينة أموالًا طائلة. كان يصطفي ما يشتهي من النساء الجميلات ويعاشرهن، سكيرًا لا يترك حانوتًا إلا ويدخله، لكنه كان يحلم بالزواج من فتاة تنحدر من الطبقة الفقيرة،

على قدر عظيم من الحسن والجمال، صاحبة ذوق وأخلاق عالية. لم يكن يريدها من الطبقة الراقية في المجتمع الإسباني، هكذا فكر فيها، امرأة سهلة الانقياد والانصياع له، إن أصدر أمرًا ما، وجدها مطيعة لا ترد له طلبًا. عجينة سلسة ولينة يشكلها كما يشاء، يخرج ويتسكع في شوارع برشلونة، يحتسي الخمر ويمارس الجنس مع عشيقاته، دون أن تعترض أو ترفع صوتها، لكن أمي لم تكن عند حسن ظنه. لقد عاندت كثيرًا وقاومت، دافعت عن كبريائها وحريتها.

في البداية، كانت له زوجة صالحة، مشغولة بأمور البيت والحمل وتربية ابنتها الوحيدة، فيما بعد أدركت لعبته، فبدأت حربها عليه. أصبحت تخرج في أي وقت تشاء، متبرجة، متخففة قدر ما تستطيع من ملابسها. عندما عرف أبي بالأمر، رجع إلى البيت وضربها بجنون، بعدها طلبت الانفصال عنه، وكان لها ما أرادت.

كانت إيفا تنظر إلي صامتة، تتأمل ملامحي العربية. أدركت فجأة أنني محط أنظارها، أضافت بلهجة متقطعة.

ـ أنا ضحية الفظائع التي ارتكبها والدي، وأنت هل والداك يعيشان في بيت يسوده التفاهم والحب، أم أنهما منفصلان؟

ـ إنهما ميتان. الأب كان البطريرك في البيت، الرجل المقدس، الأم طالما ذرفت الدموع، قلبها متعب، وجسدها منهك، نحيلة جدًا، أصابعها جافة، مرتجفة. كانت في الأيام القاسية حيث لا نجد في البيت، سوى الخبز اليابس الذي كانت تبله بالماء حتى نستطيع مضغه،

تذهب إلى السوق بحثًا عن عمل، بينما والدي في صومعته يتهجَّد، لا يتذكرنا إلا كل شهرين مرة، كان يقول: الدعوة إلى الله أهم من الأكل والشرب. أعجب منها كيف استطاعت أن تقوى على مواجهة مصاعب الحياة، وتحمّل واستيعاب ظلم والدي لها. امرأة قوية، ترعرع أولادها على يديها، وتعلّموا وتزوجوا. لكنها كانت ضعيفة في مواجهة أبي، أو أنها كانت تخاف علينا من الدنيا، إن تطلقت منه واضطرت للرجوع إلى بيت أهلها. حين كانت ترجوه أن يبقى معنا، ويجد لنفسه عملًا لأننا كنا نتسوّل من الناس، كان يضربها ويصفها بالمجنونة، يسحلها على الأرض أمامنا، ونحن لا نجد سوى البكاء والصراخ، يلعنها كأنها شيطان رجيم، ثم يغيب شهوراً عدة قبل أن يجيء مرة أخرى. الحياة في تلك البلاد معكوسة، كأنها تمشي على رأسها، هل تفهمين ما أقول؟

وتناولت يدي بعفوية كبيرة. أومأت إلي برأسها أنها فهمت، قالت هامسة: عقدة أوديب.

ـ الميثولوجيا اليونانية وفرويد. هل هذا شيء سيئ؟

ـ لأنك لم تقتل أباك، ستقتل كثيرًا وتنام مع كثيرات.

ـ هذه نبوءة سيئة، وقبيحة جدًا.

في المساء، أخذتني إلى شقتها. كانت هادئة وبسيطة، تتكون من غرفتين، تبعث في المرء شعورًا بالارتياح، الأرائك موزعة في الصالون بشكل أنيق، الجدران مطلية بالأزرق، طاولة وحيدة في الوسط تعلوها مزهرية ورد، لوحات جميلة معلقة في الأرجاء.

دقيقة، وغابت في الممر المؤدي إلى المطبخ، لتعود بزجاجة وكأسين في يدها. خضتها برهة ثم فتحتها، وفاض الزبد من فوهتها، فرشفته بشفتيها. كنّا مفعمين بالحزن، اقتحمتنا كل انكسارات الزمن الفائت. وجدت نفسي في حضنها، أطوّق خصرها.

عندما انتهيت من الرشفة الأخيرة للكأس، بدأت إيفا بالرقص، رأيت جسدها يتمايل، ويتكسّر على إيقاع الموسيقى.

من أين يأتيني كل هذا الوجع دفعة واحدة؟ سألت نفسي، وأنا أنغمر في غيمة سكر لذيذة. الأضواء البنفسجية كانت تنكسر على الزجاجات المرصوصة في الرفوف، والصور التي كانت تصطف على الجدران.

ـ من أين لك هذا الشجن في رقصك؟

ـ الرقص ثقافة جسدية، ولغة ذكية، تحاور الروح والمشاعر، بأسلوب متناغم وجميل، أما الحزن فهو وقود الرّقص، إنه يشعلني من الداخل. هل تعرف أن الرقص كان ضربًا من ضروب العبادة مارسته الشعوب القديمة بهدف التقرب من الآلهة؟ كان تعبيرًا صادقًا عن الظلم والاضطهاد اللذين تعرضت لهما بعض الجماعات، مثلًا رقص «الفلامنكو»، يعتمد على الإيقاع العنيف وسرعة ضربات الأرجل المعبرة عن الغضب والاستياء.

ـ هذه الثقافة غائبة في مجتمعاتنا العربية.

ـ الجسد له لغة وثقافة يجب تعلمهما، حتى نحقق التوازن

المطلوب في داخلنا. الإنسان البدائي عرف الرقص، وكان ذلك بدافع السعادة أو الألم، يبدو أنهم عرفوه في ثقافات متعددة ومتنوعة.

ثم حدثتني في آخر الليل عن أمها: عانت أمي كبقية النساء في الطبقة العاملة، كل أشكال الاستغلال والقهر، في ظل نظام رأسمالي متوحش. بعد أن طلّقها والدي، وجدت نفسها في عالم لا يرحم، لجأت فيه إلى الاتجار بجسدها، وأغريت بالمال والسعادة الوهمية، بحيث نسيت المخاطر والمهالك المنتشرة في عالم البغاء. وصلت إلى طريق مسدود، لم تعد قادرة على ترك ما بدأت به. كانت تبكي دائمًا، وتعيش في حالة غربة عن جسدها، وكنت أراها تستحم في اليوم عشرات المرات، حتى يتطهر جسدها من روائح أجساد الزبائن. كانت تؤكد لي أنها ضحية لهذا العالم، وكانت تخاف عليّ أن ألقى المصير نفسه. لقد عاشت في حالة مأسوية منذ صغرها، حينما فتحت عينيها على الدنيا، ووجدت والدها في بلد وأمها في بلد آخر. ما ذنبها أن تنشأ في عائلة مفككة، وتحرم من الشعور بالحنان والأمان كبقية الفتيات؟

صباحًا اكتشفت نفسي عاريًا. كانت إيفا حديقة ورد تعبق إلى جانبي. قبّلتها على جبينها بهدوء، ثم زحفت نحو النافذة وفتحتها. كان الجو رائقًا، فلورنسا تحرّضنا على قضاء يوم ممتع. ملأت صدري بالهواء المنعش، وحاولت إزاحة سحب الحزن من داخلي. ظلّت مرارة في الأعماق وشيء من تعذيب الضمير. توجهت إيفا نحوي، حينما رأتني شارد الذهن، وملامح الندم تعلو وجهي.

ـ ما بك؟

ـ آسف إيفا، لم أقصد. كنتِ حزينة ومنكسرة ليلة أمس، أشعر بتفاهتي، لقد استغللتُ ذلك.

ـ لا تقل ذلك، لقد فعلت ذلك بإرادتي. أنت الوحيد الذي نظرت إلي بحنان، في عالم قائم على الاستغلال والظلم، استمعت إلى مشاكلي وهمومي دون ضجر.

ـ أشعر أن لديك الرغبة، في أن تبوحي بما يجول في خاطرك. أنا أسمعك، لا تتركي شيئًا في داخلك يخنقك، ويضيق عليك حياتك.

ـ عانيت كثيرًا في طفولتي. كنت أصحو على شجارات أبي وأمي، وكنت أكره أبي لأنه كان ظالماً وقاسيًا، يضرب أمي ويصفها بأبشع النعوت. نشأت في ذلك الجو المشحون والبارد والجاف، عبثًا حاولت نسيان الماضي، إنه يلاحقني ويذبحني من الداخل. منذ الصغر وأنا أبحث عن قضية، وجدت نفسي في محيط من التحرر اللامعقول، انتميت إلى جماعة الهيبيز في مراهقتي، لبست الملابس الفضفاضة والفاقعة، وأعلنت ولائي للإنسان والطبيعة، حاربت ضد العولمة، أحببت فلسطين قبل أن أتعرف إليك. تعرف؟ كلنا نسعى للحرية، وتحطيم قيود الظلم والعبودية.

ذات يوم، ما إن تجاوزتُ عتبة الباب حتى ركضت نحوي وعانقتني. هل اشتقتِ إلي؟ سألتها. أمسكت يدي ثم سحبتني نحو

الداخل. كانت غاضبة، عيناها تقدحان شررًا، أشارت إلى الأريكة وأردفت: هل تراها؟ نعم، أجبتها.

ـ أريد الآن أن نمارس الحب عليها.

تعرقت، ارتفعت حرارتي.

نظرت إلى عينيّ مباشرة، نظرات ارتج لها جسدي، ثم اندفعت نحوي وراحت تمزق قميصي. بلعت ريقها وعضت على شفتها، بدت أكثر جنونًا، دفعتها بعيدًا.

ذهبت إيفا إلى المطبخ وجهزت القهوة. سألتني: «لماذا أنت عابس؟ لماذا لا تضحك؟».

«كل شيء يدفع المرء للحزن، على ماذا أضحك؟» أجبتها.

ـ على سخافتك.

ـ أنت لست طبيعية اليوم، عصبية جدًا، هل أنت مريضة؟

ـ أبحث عن الحب باستماتة، هل تفهمني؟ في داخلي إيقاع عنيف، إن خرج عن حدوده، فلن أعود إيفا التي تعرفها. أنا كائن وحيد، أحتاج إلى الحب.

سكتت لحظة، ثم أطلقت كلماتها كالإبر السامة.

ـ هل أنت مخصي؟ تدعوك امرأة جميلة، شابة، وترفض، أي حماقة هذه؟

عندئذ رأيت شياطين الدنيا كلها، وقفت أمامي وأخرجت ألسنتها لتغيظني.لم أفه بكلمة، اندفعت نحوها وبدأت بضرب رأسها

بخفة على قماش الأريكة. أصدرت آهة صغيرة، ثم انهمرت عليها بالقبل. خلعتُ ملابسها بسرعة صارخًا فيها. عندما اصطك الجسدان، وتصاعدت الآهات الحارة، سمعت أنينًا يخرج من أعماقها، كما أني شعرت بسخونة سائل على صدري. حين رفعت وجهها، وجدتها باكية، فمسحت دموعها بأناملي.

بعد أن فرغنا، انصرفتُ إلى المطبخ لآكل شيئًا، بينما عدّلت جلستها ومدت رجليها إلى الطاولة، ثم شرعت تدخن بشراهة. أتيت لها بغطاء ووضعته على جسدها. أمسكت يدي وقبلتها، ثم غطت في نوم عميق. جلست على أريكة الزاوية، ورحت أتأملها. كانت بريئة، طيبة، حنونة، وصلني نسيم أنفاسها، عطرة، رائعة، تنعش الروح.

فتحت باب البيت بهدوء ثم خرجت. ما إن وطئت قدماي أرضية الشارع، حتى تساقط رذاذ مطر على وجهي. صعدت إلى الحافلة وتوجهت صوب مركز المدينة، نزلت في محطة سانتا ماريا نوفيلا، عبرت ساحة المحطة، ثم مشيت طويلًا وعبرت شارع كنيسة القديس لورينسو، ثم شارع قصر ميدتشي، توغلت في العمق حتى وصلت إلى نهر أرنو، مشيت على ضفة النهر. كنت أرغب فقط في المشي في محاولة للنسيان، بذل أكبر مجهود جسدي ممكن، لإشغال العقل ومنعه من التفكير.

(١٢)

La speranza c’e sempre ....(*)

الليلة البيضاء، هي ليلة الانفكاك من العقل في فلورنسا. يحييها التوسكانيون بالرقص والغناء حتى ساعات الفجر، ينزلون إلى مركز المدينة رجالاً ونساءً يشربون حتى الثمالة. يفرحون بطريقتهم الخاصة، في البداية لم أحبذ هذا المجون والفرح المبالغ فيه والعالم يكسوه السواد، تملؤه الحروب وصرخاتُ الأطفال الجائعين، لكني عندما تذكرت بلادي، رأيت مدى البؤس والكآبة التي يعيشها الناس، فأخرجت هذه الفكرة من رأسي، واستبدلتها بفكرة الرقص والغناء بدل النحيب والعويل. نحن لسنا بحاجة إلى مزيد من الحزن بقدر ما نحن بحاجة إلى الفرح في حياتنا، إننا نضيع أعمارنا في أمرين: التفكير في الماضي والخوف من المستقبل.

تلك الليلة كانت كثيرة الألوان والألحان، خرجنا من الرتابة القاتلة والصمت الرهيب. كانت المدينة تلعبُ دور امرأة، تراقص القمر على ألحان العازفين المنتشرين في الساحات العامة، تمارس فرحها الصاخب في العلن. الكل خرج تلك الليلة مع حبيبة أو صديقة، ليعيش آخر لحظات المتعة قبل أن يحترق خيط الحياة النحيل، ما أحلى السهر في مدينة العشق فلورنسا، ملكة جمال العالم.

(*) الأمل دائماً موجود.

لكني ليلتئذ كنت واقفًا كتمثال جامد، نظري مثبت على شاهدة قبر. دارت في رأسي فكرة واحدة: لماذا يموت الإنسان؟ يموت وينسى، يندثر، يصبح رقمًا، يمشي الحي على جثته، يدوسها، يسحق عظمه حتى يصبح رمادًا. شعرت ببرودة شديدة، العزلة، الخوف، التمزق والتبعثر الداخلي، أخرجت من جيب سترتي سيجارة وأحرقتها، نفثت الدخان على دفعات، سعلت، تقيأت دمًا، لم أستطع المكوث وحدي، كان الكون يدور في رأسي، اتصل بي ليوناردو.

التقت عيناي الغاضبتان عيني سكير كان مارًّا في المكان. تقدم نحوي، وحين وقف أمامي، وضع إصبعه على صدري وأزاحني نحو الخلف، وهو يترنح يمنة ويسرة. ظننته سيفقد توازنه ويسقط، لكنه تماسك وقال لي بلهجة إيطالية غير واضحة: أنت ستُجن! لم أفهمه في البداية، لكنه حين راح يكرر الكلمة غير مرة، أيقنت ما سمعت، ستجن، ستجن. حسنًا، الجنون نعمة، قلت في نفسي، كان منظره غريبًا، وسيئًا، يدفع المرء للتقيؤ. لحظات وإذ بليوناردو يقف إلى جانبي، قامة طويلة، شعر جميل، معطف أسود.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ كما ترى، أقرأ من القرآن على روح معتز، إنه قبره. كل من يأتي إلى هذه البلاد، يموت من القهر والغربة.

ـ هذا غير صحيح. أنت تعلم أن فلورنسا احتضنتك في أكثر الأوقات قسوة.

وكان كلامه صحيحًا.

ثم أضاف: «من معتز، لم أسمع به من قبل؟».

ـ أنا نفسي لست أدري إن كان شخصية حقيقة، أم من صنع خيالي.

ـ كيف؟

ـ يتماهى لدي الواقع بالخيال، ويمتزجان. هناك خيط دقيق يفصل بين العالمين، لكنه يذوب في بعض الأحيان، فتتشابك الصور والشخصيات والذكريات. أعلم أنه من الضروري أن أعيش في الواقع، إلا أن أسلاكًا غير مرئية تشدُّني نحو عالم آخر، إنها أسلاك من حب ودهشة. تأتي الشخصيات التي خلقتها على الورق، لتشاركني في الفرح والحزن وتنتشلني من الوحدة. على الرغم من ذلك، يبدو لي معتز اللبدي حقيقيًّا أكثر من غيره، بمعنى أني تعرّفت إليه في زمن ما. كيف أشرح لك؟ كأننا كنّا صديقين، يعرف أحدنا الآخر جيدًا، قبل أن أتعرّض لحادث وأفقد ذاكرتي، لتعود إلي الذاكرة إلا هذا الجزء الصغير المتعلّق بمعتز، بقي في الظل ومنطقة الخيالات.

ـ من أين هو؟ فلسطيني؟

ـ نعم، أعتقد أننا من قرية واحدة تقع في شمال الضفة الغربية.

ـ تعتقد! ألم تقل لي إن هذا قبره؟ لا بد أنك مرهق، هيا تعال معي.

وحاول أن يسحبني بعيدًا عن القبر.

ـ قالوا لي إن شخصًا يُدعى معتز، اختفى قبل وصولي إلى إيطاليا، حيث مات منتحرًا.

ـ وماذا أيضًا؟

ـ لا أدري. على كل حال، إنه موجود في الرواية التي أعمل عليها، ويعيش معي طوال الواقت. ربما نستطيع أن نصل إلى النتيجة التالية، هو حقيقي لكنّي أعدت خلقه من جديد في عمل فني، ليخرج لنا في النهاية كائناً هجيناً، غرائبياً، مزيجاً من واقع وخيال.

ـ أوف. تشبيه جميل.

ـ أشعر بالتيه والضياع. الكتابة من جهة، وأنت ودافني من جهة أخرى، خيانتكما لي كانت قاسية وطعنة في الظهر.

ظهرت ملامح الغضب على وجهه.

ـ أنت تهلوِس، لم يحدث شيء مما تتصوره. خيالك جامح وأنت لا تحاول أبدًا كبحه، إضافة إلى العقاقير والمهدئات التي تأخذها، وتسبب لك الهلوسات والكوابيس.

ـ ليوناردو! توقف عن هذا الهراء. تعرف أنني في كامل قواي العقلية، توقف عن اللعب على هذا الوتر الحسّاس، أنا لست مجنونًا.

ـ لم أقل إنك مجنون، أنت بحاجة فقط لأن تتوقف عن الكتابة قليلًا، وتمتنع عن تناول العقاقير، ثم تذهب لزيارة طبيب نفسي.

ـ اسمع. أنا ومعتز من قرية واحدة، تعرّف إلى فتاة اسمها دارين، من رام الله، وأحبها، ثم ظل يركض خلفها إلى برشلونة، قبل أن ينتحر. قلت له غير مرة: اتركها يا معتز، هي بنت مدينة وأنت قادم من الريف، ستأكل قلبك. صحيح أن بنات المدن فاتنات، لكنهن قاسيات... لم يسمع كلامي و...

ـ يا إلهي، كل هذا لا يعنيني، إنها رواياتك.

ـ لا إنها الحقيقة. وجزء من الحقيقة هو أن زوجتي دافني قد خانتني معك.

ـ هذا غير صحيح. لقد تركتك لأنك أهملتها وانصرفت إلى رواياتك. لم تشعرها بأدنى اهتمام حتى باتت تغار من شخصياتك النسائية. هذه الحقيقة التي يجب أن تعرفها، الكتابة والعقاقير وكوابيسك هي التي أوصلتك إلى هنا.

لم تكن دافني بحاجة إلى الإقناع، لكي توافق على اقتراح ليوناردو. قال لها فقط: أود رسمك في مرسمي. فأعطته رقمها واتفقا على اللقاء. لقد حدث كل شيء أمامي، ولم أحرّك ساكنًا رغم غيرتي. في الحقيقة، خفت خسارتها، لأنها انتظرت عمرًا كاملاً على أمل أن يطلبها فنان ليرسمها.

ذات يوم، أثناء زيارة لي إلى منزل ليوناردو، وقعت عيني على كراسة رسم. وجدت تسع رسمات لنساء عاريات، ورسمة لزوجتي كانت في الصفحة الأخيرة من الكرّاسة. عندئذ فقدت عقلي، ومزّقت الكراسة. قال لي إنها لم تخلع حتى معطفها، كنت أعرف أنه يكذب، وأنهما التقيا غير مرة.

أخذنا نمشي حتى وصلنا إلى الجسر الذي يقطع النهر، ثم وقفنا ننظر إلى الأضواء التي راحت تتكسر فوق المياه.

سألته: أما زلت ترى ذلك الحلم؟

ـ نعم، لقد رأيته مرة أخرى. الموت قريبٌ مثل الأشياء المألوفة من حولنا، لكننا نستبعده لأنه صعب وقاسٍ، لذا يستحيل غريبًا وبعيدًا عن حقل رؤيتنا (اللاهتمام بشأنه، يعني أنه غير مرئي).

ـ افترض أنني صدّقتك، كم يومًا تبقى لي؟

ـ لا أدري، ربما يوم أو شهر أو حتى سنة.

ـ الموت بالنسبة إلي، مرتبط ارتباطًا عضويًا بفكرة الخلود. لقد نشرت أول رواية وأنا في الثانية والعشرين من عمري، إذ إنني كنت أرى الموت منتصبًا أمامي. كان يجذبني من ياقة قميصي، ويوثقني بالمكتب ساعات في اليوم، كي أكتب وأنجز أكثر. ما يهمني الآن، أن أنهي الرواية التي بين يدي، سأبذل قصارى جهدي لإنجازها.

ـ الخلود؟ ظننت أنك تكتب للمتعة، لتقول ما يجب أن يقال، أتظن أن الخلود يأتي فقط من كتاب واحد؟

ـ اسمع. كتبي ليست لهذا الزمن، إنها للأجيال القادمة، كتبتها بحيث يستعصي تغيير كلمة واحدة، إنها سحر وتنبُّؤ. كل ما فعلته هو كتابة الكتب، لكني فيما بعد فُتنت بفكرة الخلود. أن تموت وتحيا كتبك عقوداً طويلة، وتقرأ في المستقبل. يا إلهي ...

رحت أرتجف وأنا أشرح له أفكاري حول الخلود: إنه الرعب من أن تكون «كائنًا منسِيًا» يا ليوناردو، أن تعيش على الأرض عقودًا ولا تترك أي أثر. رعب النسيان يفوق الموت بأضعاف. أريد جيشًا من المؤلفين والصحفيين وأساتذة الجامعات، الذين يؤلّفون الكتب

والمقالات كي لا أصبح في طي النسيان. إنه الرعب. الرُّعب من أن تصبح منسيًا مثل مليارات البشر الذين مرّوا ولا نعرف عنهم شيئًا.

ضغط على يدي المرتجفة: اهدأ كادم. اهدأ. أنا أفهمك لا تخف. ينبغي أن تتوقف عن الكتابة. اللعنة على الخلود، أهذا معناه مزيد من العقاقير والتخيُّلات وإيغال في المرض؟

ـ لا. الكتابة عملية شفاء، إنني أكتب لأشفى. بحاجة لاستنزاف ما بداخلي على الورق لكي أعيد التوازن إلى نفسي، لقد توقفت عن الكتابة منذ ثلاث سنوات.

ـ أنت تعيش في وهم.

ـ الإنسان يعيش في الأوهام، لأنها تجعل حياته محتملة.

الجزء الثاني

(١)

نحن الآن، ندخل في اللوحة: ثمة امرأة ضئيلة الجسم، لها نهدان نافران، وخدان غائران، وعينان حادتان، نستطيع أن نقول بأن تقاطيع جسدها متناسقة، إذ لا وجود لما هو فائض. شعرها ملتف في كعكة على مؤخرة رأسها، وإذا قلبنا المشهد، لننظر إلى أسفل، فإننا سوف نجد بأن شعر العانة على شكل مثلث مقلوب. إنها دافني في غرفة نومها، وساعة الحائط تشير إلى الثامنة صباحًا. نحرّك زاوية النظر قليلًا: خلفها مباشرة، نرى مكتبًا خشبيًا، وكرسيًا دوارًا، وعلى المكتب حاسوب محمول. على الجدار المواجه للنافذة يوجد رفوف عليها أسطوانات مدمجة، وسماعات ستيريو. هناك أيضًا هاتف، وخزانة ملابس، وساعة منبّه، وروايات.

حوالى الساعة الثامنة صباحًا، تقف دافني عارية أمام المرآة، تعيد اكتشاف سلطة الموسيقى السّحرية على جسدها. تضع أسطوانة على القرص الدوار، ثم تدلي الإبرة على الأسطوانة. تمارس دافني هذا

الطقس الصباحي منذ مراهقتها، تقول: إنها محاولة لرتق جروحها الجسدية عبر الموسيقى والرقص.

كانت عاديّة، وهذا ربما ما أعطاها تحررًا أكبر إزاء نفسها والعالم. لقد أعطتها هذه «العاديّة» المساحة التي تحتاج إليها كل أنثى لتبني نفسها، بعيدًا عن كونها معجزة عليها في كل يوم أن تبرهن على جودتها وسطوتها. لكنها في الوقت نفسه، كانت تحب أن تنظر إلى جسدها في المرآة وهو عارٍ، تشعر أن فيه شيئاً مميّزاً يخصها، ولا يقدّر بثمن.

منذ مراهقتها إلى سن النضج، أو ما يسمى بتفتح الجسد الأنثوي، كانت تراقص جسدها وتهتم به، ولم تخجل منه رغم تعقيدات الطفولة. تخصص ساعات طويلة من أجل عينيها وأظفارها وشفتيها وبطنها وظهرها ونهديها، إلا أنها وللتأكيد كانت عادية، لكنها جذّابة.

جسمها عقلاني حتى الظهيرة، إذ يتمدد ويثور ويذهب نحو الحمق والتصرّف بغرابة، ترقص في غرفة نومها، تجرّب حمالات الصدر بألوانها المختلفة، ترسم خطوط الكحل حول عينيها، تجري تمرينات المعدة، تذهب إلى الحمام وتعود من جديد إلى الغرفة، تفتح خزانتها لترتدي تنورة ثم تخلعها، تجرّب بناطيل الجينز الضيقة والفيزونات والبلايز، تحاول أن تزوّق الثياب أمام المرآة، تحارب وسط الثياب الداخلية، كأنها جندي محموم في معركة.

تقيم دافني في جسدها. لقد وصلت إلى مرحلة من التصالح والتماهي، حتى أنه أصبح تسليتها الوحيدة في أوقات الفراغ. كما كانت تلومني كثيرًا إذ أفقد الإحساس بجسدي، فأنساه في كثير من الأحيان، ومن الجدير ذكره أنها كانت تنظر إلي بحسد: الفرق البيولوجي بين الجسد الأنثوي والذكري. لم يكن ضروريًا أن أقف أمام المرآة في كل صباح لأصلح من الماكياج، وهيئة الشعر، أو أن أبحث في خزانة الملابس، عن الملابس الداخلية المناسبة. في حين كانت تقوم بالحميات الغذائية، وتبتلع الأدوية وحبوب منع الحمل، وتلبس الفوط في كل شهر. بالتالي، كانت هذه النظرة إزاء جسدها الأنثوي: زهوًا، عشقًا، انشغالًا يوميًا. بينما كان الجسد الذكري، يعيش، من وجهة نظرها، في عالم اللامبالاة واللاكتراث. هذا ما شكّل حملًا ثقيلًا على جسدها، تشعر بأنه أمام مسؤولية كبيرة: الحفاظ على التناسق والجمال، في عالم يزداد في كل يوم بشاعة.

«إنها مهمّة مقدّسة، إلهية» قالت لنفسها.

وكانت تحب أن تتصور عارية، دون أي قطعة قماش تستر جسدها. ذات يوم، قامت بهذه التجربة مع أحد أصدقائها، بعد مشاهدة فيلم في السينما. انتهت التجربة نهاية سيئة، حيث حاول الشاب الاعتداء عليها وإجبارها على ممارسة الجنس معه، إلا أنها تمكنت من ارتداء ملابسها الداخلية، والهروب في آخر لحظة.

تعد هذه من الذكريات السيئة بالنسبة إلى دافني، حيث حدثت

فيها أيضًا أول قبلة في حياتها. عند مشهد عاطفي في الفيلم، بالضبط عندما اقترب البطل ليُقبّل البطلة، اقترب الشاب من دافني ودسّ لسانه في فمها، فأحسّت به يلامس أسنانها، وتخيلت العالم من لُعاب، فشعرت بالقرف وأزاحت وجهها.

قال لها مستاءً: ألا ترغبين في ذلك؟

أصبح لون جلدها ورديًّا، ونفث جسدها رائحة ما، اعتقد الشاب بأنها رائحة الرغبة، وتحالفت العتمة والحواس بنداء الدم، فحاول مجددًا بلسانه أن يفتح شفتيها الرقيقتين، لكنها أطبقتهما ولم تسمح للسانه أن يمر إلى الداخل، بحيث استحال عليه التقبيل، فاقترح أن يخرجا لتناول العشاء في الخارج.

كان الأمر عنيفًا وصادمًا، وغير متوقع، فحرّك في داخلها تناقضات عديدة: القرف من رائحة الذكورة، الرغبة في أن تكون مُشتهاة ومركز استثارة، وقوعها تحت ضغط نزوي عارم، ونجاحها في الإفلات منه. فيما بعد حدّثت صديقاتها بما حدث معها، فانفجرن من الضحك. أطلقت الفتيات ثلاثة أنواع من الضحكات: ضحكات مكبوتة، وضحكات حسد، وضحكات رغبة.

ـ كم أنت مسكينة؟ ألم تجرّبي القبلة حتى الآن؟

شعرت بأنها مخدوعة، مغشوشة، والعالم يستحقرها، والرجال أكثر الكائنات نذالة، إذ رأت بعد يومين فقط، الصبي نفسه يقبل فتاة أخرى، في إحدى الحدائق العامة. بدا لها الأمر على قدر كبير من

الوضاعة، وأثار في نفسها التقزز. قالت لنفسها: ألسنة الرجال قادرة على الولوج إلى أي فم، المهم أن تغمس نفسها في لُعاب النساء الحزينات، والمحرومات من اللّذة.

في لحظة الذروة، كانت تفتح عينيها على وسعهما، وتنظر إلى نفسها في المرآة، وهي ترتعش. كانت في البداية تحرص على إطفاء المصباح في الغرفة، فيما بعد أصبحت تضيء الغرفة بمزيد من اللمبات الكهربائية. تريد، حسبما تقول، أن أرى تفاعلات الجسد وارتعاشاته تحت الضوء، أن أرى الجسد بجماله واشتهاءاته، وإزاء كل هذا، ينبغي أن تقرأ العرفان في عينيّ، ثم بصفتي كاتباً روائياً، كان عليّ أن أكتب عن جسدها في الروايات، وبما أنني شرقي، كنت أرفض طلبها بدافع الغيرة. لكن، لماذا أكتب عنه الآن؟ ربما، لأن ثمة من سبقني في تلبية رغبتها، لذا لم يبقَ ما هو ممنوع. وهذا ما سيحيلنا على حكايتها مع صديقنا الرسام ليوناردو.

إذًا، بما أنني رفضت تلبية رغبتها، توجّهت إلى أهم رسّام معاصر في مدينة فلورنسا. كان بالنسبة إليها فرصة العمر، الحلم الكبير الذي راودها منذ الصغر: أن تتعرّى أمام رسام في محترفه، يخلّد تفاصيل جسدها في لوحة، ثم يخط على جسدها خطوطاً سوداء، لتبدو مثل الحمار الوحشي، متأثرة برواية «الحياة في مكان آخر» لميلان كونديرا.

كانت تبحث عن الخلود والمجد، واعتقدت أن الفن والأدب،

وحدهما قادران على حفظ ملامح الإنسان من التلف، لذا خانت، والخيانة من وجهة نظرها، وجه من وجوه الوفاء.

الوفاء للجسد، وفكرة الخلود.

كانت تقول لي: الإثم من وجهة نظرك هو التقاء جسدين، بينما اقترافك الخيانة بأفكارك وكتاباتك، هذا لا تحسب له حسابًا. إنك تمارس دعارة مع شخصيّاتك النسائية في الروايات، وتريدني أن أظل صامتة.

بينما كنت أملك تصوّراً آخر حول الجسد: إنه فريد وخاص وحميم، ينبغي صون هذه الخصلات الثلاث. كنت أرفض ابتذاله ـ الجسد ـ في علاقات عشوائية، غير مبنيّة على الحب والاحترام المتبادل، (هذا إذا استثنينا النزوات التي قمت بها أثناء الفترة الجامعية). ولأن الجسد الإنساني أسمى آيات الجمال، لم أخجل من الحديث حوله والتغني به في كل ما أكتب. كنت أقول لنفسي: إنها مهمة إلهيّة، أن أتغنى بما صنعت يد الله. لكني في الوقت نفسه، كنت أشعر بالغيرة وأحرص على استبعاد جسد دافني قدر الإمكان. خفت أن تعيش في خيالات القراء الجنسية، وتصبح مطلوبة ومرغوبة ومشتهاة من الكل، إنها فكرة بشعة ومرعبة: أن تكون مرغوبة من الجميع. لذلك، كانت العلاقة الجسديّة من وجهة نظري هي الخيانة الحقيقة، بينما لم يخطر ببالي أن ثمّة خيانة للآخر في الاستيهامات والأحلام.

كان الجسد بالنسبة إلي، مساحة صاخبة بالتناقضات الشرقيّة: إنه

العيب والحرام والممنوع، كما أنه الشهوة والرغبة والجنس. الجسد وما فيه من أشكال دائرية، ممتلئة ومتكورة، هو جسد أخذ شكل المكيدة، مفخخ بالغواية.

بينما كانت تشتهي أن تتعرّى، ويكتب عنها، وتُرسم، وينحتوا لها التماثيل. يسكنها الهوس بالخلود عبر جسدها، فيما كان يسكن ليوناردو هوس الخلق والإبداع. من هنا، التقت رغبتان متطرفتان: رغبة دافني في الخلود، ورغبة ليوناردو في الخلق.

(٢)

كانت تبحث عن التفرُّد والتميُّز من الآخرين. تحلم «بدافني واحدة» في إيطاليا، وهذا ما دفعها للذهاب إلى مرسمه.

سواء قال لها إن النساء اللواتي يأتين إلى مَرسمه، لسن أكثر من نماذج تجريديّة للجسد الأنثوي «موديلات»، تأتي الواحدة منهنّ باختيارها، إشباعًا لرغبة داخلية في التعرّي، أو لتعميق إحساسٍ بالجمال لديها، واكتشاف خفايا جسدها بريشة رسّام بعد أن ملّت المرايا، أم لم يقل لها ذلك، فإن النتيجة واحدة. كانت ستأتي بمحض إرادتها على كل حال، نزعة مستترة في التنافس والتمايز.

تنتشر اللوحات والحوامل الخشبية بشكل فوضوي في أرجاء البيت، كذلك الأدوات الفنية المبعثرة من علب ألوان، أحبار، فراشٍ، ورق، أقلام. أعمال معلّقة بشكل أنيق على الحيطان التي بلون البحر،

مكتبة صغيرة تحتوي على كتب أدبية وفلسفية وفي الفن التشكيلي. البيت كله محترف، والمحترف متحف فني جميل.

طوال الليلة، وهي تقصّ عليه الكابوس الذي رأته في نومها: عشر نساء من فئاتٍ عمريّة متفاوتة، بأجساد مثل التماثيل الرومانية، لامعة ومصقولة بحرفيّة. اقتحمن مرسمك بفظاظة. نزعن ما عليهنَّ من ثياب وحُلي، وبدأن بالهبوط إلى بركةِ السباحة. جلستَ على عرشكَ مثل ملك أو إله فرعوني تراقبُ من علٍ.

مرّت دقائق عديدة والنار تشتعل وتتصاعد من تحت الماء، ثم خرجنَ عاريات الواحدة تلو الأخرى، بينما قطرات الماء لا تزال تقطر على جلودهن. فجأة، لمحت خيطًا من الدم يسيل تحت أرجلهن ويتقدّم نحوي، ارتفع الصراخ، ركضت النساء ورمين أنفسهن في المسبح، رأيت ضحكة عريضة على وجهك. ضحكة منتصر على رغبات محمومة لنساء مهزومات.

قال لها ليوناردو، وهو يشد على يدها المرتجفة: «اللعنة عليك يا دافني، وعلى أحلامك. ما هذه الأفكار الساديّة التي تراودك؟ لست سوى رسّام لأجساد بَشَر، هذا فن متعارف عليه في كل العالم. دخلت الكنيسة مرتين فقط، المرة الأولى عند التعميد، والمرة الثانية في جنازة والدي الذي أطلق النار على رأسه، وليس لدي علاقة بأي إله سوى هذا الجسد الذي أعيد خلقه في لوحاتي مثلما أحب وأشتهي».

في تلك الليلة، أسرّت إليه برغباتها: أشتهي أن أكون عارية أمام

جمهور بذيء، ثمّة شيء يحرقني في الأعماق، أشتهي أن يستحضرني كل رجال العالم في خيالاتهم الإيروتيكية. وسألت:

ـ هل ترغب في أن نمارس الجنس في العلن؟

أعلنت كونها استعرائية، أي إنها تجد متعة بالتعرّي أمام الآخرين، والأمر يرجع، كما أشرت سابقًا، إلى طفولتها. لديها هذه الرغبة المحمومة في خلع ملابسها، والمشي والعيش عارية. قالت لي ذات مرة: ليس أجمل من الاتصال بين الجلد والعالم الخارجي، دون عازل، فاصل، هكذا نكون أقرب إلى حقيقتنا، العري يجعلنا متماهين مع الطبيعة.

يوم ماطر.

سماء فلورنسا لا تتوقّف عن التحريض على ممارسة الخطيئة. نظر ليوناردو عبر العين السحرية للباب، إنها هي، ترتدي معطفاً طويلاً أسود، يخفي تحته تنّورة حمرَاء. طوّق خصرها، ثم دفن رأسه في رقبتها، وقبض على حنجرتها بشفتيه.

أراها، وهي تقفز فوق الأريكة، وتقول: «هذه هي الجنة»، بينما أصابعها تجوس في شعر الرأس والصّدر. كان القميصُ مفتوحًا عن آخره. قال لها فجأة: أريني السُّرّة. نظرت نحوه باستغراب، قبل أن تنقلب على ظهرها من الضَّحك. كانت مثل صرصور، ساقاها سائبتانِ في الجو، وشعرها مبعثر على كتفيها، وعيناها تطفر منهما الدُّموع. «أرى العالم سُرَّة كبيرة، لدي هوس وجنون لأرى سُرَّات النساء، ألمسها بأصابعي، أضع أنفي عليها، وأشمّها مثل كلبٍ مُسَتثار».

ـ آه، يا عزيزي، مسكين ما زلتَ متعلّقًا بأمّك. أنت فنان جميل، وكل رجل في هذه المدينة، يلجأ إلى جُحر دافئ في الليالي الشتويّة. الفروج دافئة يا صغيري، أنت تعلم.

طلب منها أن تخلع ملابسها، ثم تمشي خمس أو ست خطوات إلى الأمام. مشت عارية في المرسم، مقلدة عارضات الأزياء، وليوناردو منشغل كرسّام في تتبُّع مسارات الدهشة في جسدها، دقّق في موجوداته، تأمله واشتهاه بجنون. لا بدّ أنها شعرت بنظراته تتسلق ظهرها، فأخذت تتمادى في إغرائه. أخذ يتنفّس مثل حيوانٍ محموم. الدّم تراقصَ في شرايينه، واندفع على شكل موجاتٍ بحريَّة. صار الجسدُ مسكونًا بالضَّجيج.

وضع ليوناردو لوحة جديدة على الحاملة الخشبيّة، ثم بدأت ريشته بالرسم.

ـ امرأة كاملة مثلك، لم تخلق لرجل عربي أحمق غيور. (كان يقصدني)

ارتسمت على وجهها ابتسامة خجولة، لكنّ استغرابها كان أكبر.

أضاف: انظري. تركَ لوحتهُ وتوجّه نحوها. أنزلها من مكانها ثم أمسكها من يدها وسحبها إلى مرآة طولها متران في زاوية المَرسم. «انظري إلى منحنيات جسدك، الأرداف، خصرك، النهد الأيمن الذي يبدو أكثر تكورًا، شعرك، رقبتك، الجمال يتمثّل في هذا الجسد الأنثوي». مرّت يده على كل الأعضاء التي ذكرها بالترتيب، كأنه

يباركها. استثارها بأسلوبٍ شيطاني، حتى ارتخت عضلاتها، وأصبحت لّيِنة مِطواعة بين يديه.

ساعة، ساعتان، والأنثى مستلقية على الرُّخام. برودته تغزو الجسدَ بشراسة، أصبح لا يطاق، والأنثى تريد الدِّفء. زحفت نحوه على يديها ورجليها مثل طفل، يريد الحب والحنان. فتح لها ذراعيه، واستقبلها بالأفراح والألوان.

وليكمل لعبته القذرة، أحضر قطّة بفرو أبيض كثيف. حاولت دافني غير مرة أن تجعلني أحب القططة، لكني كنت أكرهها وأخافها. كانت ما تزال تأتي في أحلامي، وهي تريد فرض هذا الحب البغيض. ذات يوم، أحضرت قطة سوداء إلى البيت، فركلتها برجلي خارج العتبة. صرخت وشتمتني: عربي وحش، عديم الإنسانية، أنت لا تعرف الرحمة أبدًا. هكذا أصبحت في نظرها، كياناً يطفح بالقسوة واللارحمة. بينما كان ليوناردو الرجل الوسيم، الفنان، الذي يحب القططة.

ما إن رأت القطة جالسة على كرة الصوف، حتى ركضت نحوها وراحت تلاعبها وتحضنها. عندئذٍ، انتهز الفرصة وانضمّ إليهما ليصبحا ثلاثة: العاشقان، والقطّة ذات الفرو الأبيض. ثم اقترح أن يرسمها عارية، والقطة متكورة بين نهديها.

لوحة المرأة والقطّة.

قال لها: أنت قطّتي. جميلة، رشيقة، لطيفة.

ـ نعم، أنا كذلك.

ـ أنتِ بسبعة أرواح دافني.

ـ معك حق.

ـ انتظرتك منذ زمن طويل، والآن أريدك لنفسي كاملة، أن أملك هذا الجسد وما يحويه قلبك وجمجمتك.

ثم جاءت اللحظة الحاسمة، تلك التي حلمت بها زمنا طويلًا، وأسرّت إليه برغبتها في أن يرسم على جسدها. بالفعل، رسم على جلدها خطوطاً سوداء سميكة، وراحتِ الفرشاة تحوّل الوجه البشري إلى وجه قطة. وبذلك، أصبح لدينا جسد حمار وحشي، ووجه قطّة.

لقد قام بتشويه الجسد، ليمتلكه. أعاد خلق جسدها وفق رغباته، وجعل منه عملًا إبداعيًا.

أراد أن يلمس جسدًا جديدًا، كما يريده هو، وليس كما أرادته الطبيعة أن يكون.

ما شدّ ليوناردو إلى رسم دافني في لوحة، هو ما يمكن أن نسميه: حزن خفي ساحر. رسّامو العصور القديمة كانوا يبحثون عن مواطن الجمال في الملامح الجامدة، الوجه الجاد الممزوج بالحزن، لذلك كانت تستبعد الابتسامة من لوحاتهم. ووجه دافني لم يكن ضاحكًا، بل حزينًا وموجعًا، يحمل فكرة غامضة، أو مسحة من فكر، إذ إن ملامحها ليست فارغة من أي مضمون. الإنسان الجاد هو المسيطر والجميل، بينما الضحك يمثّل تجاوز العقل والإدراك. دافني هي درّة الجمال

الأنثوي الحارق والحاذق، الأسطورة اليونانية التي تحيل إلى الحب المستحيل والمؤلم.

في النهاية، كان ينبغي له أن يدعوها، بعد أن راودته فكرة الجنس مع امرأة، برغبة لا تعرف الخُفوت، بين علب الألوان وعلى أرضية المَرسم.

استلذّت خضوعها واستسلامها. أحسّت بنظراته الشهوانيّة، تتسلق جسد امرأة مُشتهى ومرغوبًا فيه. كانت جسدًا من دون أيديولوجيات أو عقائد أو انتماءات.

في العام ١٦٢٤م، كلّف الكاردينال بورغيزي النحّات والفنان جيان لورنزو بيرنيني تحويل قصّة أبولو ودافني إلى عمل رخامي. كان بيرنيني نحّاتا ورسّاماً ومهندساً معماريّاً، ومناصراً لفنّ الباروك في إيطاليا. «أبولو ودافني» تعد أحد أشهر الأعمال النحتية وأكثرها شعبية، إنها تمثل الرغبة والحب المستحيل والإيروتيكيّة في أبهى صورها.

لقد كانت الأسطورة جذّابة للعديد من الفنّانين والكُتّاب في العالم، فرسموهما في لوحاتهم، وكتبوها في أعمالهم الأدبية.

أراد ليوناردو أن يصطاد دافني في لوحة، ليست امرأة أبولّو، بل امرأة كاظم اللبدي، زوجته وأم ابنته، مجسّدًا الحب الحسّي في أبهى صوره، عبر الإغواء والاستحواذ.

خرجت من عنده سكرانة، بعد أن أفرغت زجاجات الشمبانيا في

أوردتها. التقطتها من أرصفة الطرقات، رأيت وجهها مذعورًا، ضبابيًّا، وفي عينيها صرخة الموت الأخيرة. قدت سيارتي بسرعة جنونيّة. في الليلة نفسها، رأيت في حلم رأس خنزير معقوفاً، فوق جسد بشري، بمخالب قطّة.

وقلت لنفسي إنه ليوناردو.

أعتقد أنني أعرف ما الذي حلّ بها في تلك الليلة. لقد شعرت بالتعب والإنهاك، بعد لقاء الرسام، إذ أحسّت بأنها لوحة من لوحاته، وليس كائنًا قابلًا للحب، له مشاعره. رغم ذلك عادت إليه زاحفة، عاشقة، وتركتني خلفها مثل جرو أجرب.

هل يمكن أن يكون ذلك قد وقع حقًا؟

ألا يمكن أن تكون غيرتي هي التي دفعتني إلى التوهّم واختلاق القصّة، أم أنني دون وعي، أردت أن ألصق تهمة الخيانة بدافني، لأصبح في مركز القوة؟

تهيأ لي أنني كنت في حلم، إذ بدا الأمر ضبابيًا ومشوّشًا على نحو مريع. هو حقًا ملتبس، خصوصاً أنني لم أنم طوال أسبوعين كاملين سوى ساعات قليلة نتيجة الأرق، فكنت شبه غائب عن الوعي. وإن كان حلمًا فإنه حقيقي لدرجة التشابه مع الواقع، ذلك الجزء الذي يخيفني التصريح به. في الحقيقة لولا السويعات التي نمتها لأصبت بالجنون، فأُسس وجودي كلها كانت مهددة بالانهيار. هذه الحادثة كانت المسمار الأخير في تابوت علاقتنا، قطعة الدومينو التي سقطت فأسقطت بقية القطع في دواخلنا.

(٣)

صرختُ في وجهه.

ـ لستُ متهيئًا للموت. ما زلت صغيرًا، ولدي العديد من المشاريع الأدبية التي لم أنجزها.

ـ لا يعرف الموت صغيرًا ولا كبيرًا. تذكّر أن الموت جزء من الحياة، والحياة ليست سيرًا نحو النهاية. ينبغي أن تفكر في إصلاح علاقتك بدافني، حاول أن تتخلص من أوهامك، لم يحدث بيننا أي شيء في تلك الليلة. لقد جاءت وتحدثنا مثل أي شخصين ناضجين. دافني تحبك، إنها زوجة صالحة، لن تفكر في يومٍ من الأيام أن تخونك.

ـ لا أستطيع. كلما رأيتها، تذكرت ذلك المشهد البشع، بينما ترسمها عارية وهي تحمل قطة بيضاء بين يديها.

ـ لقد أوضحت لك الأمر غير مرة. أثقلت بالشرب، وأصبح يتهيّأ لك أشياء كثيرة، ليس لها أساس من الوجود. إنها أوهام، شظايا أحلام، تخيُّلات، لست أدري.

شعرت بالبرد، فذهبت إلى غرفة النوم وارتديت ملابس إضافية، ثم عدت ووقفت أمام النافذة. نظرت إلى أضواء الشارع، وسطوح القرميد، والقططة التي كانت تحاول تسلق إحدى الأشجار. كنت تعبًا، وتائهًا، وممزقًا.

قال لي ليوناردو.

ـ تحتاج إلى مشروب ساخن.

ـ لا أحتاج إلى غير زوجتي وابنتي. اشتقت إليهما كثيراً.

تقدّم نحوي، ثم وقف إلى جانبي، ونظر عبر زجاج النافذة إلى الخارج. ربت كتفي، وهمس في أذني بصوت ضعيف: «اتصل بها، الأمر يحتاج إلى اتصال واحد»

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ الأمر ليس بالسهولة التي تتصورها.

أشعل سيجارة، وسحب منها ونفث الدخان في الهواء.

ـ ما الحل؟

ـ كم أملك من الوقت؟

ـ ليس الكثير.

ـ كنت أعرف أن لك قدرة على التنبؤ، لكني لم أتصور أن يأتي مثل هذا اليوم الذي ...

وصمت.

ـ لقد صدقت أحلامي وتحققت، لقد رأيت ذلك بعينيك غير مرة.

ـ نعم، لقد حدثت بالفعل، وهذا ما يخيفني. الأحلام عالم غريب وملتبس، لطالما كنت على علاقة مباشرة به. أما الموت فهذا الذي لم أره قط في أحلامي.

ـ ربما أنت مختص بنوع معيّن من الأحلام: القططة، الكلاب

المتوحّشة، دافني الخائنة، معتز اللبدي، وأحداث روايتك. صحيح، إلى أين وصلت في الكتابة؟

ـ كتبت تقريبًا نصفها. معتز أكثرة جرأة وشجاعة، إنه يحب الحياة، واثق بنفسه، يقوم بالأشياء التي لم أستطع أن أقوم بها. إنه مغامر ومجنون في الحب.

ـ اسمع، أنت ما تزال تحب زوجتك. أصلح الأمور بينك وبينها.

ـ إنها تحبك أنت.

ـ هذا غير صحيح. إنها تحبك أنت يا رجل.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ إنها تتحدث عنك دائمًا، وتفتقدك بشدّة. تريدك أن ترجع إليها وإلى ابنتكما.

ـ كانت علاقتنا سيئة. لقد أهملتها بسبب الكتابة، قلّة النوم، الأرق، الاضطراب النفسي.

ـ ستحلان هذه المشاكل تدريجًا.

ـ أشعر أن الكذب كان جزءًا مكمّلًا لحياتنا. لقد كنّا عاشقين، لكننا لم نكن صديقين، وهنا المشكة، الحب المبني على غير صداقة معرّض للانهيار بسرعة.

ـ الكذب في العلاقة هو وسيلة من وسائل الحماية: حماية الذات. لقد وجدت نفسها مضطرّة للكذب عليك، لأنها كانت ضعيفة ومجروحة. ما أقسى المرأة حين تكون مجروحة!

ـ ثمّة فرق بين عدم قول الحقيقة كاملة. اجتزاءها، بترها، وبين

الكذب. لم أطالبها يومًا بأن تقول الحقيقة كاملة دون نقصان، لأني ببساطة لستُ قاضيًا أو سلطة عليا. لم أنتظر منها أن تقول على سبيل المثال، لدي عقدة نقص حيال جسدي، ولدي رغبة عميقة بأن أعالجها في أن ترسمه يد فنّان، أن أبتذله، أُنهي خصوصيته وفرادته. لكنها كذبت... كذبت.

الكذب:

لقد أصبح جزءًا من حياتنا، امتدّ حتى وصل إلى الجسد، وغدونا جسدين كاذبين مخادعين، وصار الجنس عملية ميكانيكيّة. الأجساد أيضًا تكذب، تصبح العلاقة الجسدية كاذبة وليست أكثر من واجب.

ولمّا بقيت وحيدًا، أخذت أفكر في دافني:

إنها امرأة أشبه بالفكرة المدهشة. امرأة تغتسل بالدمع، لكنها تواصل الضحك كي لا تؤذي قلبك. امرأة تهدي إليك حياة كاملة أو ميتة كاملة، تعرف متى تقترب منك بأنفاسها، ومتى تبتعد لتزداد يقينًا بجمال حضورها. صعبٌ هو النسيان، تذكرت شعرها الذي انعطف مع المنعطف عند زاوية الحديقة في لقائنا الأول، وحركة أصابعها على أطراف يدي، فشعرت حينئذ أن دمها الذي يجري في عروقي، وصوتها حين تردد في العتمة: أنت بيتي. عندما كنا نبحث عن غرفتين وباب. هل كانت تحبني أم تحب أن ترى الإعجاب في عيني؟

كنت مرهقًا للغاية. تناولت أقراصاً منوّمة، ونمت عشرين ساعة متواصلة، وحين استيقظت شعرت بخدر لذيذ في رأسي. كانت ملابسي مبتلّة بالعرق ودرجة حرارتي مرتفعة.

الجزء الثالث

(١)

كانت الحكاية تشدني نحوها، فرحت أعدو خلف شخوصها: معتز، دارين، إسماعيل. لم أتوقف عن الكتابة طوال أسبوعين كاملين. نمت ساعات قليلة أثناء النهار، وبقية الوقت كان مخصصًا للكتابة. أعترف أن القصة مجتزأة ينقصها كثير من التفاصيل لتكتمل اللوحة، خصوصاً فيما يتعلق بالشخصيات. بيد أنني لم أرغب في التوقف عن تدفقي على شاشة الكمبيوتر، إذ وجدت نفسي ممتلئًا بأشياء كثيرة. فتحت الكمبيوتر، وكتبت الكلمات الأولى:

شهر نيسان، .... م.

كان مطار روما مكتظاً بالمسافرين.

مررت بسرعة إلى قاعة الترانزيت، ثم توجهت نحو المعبر حيث كانت موظفة شابة، تجلس في غرفة زجاجية صغيرة، تطل فيها على الناس المتوجهين نحو الناحية الأخرى، حدقت إليها وكأنها ترى في شكلي العربي تهمة ما، ناولتني جواز السفر وأذنت لي بالدخول.

أسندت ظهري إلى مقعد الطائرة، شعرت ببرودة حقيقية، كأنني بغربتي عن الوطن، أصبحت عاريًا ومكشوفًا لكل موجات الصقيع التي يمكن أن تعصف بذاتي.

أخذت الشخصيات منذ بداية الرواية بالنمو والتطور، حتى بدأت بالتشكل إلا أنها لم تأخذ شكلها النهائي، وهذا ما أشار إليه ناشري، الذي كان مستاءً من النص. وصلتني رسالته عبر البريد الإلكتروني، الساعة الثالثة صباحًا.

العزيز كاظم.

لقد وصلني المخطوط وقمنا بدراسته. لقد نشرت في دارنا خمس روايات حتى الآن، وحققت نجاحًا باهرًا، وأدهشت القراء والنقاد على السواء. لذلك، أشير إليك أن ترجع وتعيد كتابة الرواية، لأنك لم توفّق في الصياغة اللغوية، كما أن الأسلوب جاء ضعيفًا. من هنا، أضع بين يديك مجموعة من الملاحظات، ربما تساعدك أثناء إعادة الكتابة.

١- الشخصيات غير كاملة، ينقصها التفاصيل وبث بعض الحيوية فيها، إذ تبدو منزوعة من عالمها لتؤدي دوراً لا تنتمي إليه.

٢- الرواية غير متماسكة، والحبكة بحاجة إلى مزيد من البناء، والفكرة غير واضحة.

٣- يبدو أنك كتبتها وأنت في حالة تقع بين النوم واليقظة. إن النص يقترب لدرجة كبيرة لأن يكون حلمًا، وهذه نقطة مهمة يجب أن تبني عليها. ربما ستخرج برواية سريالية، غرائبية، حُلميّة.

٤- أخيرًا وكما عرفتني دائماً كناشر وصديق، يتمنى لك الخير دائمًا، أقول لك إن النص يُسيء إلى اسمك، لذا نرفض نشره إلا في حال أعدت الصياغة ووجدناه مقبولاً.

تحياتي.

ذهبت إلى الحمام، ووقفت تحت الماء الساخن. أخرجت من الثلاجة قنينة عصير، وجلست عاريًا على كرسي المكتب ورحت أفكر. بالفعل، لقد كانت الرواية سرياليّة، حُلميّة، وتكاد تكون خيوط الرواية غير مترابطة، ولا منطق فيها. إنها مشحونة بكميات كبيرة من الفانتازيا، وكأنني كنت في حلم.

اكتشفت شيئًا أخافني. يمثل معتز الشخص المتواري في داخلي، إنه الكائن الذي أشتهي أن أكونه. لقد ذهب هذا الشخص إلى آخر الدنيا كي يبحث عن حبيبته، ولم ييأس من العثور عليها، رغم تعرّضه للعديد من المخاطر. كما أن هناك تشابهاً كبيراً بين قصتي مع دافني وليوناردو، وبين قصة معتز ودارين وإسماعيل، إنها قصة حب ثلاثية شائكة ومعقّدة، تنتهي بالخيانة والموت.

على الرغم من كلام الناشر حول ضبابية الفكرة، إلا أنها كانت واضحة في رأسي كشمسٍ في الظهيرة: تأثير الماضي وامتداداته في حياة الإنسان، الحرب الصامتة التي تدور في الداخل، وتدفعه إلى أخذ خيارات جنونيّة.

ربما لم تساعدني الظروف التي مررت بها أثناء كتابة الرواية ـ

غير المكتملة ـ كثيرًا، فخرجت على هذا النحو. على كل حال، سأقوم بنشرها في يوم من الأيام، كما هي، من دون إجراء أي تعديل.

ـ ماذا ستفعل الآن؟

كان ليوناردو يلصق هاتفه بأذنه اليمنى، في الجزء الآخر من المدينة على بعد عشرين كيلومترًا.

ـ لن أدخل أية تعديلات على الرواية. إنها تشبهني لدرجة كبيرة. لقد كتبت حياتي، حكاية رجل ضائع، ومهزوم مثل جندي في حرب خاسرة.

نقل الهاتف من أذنه اليمنى إلى اليسرى، وقال.

ـ حسنًا، ابحث عن ناشر آخر. وماذا عن دافني؟

ابتسمت وأنا أتقدّم نحو صورة دافني وابنتي سيلينا المعلقة في الصالون.

ـ في الحقيقة، لقد اشتقت إليها. لقد مرّ وقت طويل على آخر لقاء جمعنا. الوقت ينفد، ولست أدري متى ستحين ساعة الموت. أريد أن أعيش ما تبقى من حياتي مع دافني وابنتي. لا أود التفكير في غير حياتي المتبقية، سيكون موتًا قاسيًا ومؤلماً بعيدًا عنها، إنها الروح.

توجهت نحو النافذة ونظرت إلى سماء المدينة. طالما كان القمر شاهدًا على ذكرياتنا. كنّا، أنا ودافني أيام الدراسة، نقضي فترات الاستراحة بتبادل القبل. كانت المجنونة تدفع لسانها إلى داخل فمي، كأنها تريد أن تصل إلى قلبي وتجتثه من مكانه. نتمدد على العشب

خلف مهجع الطلبة، تضع رأسها على صدري، ثم تدخل أصابعها عبر فتحة القميص، وتأخذ بالعبث بالشعر النابت على صدري. كانت تقول لي: شعرك غزير، كأنه غابة. وكنت أشعر بسعادة غامرة بهذا الإطراء.

ـ إنها امرأة مخلصة تحبك. كل ثانية تعيشها بعيدًا عن دافني، هي خسارة كبيرة ليس بوسعك تعويضها فيما بعد. إنك تعيش في عالم قاسٍ والطفل الذي بداخلك سريع الانكسار، أنت بحاجة إلى امرأة قوية مثلها لكي تساندك، خصوصاً في هذا الوقت العصيب. هيّا اتصل بها، ولا تضيّع وقتك.

أقفلت الخط مع ليوناردو، وطلبت دافني.

ـ من الصعب أن نلتقي. عذرًا.

ـ يمكننا إصلاح ما وقع بيننا. إنني أراك حيثما أذهب، وأشم رائحتك تقريبًا في كل مكان، آه من رائحتك، إنها ملتصقة بملابسي وجلدي وهواء البيت. سأنهار إن بقيت علاقتنا سيئة بهذا الشكل.

كانت تجلس على طرف سرير سيلينا والهاتف بين كتفها وأذنها، بينما راحت يدها اليمنى تعبث بشعرها. خيل إلي أنها ابتسمت، زوجتي وأعرفها، تحب الإطراء والإشارة إلى رائحتها. ظلّت صامتة.

ـ في الحقيقة، رائحتكما جميلة أنت وسيلينا. وأضفتُ بنبرة حزينة: أحتاج إليكما إلى جانبي.

ـ إنها الحياة، فيها الفراق والألم، مثلما فيها الحب. إنّ ثمة أشياء تموت فينا ومن المستحيل بعث الروح فيها، أشياء انكسرت.

ـ يمكن إصلاح ما انكسر.

صرخت.

ـ إنه ليس بفنجان قهوة، إنها مشاعر من أحبتك واختارتك من بين رجال العالم.

أشعرني صوتها بالتعب.

ـ الرحمة يا دافني. هذا يكفينا، لم أعد أحتمل. أنا أضعف مما تتخيّلين.

وضغطت بجبهتي على زجاج النافذة منكّس الرأس.

ـ لم تكن يومًا ضعيفًا، مثل الآن، قل لي ما الذي حدث؟

ـ لقد حدثت أشياء كثيرة في غيابك، سيئة ومخيفة، مخيفة للغاية.

ـ كيف أصبحت صحتك؟ أما زلت تأتيك تخيُّلات وكوابيس؟

خفت أن أعترف لها، لأن ما ذكرته كان أحد أسباب انفصالنا.

ـ قليلًا، أحتاج فقط إلى العلاج.

ـ حسنًا، دعنا نتفق على الموعد فيما بعد.

ـ إلى اللقاء.

بعد خمس دقائق، أرسلت إليها رسالة نصية.

Ciao

ممم أردت أن أقول بأن حياتي لا تستحق أن تعاش بعيداً عنك. أنت تعرفين ذلك، لكني أحببت أن أقوله فقط ...

معك حق هذه المرة. الحياة لا قيمة لها دون دافني!

مغرورة كعادتك، لكن لا بأس، فالغرور يليق بامرأة مثلك. إذن، ما رأيك بفنجان قهوة غداً؟ صباحاً، أنت تعرفين المكان جيداً.

حسناً، يبدو أننا سنعيد الأشياء إلى بداياتها. أراك غداً ليلة طيبة .

حسناً، إلى الغد. ليلة طيبة.

(٢)

الساعة ١٠ صباحًا.

لقد تمتعت برؤيتها بعد فترة طويلة من الغياب. قلت لها لأحاول إضحاكها بأني أكثر حماقة من قططة الشوارع، وبأنني تخلصتُ من عقدتي إزاء القططة. وضحكت قليلًا، قبل أن تنطفئ الضحكة من جديد.

سرنا على امتداد الحديقة إلى جانب مهجع الطلبة، حيث التقينا أول مرة. كانت الأرض مغطّاة بأوراق الشجر اليابسة، والنسيم يهبُّ علينا من الجهة الشمالية، فيداعب خصلات غرتها، فتبدو أكثر جمالًا وألقًا. ارتدت كنزة دكناء فوق تنورة خضراء فاتحة، مع حقيبة يد ذات لون وردي. شباب يلعبون التنس في الملعب الخلفي للمهجع. أطفال على دراجاتهم الهوائية. وقد جلس عاشقان لتبادل القبل على أحد المقاعد.

خلعت الكنزة وطوتها. نظرت إلي، وسألت: لقد تغيّرت كثيرًا في الفترة الأخيرة، ما السبب الذي دفعك لرؤيتي؟

«قال لي ليوناردو بأنني سأموت قريبًا. لقد رآني في أحد أحلامه، وأنت تعلمين أن أحلامه ليست أقل من تنبؤات مستقبلية».

فغرت فمها دهشةً: «لا أدري، متى قال لك ذلك؟».

«قبل أسبوعين تقريباً».

«ربما لأنك تفكر كثيراً في الموت، فأصبح يفكّر فيك هو الآخر. إن الأشياء التي نخافها، تحدث لنا دائمًا، تبدو هذه واحدة من قوانين الطبيعة. تحوم في رأسك الأفكار الشاذّة، والخوف من الفناء مزروع في داخلك، وهذا التعلُّق بفكرة الخلود الذي تعتقد بأنه يتأتى من خلال رواية، يجعلك أسير القلق والشك والخوف من النهايات».

نظرت مباشرة صوب عينيها. لفتني ذاك البريق الذي لم أره منذ زمنٍ طويل. بدت لي الأيام الماضية خسارة كبيرة، إذ لم تكن فيها هذه المرأة، التي تبعث الحياة في اليباس. لطالما وقفت إلى جانبي في أكثر الأوقات قسوة: أوقات الوحدة والجوع والحاجة إلى الحنان.

قلت هازًّا رأسي: «لا أعلم يا دافني. رغم الخوف الذي يشلّني من الداخل، إلا أنني أشعر بأن نفسي شفافة وأكثر صدقًا مع الآخرين. كأن الموت وما يحمله من وضوح، يدفعنا إلى مزيد من الشفافية والصدق. كلما اقتربنا منه، أصبحنا أكثر شفافيّة».

سألتني مقطّبة حاجبيها: «الموت واضح، شفّاف؟».

«نعم. إن الحياة هي الغامضة، المُلتبسة، المعقدة. الموت واضح وشفاف وصريح، لا يراوغ وليس لديه أساليب مخادعة، إنه يدخل إلى الإنسان مباشرة ويقتلع روحه».

نظرت إلى الأرض، ثم رفعت عينيها ورمت بصرها بعيدًا باتجاه المركَبات والناس.

«ما أقسى كلامك! حتى لو كان صحيحًا وحقيقيًا، إلا أنه جارح

ومخيف. تعرف! لقد كنتَ تعيش في كل تفاصيل حياتي. برحيلك رحلت الابتسامة والبهجة، وبقي الطعم المُـر ملتصقًا بكل شيء في غيابك».

قبضت على يدي، وضغطت عليها. مشت إلى جانبي وهي تقول: «أنا أعرف أنك تمر في مرحلة صعبة. الكوابيس والأوهام والكتابة أخذت كثيرًا من صحتك. ثمة أشياء لا منطق فيها، لكنها تحدث لنا وتقلب حياتنا. ربما نحن نمر بالمشاعر نفسها: ظلام في الداخل، خوف من شيء ما لا نعرف ماهيّته، الازدواجية، اضطراب الساعة الداخليّة، حالة الالتباس مع الزمن، الإرهاق النفسي، الأفكار الغريبة والتخيّلات، الشعور بالعبثيّة واللاجدوى، الكوابيس أثناء الساعات القليلة من النوم، التي تبدأ عند الساعة السادسة صباحًا، بعد ليلة من المشي وحيدين في الطرقات».

أضافت بابتسامة حزينة، بعد أن شدّت على يدي: «لكني سعيدة جدًا بوجودك، وواثقة بأننا سوف نجتاز هذه المرحلة الصعبة. مشاكلنا لن تستمر إلى الأبد، ستنتهي يومًا ما وسنكمل حياتنا كعائلة واحدة، أنا وأنت وسيلينا».

سألتها: «هل تفكرين في أن نعيش في بيت واحد؟ أقصد أن نرجع علاقتنا من جديد».

«اسمع سوف أعطيك فرصة جديدة، سنعيش معاً مدّة أسبوع. سآتي غدًا إلى بيتك، ما رأيك؟ وبالنسبة إلى سيلينا سأبعثها إلى بيت صديقتي.

دخلنا إلى مطعم في المنطقة، لتناول صحن من المعكرونة. طوال فترة الأكل بقينا صامتين، هي كانت مستغرقة في فكرة ما، بدت لي عميقة وشائكة، بينما كنتُ مستنزفًا ومنهكًا من الداخل. قلت وأنا أشرب القهوة: «أعرف أن الأمر لم يعد يهمك، بل يزعجك» صمتُّ لحظة قبل أن أستطرد: «أقصد كتابة الروايات ... لقد أنهيت الرواية الأخيرة، إنها قصيرة، وغير متماسكة، ضبابية وكأنها حلم. بيد أنني أحببتها، لن أحذف منها كلمة واحدة، سوف أنشرها كاملة دون نقصان. أشعر أن خلف خط سير الأحداث ثمة معنى غامض، غير مكتشف، بحاجة إلى قارئ ذكي، ذكاؤه يفوق الكاتب نفسه. ما جذبني إليها هو هذا، ثمة معنى عميق، يتوارى خلف النص».

«أنت تعرف أن مشكلتي لم تكن قط مع الروايات. على العكس من ذلك، إن حياتي مؤثّثة بالكتب والموسيقى. ليس الأمر متعلّقًا بمدى انغماسك في الروايات، لأنني أنا الأخرى منغمسة في عشق الكمان حتى الموت. أنا أتكلّم عن الشك واختفاء الثقة. أن تتهمني بخيانتك مع أقرب الأصدقاء إلينا، ما ذنبي أن أحتمل تصرفاتك، وقلة ثقتك بي؟ أنت تعرف أنه حين تنتهي الثقة بأي علاقة، معناه انتهاء العلاقة نفسها. كيف كنت تريدني أن أنام معك في سرير واحد، وأنا خائنة من وجهة نظرك؟».

«أعتذر. لقد تشابك الواقع مع الخيال، لم تعد لدي القدرة على الفصل بين العالمين. أنت تعلمين أكثر من غيرك ما معنى الانغماس في

الداخل. دواخلنا خطرة جدًا، إن أصحاب المواهب يعرفون ذلك جيدًا، وأنت واحدة منهم. تتذكرين صديقتك جوليا عازفة البيانو، كيف فقدت فجأة قدرتها على العزف. كانت تحلم بأن تكون من أكثر عازفات البيانو مهارة، لكن شيئًا ما عميقاً وغير مفهوم، حصل لها وتوقفت. كلما كانت تحاول الاقتراب من مفاتيح البيانو والضغط عليها، شعرت بأصابعها متجمّدة وأعصابها تالفة، وعندما ذهبت إلى أكثر من طبيب، قالوا لها: أنت سليمة، لا مرض في جسدك، لكن روحك مرتبكة ومتوتّرة، ثمة شيء أعمق هناك في الداخل. نعم، بالحرف الواحد، هكذا قالوا لها. هناك أشياء تحدث، ولا نستطيع تفسيرها».

«نعم، لكنها أعطت الفرصة لنفسها وذهبت إلى أطباء اختصاصيين، في حين أنك رفضت زيارة عيادة أي طبيب نفسي في المدينة، حتى ساءت صحتك».

«أعدك أنني سأذهب قريبًا. المهم، دعيني أحدِّثك قليلاً عن روايتي الأخيرة، عن الأشياء التي أحبها كما اعتدنا دائمًا أن نفعل، أروي لك حكايتي وأنت تستمعين وتبدين رأيك. قصة الثلاثي: معتز، وإسماعيل، ودارين، تشبه إلى حد كبير قصتنا، مثلث متساوي الأضلاع، تجلس على رأسه امرأة ماكرة، ذكيّة، تجمع خيوط اللعبة في يدها».

«تقصد معتز الكائن الورقي، الذي تتوهّم أنه من قريتك في فلسطين، وقلت لي إنه مات منتحرًا في فلورنسا؟».

«نعم، لكنه أصبح حقيقيًّا. إننا نصدّق الكذبة ونتعايش معها حتى

تصبح حقيقة، ثم نقاتل من أجل الدفاع عنها. إنه يشبهني لدرجة كبيرة، لقد عاش الحرب الصامتة، كونه عايش نكسة عام ٦٧، فجاء بنفسيّة مدمرة، يضرب بعشوائية، وأنا كنت مثله في علاقتي بك. تمر الحرب وتنتهي، لكنها تترك في داخلنا ندوبًا لا تشفى. كنت مرهقًا نفسيًا، صور الأطفال المقطّعة رؤوسهم وأطرافهم، لاحقتني في الغربة. لم أرغب أن أكون قاسيًا، ليت يدي قُطعت قبل أن تمتدّ إليكِ، لكنه الماضي الذي يلاحقني حيث أذهب، ويسمني بالقسوة والوحشيّة».

ـ سأعطيك فرصة أن تروي هذه القصة التي استحوذت على حياتك أتعرف أنني امرأة فضولية، هيّا، كلي آذانٌ صاغية.

إنها قصة حب وانتقام وخيانة بين ثلاثة أصدقاء. كانت دارين راقصة، أحبت الرقص منذ صغرها، فتمكّنت بفضل موهبتها من الدخول في إحدى فرق الفنون الشعبية. استطاعت أن تمثل شعبها بالفن الجميل في العديد من العواصم، مقاومةً محاولات دثر الفلكلور الفلسطيني. حاربت ثقافة البؤس التي سيطرت على كثير من النفوس، وأعطت درساً للكثيرين في «المثابرة، الحيوية، الانتماء، العطاء، التواصل، المواظبة، والجمال، أثبتت بأن الحلم يصبح واقعًا بالإرادة والعمل المنضبط. كانت مجددة ومتمردة على خشبة المسرح، لوحاتها الراقصة تنبض بالأنوثة بكل معانيها، أعمالها مبنية على الفلكلور القادم زمانيًا من فترات مختلفة في التاريخ، وجغرافياً من عدة مناطق فلسطينية.

أما إسماعيل، فقد كان في صغره مولعًا بالصور، يجمع ما يقع بين يديه من صور لمثقفين، وسياسيين، ولاعبين، وفنانين، من الصحف اليومية التي كان يحضرها والده كل صباح، ثم يلصقها على كراسة خاصة، يدون تحت كل صورة اسم الشخص المعني وتاريخ الحصول عليها. عشق التصوير الذي أخذ الكثير من وقته. عندما كبر ووصل إلى المرحلة الثانوية، أراد أن يدخل الفرع الأدبي لشغفه بالكتابة، وحلمه الكبير أن يصبح صحفيًا لدى إحدى الوكالات العالمية، لكن والده كان حرفيًا يشتغل في النجارة. تملكته رغبة عارمة في أن يورث المهنة لابنه البكر، فوقع الخلاف وصراع الإرادات بين الوالد وولده. كان إسماعيل ينزع إلى إثبات وجوده، مؤكدًا على معرفته الكاملة بميوله ومصلحته الشخصية، والوالد كان من موقع سيطرته وسلطته على أولاده، يريده أن ينصاع لاختياراته، فاشتعل الخلاف حتى طرده. أثناء هذه المرحلة من حياته، اقتحمت دارين حياته، شعر بالاضطراب والخوف، انتشر الأدرينالين في جسده بشكل غير مسبوق، راوده سؤال: هل أحبُّها؟ قلبت كيانه رأسًا على عقب، كان عبقريًا وعقله البشري المتطور لم يستطع أن يجاري قلبه ومشاعره غير الناضجة، ما ولّد لديه نوعًا من الصراع.

كان بعيدًا عن النساء والتجارب العاطفية، طالما قال إن الحب يرقق القلب، ويطمس العقل، حتى وقعت الواقعة، فانهارت حصونه أمام حبها. لكنها لم تحبه يومًا، في حين أنها كانت غارقة في حب صديقه معتز، ومن هنا بدأت هذه القصة الرومنسية التراجيدية. ذات

يوم، وبعد أن يأس من محاولات التقرب إليها، اتصل بها، وقال لها إن أمه وأخته جاءتا لزيارة إحدى القريبات. صدّقته وتبعته، وحين وصلت إلى المكان، لاحظت أنه بعيد ومظلم ومخيف، وعندما أحست بأنه خدعها، كان الوقت قد صار متأخرًا، هددها ثم أمسك بها من شعرها، وجرجرها عبر الأرضية المتربة إلى الداخل. صرخت طويلاً ولم يسمعها أحد. بعدها كان عليها أن تفكر في الأكاذيب، التي ستسوقها على أمها حين تعود إلى البيت « أمي خطفني مجهول ما»، «سرق هاتفي ونقودي في منطقة بعيدة، ورجعت مشياً على الأقدام»، «كدت أموت لولا الله الذي حماني وأنقذني»، أم ستمثل دور العرجاء لأن قدمها كسرت أثناء التدريب، ونقلت إلى المستشفى.

كان المكان مزروعًا بالكاميرات، فراح يهددها بأن ينشر الفيديوهات إن لم تسافر معه إلى برشلونة، أوقع بها بعد أن استدرجها من خلال تصويرها. سقط إسماعيل في وحل العمالة لإسرائيل، كان مغرورًا ويملأ قلبه الحقد وحب الانتقام، فعمل لمصلحة الموساد، قدّم لهم الكثير من الخدمات، إذ رأوا فيه جاسوسًا ذكيًا، شديد الدهاء. سافر مع دارين مباشرة إلى فيينا قبل الذهاب إلى إسبانيا، هناك تلقى العديد من الدورات على يد ضباط في الموساد، تعلم كيف يفك الشيفرات، ويستخدم الأسلحة والسموم والأدوات السرية، دربوه على تحمل التعذيب والضغوط النفسية، وتحفيز الذاكرة ليتذكر كل تفصيل، أعطوه دروسًا في السرية والعمل الصامت.

حاولت قتله أكثر من مرة، بالسكين، بوضع السم في فنجان قهوته، بإرسال من يقتله مقابل مبلغ من المال، لكنها فشلت في جميع محاولاتها، كان الأذكى والأدهى، لذلك ضيق عليها حياتها، أسكنها بيتًا لا يصلح لحياة إنسان، قال لها ستبقين تحت عيني، سأراقب كل تحركاتك، وبالفعل زرع كاميرات رقمية في جميع أنحاء المنزل، منعها من التواصل مع أهلها وجيرانها، أو القيام بأي علاقات مع نساء أخريات، لم يكن قادرًا على تركها وهجرها. كان متعلقًا بها إلى حد الجنون، في كثير من المرات كانت تأتيه حالات هستيرية، فيركع تحت قدميها ويرجوها أن تغفر له، وأن تحبه، لكنه كان يضربها ويهينها بمجرد أن يعلم بأنها تحدثت إلى رجل، حتى ولو كان بائعًا في سوبر ماركت، شديد الغيرة عليها، مريض بها إلى درجة كبيرة.

سألتني دافني، وفي عينيها لهفة عارمة لمعرفة الإجابة: كيف كانت نهاية هذه القصة، ثلاثية الأطراف، هل انتقم معتز منهما؟

ـ الخيانة من أقبح الأمور في الحياة. لقد كانت النهاية قاسية، تشبه نهايتنا.

ساد الصمت لدقائق.

ركبنا الخط الواصل إلى مركز المدينة. تدب فيها الحياة أثناء النهار، ثم تهدأ رويدًا رويدًا مع بداية الليل، حينما ينسحب السياح إلى فنادقهم، بعد نهار طويل من التنزّه في فلورنسا القديمة. كانت هادئة، ورائحة العطور النسوية تعبق في الجو، والسائحات الأوروبيات

والفتيات القادمات من شرق آسيا، يلمعن كحوريات تحت أنوار المصابيح المعلقة على أطراف الشوارع.

مررنا بساحة (سينيوريا)، وصولًا إلى الجسر القديم الذي يصل طرفي المدينة. يتمدد الجسر فوق نهر أرنو بكبرياء، إذ لم يمسسه الألمان بأذى خلال الحرب العالمية الثانية، بعدما سحقوا أجزاء كاملة من المدينة بالطائرات والمدافع، خلافًا لجميع جسور فلورنسا. يُقال إن الزعيم النازي هتلر، أمر الطيارين بعدم قصفه طمعًا في الكنوز والتحف واللوحات الفنية المحفوظة في المتاحف المجاورة له، إذ كان يحلم بحملها إلى برلين، كما فعل نابليون مع الآثار الفرعونية أثناء الحملة الفرنسية على مصر.

تنتشر محلات المجوهرات والأعمال الفنية والهدايا التذكارية على طول الجسر. كان مكتظًا بالسيّاح والعاشقين، الذين يتحركون بعشوائية. أثار انتباهنا فتاة كانت تجلس على الجانب الغربي من الجسر، قدماها متدليتان صوب النهر، مسمّرة نظرها نحو نقطة معينة في المدى الفسيح أمامها.

ـ لقد أصبحتَ ثرثارًا.

ـ لا ليس كذلك، أنا فقط أرتاح في الحديث معك.

تهمُّ بأن تقول شيئًا، لكنها تغير رأيها وتصمت، ثم تنظر إلى المُدينة.

ـ دافني ... أعماقي رماد، وعيناي لا تريان سوى الحرائق.

ـ إنها ذكرياتك القاسية والكتابة، ألا تشتهي أن تعيش حياة طبيعية؟

ـ أنا لا أصلح.

ـ أنت طفل صغير، بحاجة إلى أم حنون.

ـ خلقتِ للجدل والصّدام.

ـ أنتَ تجادل العالم، وتحارب كل شيء حتى داخلك. تشك في الأديان، والموروثات، والعادات، وتاريخ سلالتك، وزمرة دمك.

ـ وأنتِ أيضًا، تعانين ما أعانيه، إننا نحترق في نار واحدة.

وسحبت خصرها إلي، واشتبكنا في عناقٍ حميم طويل. قبلة إثر قبلة، كانت تتساقط على الخدين والعينين والعنق. ثم اجتزنا الجسر إلى الضفة الأخرى، وتمشينا إلى جانب النهر وأنا ممسك بيدها ثم دخلنا إلى فلورنسا القديمة، متجاوزين ازدحام السيارات حول قصورها ومتاحفها وكنائسها. كنت متعبًا ومعذبًا بهواجسي، لكني حاولت أن أكون صافي الذهن مع المرأة التي أحب. لقد كان قلبي مترعًا بالأحزان، ولم يكن ثمّة مكان لأوجاع إضافية. مشينا حوالى كيلو متر حتى ابتعدنا عن وسط المدينة، لنرجع من جديد ونجلس على ضفة نهر أرنو، كانت الفكرة في المشي فقط، كمحاولة لتهدئة أعصابنا.

وجدنا نفسينا وحيدين باستثناء عدد قليل من السيّاح. نظرنا إلى الأضواء المنكسرة على صفحة الماء، ثم تطلعنا إلى ساحة مايكل أنجلو، حيث بدأت المفرقعات تنطلق في الهواء، فيما يعرف بمهرجان الألعاب النارية. أُضيئت سماء المدينة بالألوان مدّة نصف ساعة، قبل أن يعود الهدوء من جديد.

قلت لها: منذ رحلتِ عن البيت، وأنا أتعمد غسل ستائر الغرف غير مرة، أكوي قمصانك مرتين وعشر مرات، أنزل إلى السوق وأتعارك مع البائعين، لعلي أنسى وجهك بين الغرباء.

قالت وهي تنظر إلى القمر الفضي المعلق في السماء: كنت أركض نحو الباب عندما أسمع خرخشة المفاتيح، أو سعالك الذي كان يوقظ نصف سكان الحي، كل هذه الأشياء أتذكرها، تمنيت أن أنساها.

ـ دافني أنت امرأة قاسية. أقلّه، كان بوسعك أن ترفعي سماعة الهاتف، وتقتلي هذا الفراغ بكلمة أحبك.

ـ لقد غبت منذ أن تزوجنا يا كادم، انسحبت دون أن تفكر في الخراب الذي تركته خلفك، سعيت وراء الخلود، ظننت نفسك جلجامش العصر، انظر إلى النهاية، لا أعتقد أن هناك امرأة في الدنيا صبورة مثلي، سنوات طويلة من الألم والوحدة.

اشتعل رأسي أثناء ذلك بالذكريات: دافني تقطع النقانق وتحضر السّلطات، بينما أحضنها من الخلف. نشاهد فيلمًا وثائقيًا على التلفزيون، حول الحيوانات المهددة بالانقراض، بينما أنشغل بتجديل خصلات شعرها، وزرع القبلات على رقبتها وخلف أذنيها. ابنتنا سيلينا وهي تحتل منتصف السرير أثناء النوم، فنتقاسم أنا ودافني ركلات الأرجل والأيـدي. أحاديثنا في السهرات الشتوية ونحن نفترش الأرض إلى جانب مدفأة الحطب، نشرب القهوة وندخن لفافات التبغ، ونستمع إلى هايدن. أمي ووالدي وجلسات الشاي على

ساحة الدار. اقتحامات الجيش الإسرائيلي لقريتنا واعتقال المطلوبين ناشرًا الخوف في قلوبنا. وجه أختي التي انتحرت بعد أن ألقت بنفسها من علو شاهق.

أخذت نفسًا من السيجارة. لقد نكأت الذكريات جروحًا قديمة، فشعرت بأطرافي ترتجف، سحبتها نحوي مرة أخرى، ودفنت رأسي في رقبتها أشم رائحة العطر المريح، التي لم تستبدله منذ عرفتها. تناهى إلى سمعي أغنية «Ma Che Freddo Fa» لندى مالانيما، كان صوتها باذخ الحزن، فلم أحتمل، فمشيت بسرعة لأدفع الذكريات والأفكار بعيدًا، حتى شعرت بالإنهاك.

لم أنم تلك الليلة. فكرت طويلاً. كانت الأفكار الغريبة والشريرة تتزاحم في رأسي.

(٣)

كنت أحب دافني، لكنها كانت تود أن تذهب بالعلاقة إلى نهايتها المرجوّة، السعيدة، والمُشتهاة من ناحيتها: أن تصبح زوجة وأماً. قلت سابقًا بأنها كانت تحب القططة أكثر من البشر، ونسيت أن أقول إنها تحب الأطفال. رغم ما رأته في صغرها، خصوصاً ساعة مجيئها إلى الدنيا، إلا أنها ظلّت تشتهي أن تحمل في جوفها طفلًا. الزواج كمؤسسة برجوازية تقليدية، كان بالنسبة إلي نهاية علاقة الحب التي جمعتنا، لأنني كنت أخاف المسؤولية: الأطفال ليسوا أزواجًا من

العصافير، إنما كائنات لها متطلباتها الكثيرة، وأنا لم أكن متهيئًا نفسيًا ولا ماديًّا لهذه الخطوة. من هنا، أريد أن أقول الآتي:

المرأة موسيقى عذبة، تتفجّر بالطاقات القادرة على التغيير، تغييرك أنت، بحيث تصبح كائنًا أقل بشاعة. ابتداءً بالجسد، ذلك الجزء الذي نستطيع لمسه، الإحساس ببرودته وحرارته، والتباساته، وجنونه ساعة الغرام. الصّدر ناهض، مندفع، شرس، ومعمول بطريقة تدفعك لأن تعجب به، وتشتهيه، إنه أقرب أشيائها إليك، لذلك هو اليد غير المصرّح بها للتواصل معك، أو لنقل إنه المسيّج، والمحمي بعيدًا عن أيدي الغرباء، إلى أن يأتي الحب الذي له الحق في أن يمد اليد ويُلقي التحيّة. لقد صُمِّمت لتحتوي وتضم وتُطبق، إنها حضن كبير يتّسع لأكثر الرجال بؤسًا وحزنًا.

بالتالي الجسد الأنثوي هو عبارة عن حضن قادر على احتواء انكساراتنا وهزائمنا في الحياة، إلا أنه أيضًا مُلتبس، وتضاريسه وعرة. إنه غابة من التعقيدات التي تعيشها البنت أثناء حياتها.

هذا لا يعني بالطبع، أن العلاقة التي ربطتني بها محض جسدِيّة، رغم أن سلطة الجسد كانت حاضرة على الدوام. كان بيننا حب وألفة واحترام متبادل: أحببت فيها خجلها حين أتغزّل بها، فيتورّد خدّاها وترتفع حرارتها. عشقت تصرفاتها الصبيانية، وحين تستبدل كلمات الحب بالدموع. عشقت سلوكها البوهيمي، تعلّقت بتفاصيلها، بساطتها، وجهها الذي يأخذ شكل الحزن. كانت دافني تحرُّراً، وعالماً مختلفاً.

قلت لنفسي: حسنًا، لنتزوّج، المهم ألا أخسرها. لكنني عرفت فيما بعد، أن الطفل هو حلم المرأة الذي أخذ يتخلّق في داخلها منذ ولادتها. إنها تشتهي الأطفال، رائحتهم، وأناملهم، وبشرتهم الناعمة. أثناء السهرات، حين يمر طفل في مسلسل تلفزيوني أو إعلان إعلامي، كانت دافني تشرع في الحديث حولهم، كأنهم فاكهة ناضجة، أو كائنات لذيذة وشهيّة.

أصبحت تعلّق صورهم في الصالون، غرفة النوم، خلفيّة سطح المكتب على الكمبيوتر، كما أنها أصبحت تشتري ملابسهم وأحذيتهم الصغيرة، وتحتفظ بها في صندوق.

أنا أعرف دافني، من أي نوع من النساء هيَ.

إنها تحب أن تضيف، كل ما يمكن أن يكون جزءًا منها. إنها تتبع أسلوب الاكتساب والإضافة، أكثر من أسلوب الطرد والحذف. على سبيل المثال، ثمّة من يضيف إلى نفسه أفكاراً أو معتقدات، بينما دافني أضافت إليها ثلاثة عوالم: القططة، الأطفال، والكمان. من هنا، كان الطّفل مصيريًّا، وليس من الكماليات.

طموحها أن تخرج كائنًا ناعمًا وجميلًا من أحشائها.

وكنت رافضًا للفكرة، قلت لها بالحرف الواحد: لا أريد الأطفال. وأضفت: إنهم حمقى وأنانيّون، يأكلون من جسد الأم، يمتصّون الكالسيوم من عظامها. والعالم ليس بحاجة إلى مستبدّين وقتلة ومجرمين حمقى، من جديد.

رفضي لفكرة الطفل لم تكن من صيحات الموضة، وخزعبلات مثقف معقّد، إلا أن له أسباباً عميقة، متجذّرة في الداخل. وهذا ما حاولت أن أشرحه: صعب. أخاف، حسنًا، أنا جبان، لكن الأمر ليس بيدي. من ناحية أخرى، أريد أن أوظّف كل طاقتي في الكتابة، انشغال واستحواذ يومي من أجل الفن، أما الأبناء فيحتاجون إلى الاهتمام والرعاية.

ذات يوم، ارتدت ملابسها: بنطالها الجينز الذي يمنح خصرها استدارة كاملة، وبلوزتها الوردية التي تبدو فيها متألقة وطافحة بالأنوثة. ولم يفتها أن تضع بعض اللمسات الرائعة على وجهها. عندما وقفت أمامي، حنت رأسها قليلًا، ثم رفعته وسددت نظرها نحوي مباشرة. صوت القلب كان يأتيني كتعويذة أو همس شاعر: أن نخرج معاً، وننشر عبق الحب في كل الأمكنة التي يمكن أن نصل إليها. أن نغني ونركض في طرقات فلورنسا كالمجانين. أن نترك الواقع والعالم العقلاني ونجري تحت الأمطار، نخرج ما بداخلنا من كآبة وضجر.

لم تضجر من طلبها، قالت: أريد الإنجاب. أخرج هذه الشياطين من رأسك، سنجتاز معاً هذه المرحلة الصعبة. حاولت أن أشرح لها للمرة الألف: لقد مررت بطفولة قاسية، أب متشدّد دينيًا، وعنجهية إسرائيل، بنت الكلب، التي سرقت أحلامنا وحياتنا، وسعت إلى حصارنا وخنقنا.

داخلي خراب، وأنا شخص غير متزن.

حاولت إقناعها، فأضفت: «لدي صديق قديم، يعود إلى أيام الطفولة، كان اسمه زياد، يعشق الذهاب إلى الجبال التي تطوّق قريتنا من جهاتها الأربع. أحيانًا، كان يدعوني للذهاب معه، فأرافقه.

ذات يوم، خرجنا في رحلة قصيرة إلى أراضي القرية كي نتنفس الهواء، ونريح أعصابنا من ضغوط الدراسة والعمل. صعدنا إلى قمة جبل يطل على إحدى المستوطنات الإسرائيلية. أتذكره بوجهه الطفولي، وهو يخرج نايه الحزين من مكانٍ قريب إلى قلبه. تحسّسه طويلًا، ثم دخل في غمار صمت مطبق. رأيت إشراقة تلمع في عينيه، راحت تكبر شيئًا فشيئًا. شعرت بأنه يهيئ نفسه لطقوس، ستشترك فيها كل أعضائه وحواسه. تنفس طويلًا قبل أن يبدأ عزفه المنفرد على الأداة.

التفاصيل يصعب تذكرها بعد ذلك. يستعصي عليّ، جمع أجزاء تلك الصور المشوشة والمضطربة، لكنه كان حدثًا كالكابوس. سمعت صوت طلقة خرجت من برج المراقبة، فتدحرجت على الأشواك والحجارة المسننة. شعرت بطنين مزعج في رأسي. صراخ وعويل وبكاء كان يخترق سمعي من الناحية الخلفية.

عندما استيقظت من هول الصدمة، التفت ورائي نحو زياد فوجدته غارقًا في دمه، وجهه مصفر، كان منكفئًا على جانبه الأيسر وهو يصرخ. جمعت نفسي بصعوبة واتجهت نحوه. حاولت حمله متجاوزًا الاستحالات حتى وصلت به إلى مكان آمن، بعيدًا عن نظر أبراج الحراسة العسكرية. أسندته إلى جذع شجرة، ثم ركضت والذعر

يخطف قلبي، توجهت نحو القرية وطلبت المساعدة. بعد نصف ساعة، جاءت سيارة الإسعاف، ووراءها كانت تهرول جماهير غفيرة من الأهالي، لكنّ الحياة لم تمنحه فرصة جديدة. واليوم إذ أتذكره، أشعر بحرقة في القلب. يطاردني وجهه حيثما ذهبت، كغيمة يعبر الذاكرة، ثم تنكمش ملامحه التي يعلوها الحزن.

للموت رائحة كما للحب.

أتفهمين ما أقول؟ حتى وإن تزوجنا، ليس بوسعي أن أنجب أطفالًا. إنني أخاف عليهم من الوحوش البشرية والعالم الدموي. فكرة الإتيان بأطفال إلى هذا العالم، كانت بالنسبة إلي مرعبة. يلاحقني الماضي، ولا يمكنني الفكاك منه. أخاف أن أعامل ابني بقسوة كما عاملني والدي، كما أخاف من مواجهة الموت. لقد مات أعز أصدقائي أمام عيني، ولم أستطع أن أفعل شيئًا. أخاف عليك من نفسي، أنا ملتاث بأفكار غريبة، ولا يمكن إصلاح الخراب داخلي.

أذكر ذلك اليوم، حين نهض أهل القرية فزعين على صوت الرصاص، الذي حملته الريح من الجهة الغربية. حاول البعض شق شبابيك بيوتهم والتلصص على الشوارع، حيث العتمة تحول دون رؤية أي شيء، سوى أخيلة بعض المشاة والجيبات العسكرية التي تجوب أحياءها. كان الجميع في حالة ذعر وترقب، كل ينتظر دوره في اقتحام بيته وتفتيشه، أسرعوا في إخفاء نقودهم، وأطفأوا المصابيح الكهربائية، ومن ثم تجمعوا في الغرفة الأكثر أمانًا.

خلت الشوارع إلا من الجنود والعربات العسكرية، كانت الأسئلة التي لا أجوبة لها تلمع في عيون الأطفال، الخوف الذي يقبض قلوبهم وملامح وجوههم راح يكبر ويزحف معربدًا في المكان. انزرعوا في أحضان أمهاتهم لعل إحساسًا ولو قليلًا بالأمان، يتسرب إلى قلوبهم التي انكمشت كعصافير مذعورة.

تسلّلت من أرض الجيران إلى المنطقة الواقعة خلف الجامع القديم، التي تطل على الجزء الغربي من القرية. رفعت رأسي من بين ألواح الصبار مستكشفًا المكان، رأيت جيبين عسكريين على المفترق ما بين مخبز البلدة ومدرستها الثانوية، حاولت الاقتراب أكثر قاطعًا كروم الزيتون والبساتين المجاورة، نظرت إلى الشارع الذي يوصل إلى وسط البلدة، لمحت طيف شخصٍ يتوسد الجدران، يحرص على الابتعاد قدر الإمكان عن أضواء الشوارع والمنازل، توجهت نحوه بخطوات حذرة، فرأيت رجلاً مصابًا برصاصة في قدمه اليمنى، أسندته واضعًا ذراعه على كتفي، مشيت به واللهاث يصعد من رئتيه كألسنة اللهب.

شعرتُ بأنفاس الغريب تلفح وجهي، بينما ظلت الدماء تتدفق من جرحه كشلال دون انقطاع. في البيت، حاولت أمي وقف النزيف بالأربطة وقطع القماش، بادرت أختي إلى مساعدتها ولسانها يتمتم بالدعاء، كان يرتجف وجسده يزداد برودة، أسرعت إلى بيت الدكتور رامي قبل بزوغ الفجر أطلب مساعدته غير آبه للخطر المحدق بي،

محاولًا إنقاذ الجريح من براثن الموت التي راحت تزحف نحوه كأذرع الأخطبوط.

عندما انسحب الجيش، نقلوه إلى المستشفى الحكومي في طولكرم، استيقظ الأهالي على الأنباء والإشاعات التي تأتي من هنا وهناك، وعلى خيوط الدم التي تخضبت بها شوارع القرية.

انسحب الجيش وترك خلفه الذعر والدم.

وكانت تتوهج في رأسي الأسئلة: من أين ينبثق هذا العنف الهمجي؟ وكيف يتحول الهدوء إلى حالة من العدوانية والدمار؟ كأن السنوات الطويلة التي يعيشها الإنسان تحت الظلم والاضطهاد، تولد الكميّة وردة الفعل نفسها داخله. والسؤال الأهم كان حول الماضي، سلطته وتأثيره في حاضر الإنسان ومستقبله، هل سيلاحقني حتى آخر اللحظات في حياتي؟

ـ هل أخبرتك بحلم البارحة؟

قلت لها، وأنا أنظر إليها بعينين مبللتين بالدفء.

ـ أتيتِ كحورية خرجت تواً من البحر. كان العرق على جبهتك يتساقط كحبات لؤلؤ ملونة، وكأنك كنت ترقصين، جسدك تمايلَ تحت أضواء الشوارع. كنتِ متوهجة، متألقة، ساحرة، همست في أذنك قبل أن أسحبك إليّ، وأحضنك طويلاً: كم أشتهي البحر! يدك زحفت نحو يدي، سمعتك تقولين: البحر بين ذراعيك. لست أدري كيف نسيت نفسي، واعتصرتك بذراعيَّ القويتين. تناهت إلى سمعي آهة

دافئة خرجت من أعماقك. تركتك لحظات قبل أن أجذبك نحوي من جديد. قلتها لكِ، واعترفت: أحبك. هذه هي الحقيقة. لم تقولي شيئًا، اكتفيت بأن خبأت رأسك تحت سترتي، فوق الصدر التّعب. وأخيرًا قلتها، كيف أنتِ الآن؟ لم تتركيني لأكمل. وضعتِ يدك الصغيرة على فمي. ضغطت بقوة ثم عانقتني. كان المكان بعيدًا عن ضجة الناس والمدينة، في منطقة كالحرش تملؤها أشجار الصنوبر والسرو. كنت لأترك صوتي يطرق جدران العالم فرحًا، صارخًا ومعترفًا بحبك، لكن ظلاً لعينًا تراءى لي خلفك، راح يتقدم نحوك بخطوات بطيئة، ثم انقضّ عليك. سمعتك تتأوهين ألماً، انكسرتِ بين ذراعي، أحسَست بسائل لزج وحار يتدفق من خاصرتك اليمنى. سقطتِ على الأرض جريحة، بينما ركض الشبح المجرم مبتعدًا، متسترًا بأغلفة الضباب والعتمة. طويتِ رأسك على التراب الجاف، ورحت تتنفسين بصعوبة، وتهمسين باسمي من بين شفتيك الغارقتين بالدم. أيقنت أنك تعرضت لطعنة حادة. تلمست السّكين التي انغرست في اللحم النيء، وقطعت الأنسجة بصورة وحشية. توقفت الكلمات الحارقة على رأس لساني، اختلطت الدموع والدماء بالتراب، وصارت مزيجًا تنتشر فيه رائحة الحزن والوجع.

ـ أوه إنه مجرد كابوس، لا تفكر فيه كثيرًا.

ـ لا أستطيع أن أتعايش مع فكرة فقدك. سأموت إن حدث لك أي شيء.

وضغطت بكفّها على فمي: «اصمت، من أين تأتي بهذا الكلام؟ يا إلهي ما أقساه!».

(٤)

سأتذكر، دائمًا، هيئتها: طويلة، نحيفة، شعرها طويل غير مسرّح، ترتدي تي شيرت أزرق اللون، فوق تنورة قصيرة. بعد أن تجاوزت دافني الباب، ركضت باتجاه الحمام. وضعت رأسي تحت الماء البارد ورحت أفرك وجهي، لأزيل عبق الكحول.

عندما رجعت إلى الصالون، وجدتها تتأمل المكان بعينين حزينتين. جلسنا على الأريكة، في حين أنها واصلت النظر إلى محتويات البيت، إلى أن حطّ نظرها على طاولة الكتابة. فجأة، أخذت ترتجف، وتصلب جسدها، ثم أرجعت رأسها إلى الوراء وقلبت عينيها، وأخذت تهذي بكلمات مبهمة.

استدعيت الطبيب. قال بأنها تعرّضت لصدمة، يبدو أنها رأت شيئًا مرعبًا.

بدت جافّة مثل عودٍ يابس.

قالت بينما اغرورقت عيناها بالدموع: «شعرت بالخوف حين رأيت مكتبك، لقد كان السبب في تدمير حياتنا وعلاقتنا».

«لنترك هذا الكلام جانبًا» قلت لها، وأنا أضع كأس الماء في يدها.

«طالما تركت كل شيء جانبًا: حياتنا، مستقبلنا، ابنتنا. أنت مغرور

وأناني، ما يهمك في الحياة أن تكتب، وتكتب حتى تموت من الإرهاق والقلق. ليت الكتابة بالنسبة إليك، مثل مشاهدة فيلم، أو قراءة كتاب، تأخذه بسهولة وأريحية، بالعكس، علاقتك بها ملتبسة ومعقدة». وراحت ترتجف.

جلست إلى جانبها على السرير، وضغطت على يدها. بدت بشرتها ناعمة مثل بشرة طفل، لكنها كانت باردة تنضح عرقًا.

«أعدك أنني سوف أعتزل الكتابة. فقط هذه الرواية، لقد أشرفت على إنهائها، لا أستطيع ترك معتز ودارين وحدهما، في مواجهة ذكاء واحتيال إسماعيل. لم يكن إسماعيل نبيًا في الرواية، يذهب إلى الذبح طواعية، تنفيذًا لأمر إله ما، وإنما كان شيطانًا ببدلة رسمية، وربطة عنق. هل فهمتني؟ إن قصتهم هي قصتنا، الحقيقة أننا كلنا ضحايا هذا العالم القذر. والأشياء ليست كما تبدو عليه، علينا أن نحفر عميقًا لنعرف مكان العطب بالضبط. إنّ الماضي وتراكماته تلقي بظلالها علينا، إنها تحكمنا بخيوطها الخفية، تأتينا على هيئة أحلام وخيالات».

أدارت لي ظهرها، وأخذت تنظر إلى الناحية الأخرى، ثم قالت: «أنت تعيش في عالم آخر، أثّثه بالأوهام والخيالات. هل كان علي أن أمرض، لأشعر باهتمامك ناحيتي؟» وأخذت تمسح دموعها بظاهر يدها.

لقد حاولت أن أجعل قلبي مرآة أو حجر صوان، وأن أدربه على المأساة، كما نصحني أبي الشيخ عثمان، لكني لم أنجح. العالم

لا يعترف بالحدود، نرزح تحت وطأته وإرهاصاته، نسير وفق خططه حتى نصل إلى نقطة اللاعودة. نجح القمع في تحويل جمال النفس إلى قبح وتعصّب مقيت، في مرحلة خطيرة يمر بها العالم، محاصرًا بجحيم الاغتراب وتغيّر القيم.

رأيت حياتي رواية حزينة تشبهني إلى حد كبير. تركت دافني نائمة، وتوجهت إلى الحمام. نظرت إلى وجهي في المرآة، ثم وضعت رأسي تحت صنبور الماء البارد.

الذكريات ثقيلة كجثة، والنسيان قد يكون ولادة جديدة، أو تدريب الذاكرة على مزيد من الاحتيال.

نسيت أن أكثر الأشياء قربًا إلى قلوبنا، هي الأكثر قدرة على إيلامنا. أن تحب شخصًا، شيئًا ما، يعني أن تكون على استعداد لاستقبال الطعنات الواحدة تلو الأخرى.

لم يكن الماضي سببًا في الانتقام وتدمير الذات فقط، بل وقودًا ضروريًا للموهبة. ليس أي ماضٍ، إنه ذاك الباذخ بالحزن والقادر على التجدُّد، والمجيء في المستقبل، متماهيًا معه، حتى يلتبس الأمر على الإنسان، فلا يدري في أي زمن يعيش. إنه ماضٍ ذو تأثير طاغٍ وكبير، لا فكاك منه.

إنها الحرب الصامتة التي تدور في الداخل. ملايين الذكريات والمشاعر التي تتمازج وتتفاعل، لتنتج لنا هذا الكائن البشري المُحيّر، والمستعصي على الفهم.

قالت في الليلة الثانية، بعينين نصف مغمضتين، وهي تحك جسدها بطرف الباب: خذني إليك، فالوقت ينفد. هيّا، تعال، خذني إلى حضنك وأطبق علي. لنشاهد فيلمًا، نستمع إلى شوبان أو موزارت، نرقص قليلًا، نتحدث عن أمور تافهة ولا أهمية لها. أريد أن نفعل معاً أي شيء.

سألتها وأنا أشد على يديها: مـي آمي؟ رغم ما حدث، إلا أنك تحبينني، أليس كذلك؟

ـ هذا لا يهم، أنا فقط أرغب فيك.

قلت لها برقّة:

ـ ولماذا أتيتِ إلى البيت؟

فارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة، وخرجت كلماتها كأنها نزيف. حاولت أن تداري دمعها، لكنه انهمر كالعادة على وجهها.

ـ أنت تعرف أنني ضعيفة أمامك، لقد عدت إلى البيت الذي جمعنا، إنه المكان المليء بذكرياتنا. هنا أحببنا، ومارسنا الحب، وافترقنا.

أخذت خصرها، وسحبتها نحوي.

ـ أنت أناني، تحب شخصياتك الروائية أكثر مني.

همست في أذني اليمنى، بينما كانت تنهداتها الحارّة تلفح عنقي.

ـ دافني، ما زلت أشتهيك.

قالت بعد أن عادت إليها ابتسامتها، لكنها كانت ابتسامة ناقصة، يشوبها الحزن:

ـ تعرف أن هذه الكلمة تثيرني.

أخذتها إلى حضني. شدّت جسمها واندسّت في مكانها الطبيعي. دفنت رأسي في شعرها، ورحت أتلمسه وأشمّه. قبلت كتفها، ثم مددت أصابعي وفركت شفتيها، نزلت بالقبل واللمسات على عنقها، وتسلّقت يدي قمتي نهديها. استنشقت عبق جسدها، أغمضت عيني إمعانًا في اللحظة. احمرّ وجهها وارتفعت حرارة جسدها، ثم شرعت في خلع ملابسها، لتكشف عن جسد مُشتهى. اقتربت بكامل عريها وأنفاسها وتنهداتها.

ـ حبيبي، خذني إليك، إنني أشتهيك حتى الموت.

بعد أن انتهينا من ممارسة الحب، انكفأت دافني عارية إلى طرف السرير، منكوشة الشعر، مكوّمة على نفسها، نظرت بعيدًا عبر زجاج النافذة، باتجاه تلال فلورنسا. ثم دخلت في نوبة بكاء هستيرية، بينما راح جسدها يرتعش بشدّة، وعندما حاولت تهدئتها بضمّها إلي، دفعتني بعيدًا.

ـ لماذا تهوى تعذيبي؟

ـ أنت مجنونة. ماذا تريدين؟

ـ أتوسل إليك أن ترحمني. أريد الحب، وليس العائلة. أريدك حبيبًا، وليس زوجًا من حبر وورق.

مسحت على وجنتيها الطريتين والموردتين بباطن راحتي. كان شعرها فوضوياً، ووجهها يرشح بالبراءة.

ـ اهدئي دافني. أتحبينني؟

ـ نعم أحبك ... تي آمو.

صرخت باكية.

ومسكت بوجهها بين يدي. لم أعد أرى سوى عينيها المبللتين.

ـ حتى وأنت تمارس الحب، تكون أفكارك في مكانٍ آخر.

ـ هذا غير صحيح، كيف عرفتِ؟

ـ عندما تربت ظهر قطّة وأنت شارد الذهن، فإنها ستعضك وتغرز مخالبها في وجهك. أنا قطّة موجوعة، هل فهمت؟ أريدك كاملًا. أن تحب معناه أن يسكن الآخر في رأسك، وإلا فإنه ميت ولو كان على قيد الحياة. فما بالك في أكثر لحظاتنا حميميّة؟

مارسنا فعل الحب مرة أخرى كما لم يسبق لنا أن مارسناه. كانت حركاتها سريعة وشغوفة، وعناقها أكثر وحشيّة من المرة السابقة. ارتفع صراخها ولهاثها، كما أكثرت من الكلمات الحميميّة التي راحت تهمس بها في أذني. ابتكرت أوضاعًا جديدة، لم نجرّبها، كنا نغيّرها بحيويّة وليونة. كانت امرأة تحارب، وتقاتل، كأنها في معركة حياة أو موت، وكنت متوترًا، مركزًا عليها، جسدًا وروحًا، شهوةً وحنانًا، رغبة مفرطة في الانعتاق الأبدي، وحباً لامتناهياً في الحياة.

أظهرت جسدًا شغوفًا، متلهّفًا، ابن اللحظة، بلا ماضٍ أو ذاكرة.

ـ كانت أمي تخاف.. تخاف أن أحصل على السعادة التي لم تحصل عليها، إضافة إلى أنني كنت إحدى شكاواها، ومشجبًا تعلّق

عليه أخطاءها. لقد كانت تقول لولا الحمل لأنهت دراستها وكان مصيرها مختلفًا.

حينئذ أكملت بكاءها.

ـ استمري في البكاء، إنه يريح قلبك. هذا البكاء تحرُّر.

ـ أنت كل ما لدي في هذه الدنيا، لا تذهب، أريدك إلى جانبي على الدوام.

ـ لستُ بهذا القدر من الغباء كي أتركك. ألا تعتقدين أنك ربما تظلمين والدتك؟ هل هي ظالمة أم أنت فتاة عاقّة؟

ـ لقد كانت علاقتنا متوتّرة. تدخّلت في كل تفاصيل حياتي: طريقتي في تسريح شعري، ألوان فساتيني، صديقاتي، هواياتي، حتى فوطي الصحيّة، تخيّل! لقد كانت تصر على نوع واحد بالذّات.

وأزحتُ خصلات شعرها بأناملي.

ـ لكن هذا سبب غير كافٍ لتكرهي أمك.

ـ سبق وقلت لك بأنها كانت تكرهني. لقد حاولت قتلي غير مرة، كيف بوسع أم أن تقتل ابنتها؟ إنها لم تلقِ عليّ نظرة واحدة عند ولادتي. لقد حرمتني من حنانها وحليبها وأنا رضيعة، ثم ظلمتني فيما بعد، حين كانت تعاملني كطفلة غير راشدة.

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كانت دافني نائمة على بطنها، مسترخية، إثر وخزات اللذة. مرّرت يدي على ظهرها كأني أتفقده، وطبعت عشرين قبلة. اشتهيت أن أمتص كل حزنها وألمها

وخيبتها عبر بشرتها البرونزية. كنت دائخًا بالكحول ومخدّر الفودو. اعتديت عليها وتحوّلت إلى وحش أثناء الممارسة، صفعتها غير مرة، كسرت إحدى أسنانها، وضاجعتها على سجادة الغرفة، قبل أن أمسك بها من شعرها وأجرجرها إلى السرير، وأضربها مرة جديدة بالسوط على مؤخرتها. شتمتها وقلت لها: أريد أن أفعل بك ما فعله ليوناردو في مرسمه. كنت أهذي، وعدت إلى ترديد القصص نفسها حول خيانتها وعشقها للتهتُّك والمجون.

عندما استيقظت ظهر اليوم التالي، شعرت بألم شديد ينبض في رأسي، رأيت ملاءات السرير ملطخة بالدماء، حينئذ أدركت المصيبة التي اقترفتها. وضعت قدميّ على الأرض، ورحت أمشي في إثرها، أتتبع خطواتها المنكسرة، أتخيلها وهي خارجة بشفتين متورّمتين، جروح وخدوش على رقبتها وكتفها اليسرى، انتفاخ في عينها اليمنى.

أخرجت علبة المهدئات، وضعت قرصين كاملين في فمي، مضغطهما ثم شربت من علبة المياه المعدنية.

كنت في زمن مضى، أمارس الحب كما لو أني أكتب. كل ممارسة للحب هي نص جديد، مغامرة جديدة، غير مضمونة النتائج، فيها احتمالات الخسارة أكثر من الربح. أكتب النص وكأني أضاجع امرأة، وراء كل كلمة أترك مفاجأة لأقتل الروتين، لا أكتب إلا ملبّيًا لنداء الطبيعة وصراخ الدم، بمعنى آخر لا أكتب دون رغبة، لا أمارس

الحب من دون رغبة. كنت أنظر إلى دافني كأني أراها للمرة الأولى، غزالة شاردة تقفز من مكان إلى آخر، فينتصب قلمي على جسد الورقة، وأكتب نصًّا بديعًا، بأصابع عازف محترف. لكن الهلوسة الناتجة من تعاطي المخدرات، أتلفت أعصابي، وجعلت مني كائنًا متبلد المشاعر، أقرب لأن يكون وحشًا.

(٥)

ليلة اليوم التالي كانت قاسية.

حاولت أن أستجمع قواي التي انهارت، شعرت بدوار عنيف بدأ يتكوّر في مقدمة رأسي، وإرهاقًا عامًّا في كل أجزاء جسدي، تدثّرت بالأغطية بينما كنت أتصبب عرقًا. فجأة، رأيت دافني تجلس إلى جانبي، تمرر يدها على شعري ووجهي، كانت عيناها ذابلتين، ووجنتاها متوردتين، وملامحها متعبة، همست في أذني وقد انحسر قميصها عن صدرها، فرأيته شهيًا وناضجًا، سحبتني من يدي فتبعتها، فتحت الخزانة وأشارت إلى أسفلها، أخذت بالبحث، فوجدت دفترًا صغيرًا أخضر اللون. حين رفعت رأسي لم أجدها، فحملت الدفتر وجلست إلى طاولة المطبخ وبدأت بتصفحه. كان الدفتر يحتوي على يوميات دافني، لم تكن كثيرة إذ لم تكن تتجاوز أصابع اليد الواحدة. أعددت لنفسي فنجان قهوة، لأثبت رأسي وأبدأ بالقراءة:

اليوم الأول

في الفترة التي التقيت بها كاظم أثناء المرحلة الجامعية، كنت مأخوذة به، إذ بدا لي رجل الاستحالات الكثيرة، فيه من رائحة الشرق بأساطيره وغموضه، كان كل ما فيه يجذبني إليه: وسيم، ذكي، مثقف، يحب الكتب، ويعشق الكتابة الأدبية. ولكن، كالعادة فإن العادة تجري في شرايين العلاقة بعد عدة شهور من الـزواج، فاجأتني الحقيقة المرعبة، وصحوت فجأة على نفسي. مثل أي امرأة متزوجة، حلمت في أن يكون لي بيتي الخاص، عالم دافئ، حيث أشعر فيه بالأمان، بيد أننا اشترينا شقة متواضعة بالتقسيط، ثم وجدنا نفسينا عاجزين عن تسديد أقساط الشهور اللاحقة، ففقدت الشعور بالأمان، ذاك الذي كان من المفروض أن يكون لامرأة متزوجة، ووجدتني مهددة بالطرد والمبيت في الشارع.

كان زوجي يعمل في وظيفة متواضعة، محرراً لدى مجلة أدبية من الدرجة الثانية، ويكتب بعض المقالات في الصحف، بينما كان عملي الوحيد هو السهر على راحة زوجي، قلت لنفسي: لأكن ربّة بيت نموذجيّة. حاولت بقدر استطاعتي أن أهب الحب لزوجي، رغم المنغّصات والعجز المالي. أضفت إلى الشقة الضيّقة قليلًا من لمساتي الأنثوية: وضع لوحات وتحف، ترتيب مكتب زوجي، وتزيينه بالورود، ترتيب الملاءات والوسائد والقمصان ووضعها في أمكنتها الصحيحة،

المحافظة على البيت نظيفًا بلا غبار، حيث أقوم بحملة تنظيفات في كل صباح، وأحرص على رش الروائح الجميلة.

كنت أجهز له مائدة الطعام بحب، فأطهو أجمل المأكولات الإيطالية. ذات مرة، بحثت في النت عن طريقة لصنع الفلافل، وبالفعل، قمت بمفاجأته على العشاء، فأخذ بالضحك والسخرية. كنت قد وضعت كريات الحمص المطحون في الفرن، فخرجت أشبه ما تكون بالعجين.

أصبحت حياتنا عاديّة، وأوضاعنا المادية سيئة للغاية، كنت أشكو له أحيانًا بخجل كي لا أجرحه، فلا أجد منه غير اللامبالاة. كان يؤمن أنه ينبغي لنا تقديم هذه التضحيات، في سبيل مجده الأدبي، إذ يظن نفسه على خطى العظماء الذين لا يجدون حتى الوقت لحلق ذقونهم. وصلت إلى مرحلة من التعب والاستسلام لدرجة أن الإحباط سيطر عليّ. يحدث للزوجة أن تشعر بحاجة ملحة لذرف الدموع، عندما تشعر بأنها محاصرة ومخنوقة، فكيف بامرأة مثلي فقدت الشعور بالأمان والاهتمام، وصارت بمرور الوقت نصف امرأة!

كنت حانقة على نفسي أكثر من حنقي عليه، لأنني كنت طفلة حمقاء ورومنسية، رأت في شاب يكتب الروايات فارس أحلامها، حلمت معه بالحب الكبير والسنوات الهنيئة وليالي العسل. فترة مليئة بالسحر والوعود، لكنها سرعان ما تحطّمت على صخرة الواقع، لأفتح عيني على كاتب جائع، بائس، مليء بالندوب الداخلية، يعاني القلق والاضطرابات.

بعد مرور خمسة أعوام، بدأت حياتنا المادية بالتحسُّن. اشتغل كاظم في صحيفة مرموقة، بينما صرت أعزف في الحفلات التي تقيمها العائلات الغنيّة. رأيت القصور وترف الطبقة المخملية في المجتمع الفلورنسي، وبكيت على أيام الفقر والحاجة. حسنًا، الأمور الأخرى ظلّت متأزمة، هذا ليس اتهاماً، إنه الحقيقة، لقد كان أنانيًا ولا يفكر خارج ذاته، حتى ابنته أهملها.

كنت أعتقد أني سأتزوج رجلًا يشاركني في أحلامي وطموحاتي والأشياء التي أحبها، إلا أني تزوجت رجلًا يضرب على لوحة المفاتيح طوال اليوم، لا يتحرَّك من أمام الحاسوب، يعتقد أنه سيدخل التاريخ ويضمن لنفسه المجد وهو متمدد على السرير.

اللعنة على هذا المجد الذي سيأتي من الاستلقاء طوال اليوم على السرير.

اليوم الثاني

أردت الحب مثل أي امرأة طبيعية عند الرجل الذي أحبه، لكني لم أكن طبيعيّة طوال حياتي، والرجل الذي أحببته لم يكن طبيعيًا. لقد كنّا كائنين موجوعين وممتلئين بالصراخ من الخوف والعنف والارتباك الداخلي.

كنت امرأة معطوبة من الداخل، وميؤوساً من إصلاحها، وكان شرقيًا طافحًا بالتناقضات، من الخارج قدّيس ومن داخله إباحي ماجِن. الرِّجال؟

الضّعفاء من الداخل، المنتفخون من الخارج لكثرة الأقنعة والاستعارات. العميقون والسطحيّون في الوقت نفسه. السّاعُون وراء الحب والنساء الوحيدات والقصائد الرديئة. الطّامحون إلى المزيد من الهزائم والخيبات.

اكتشفت بعد زواجي بكاظم، أن الرجل يخاف من المسؤولية وتربية الأبناء، يريد فقط أن يجني اللذة من أجساد النساء حتى التلف، ثم يبحث عن أجساد جديدة، وقد يعيد الكرّة ويمارس كرمه على أجساد تالفة.

كانت أجسادنا تضج وتنتفض بأشياء مخيفة، ورؤوسنا مثقلة بالتّرهات والأفكار الشاذّة. لماذا؟ أثمة من لا يحب أن يعيش حياة سويّة نفسيًا وجسديًّا؟

ليس بوسعي أن أصف نفسي بالجسورة والمستقلّة، فطوال حياتي حاولت ألا أمنح نفسي لأحد، باستثناء الكمان والقططة، فيما كان الحب سواء الجسدي أو الروحي خارج دائرة اهتماماتي، لم يكن الرجل سوى من الكماليات.

ووقع أن أحببته، لكن بمرور الوقت تتغير كثير من الأشياء. كان المفروض أن يكون شهر العسل من أجمل أيام حياتي، لكنه للأسف لم يكن كذلك. لقد كان سيئ المزاج، جدّيًا، وكانت ليلتنا الأولى سيئة. في صباح اليوم التالي، نزل لتناول الفطور، وبقيت في الغرفة وحيدة، وعندما عاد لم أفتح له الباب، بينما كنت أعوي كذئبة زارعة

رأسي في المخدة البيضاء. كم ظل في الخارج، ساعة، ساعتين، يوماً كاملاً؟ في الواقع لا يهمني كثيرًا الوقت، المهم أني كنت مثل أي امرأة حزينة، تصل أحيانًا إلى مرحلة السّأم فتقوم بأعمال غبيّة، لكنها خطيرة وموجعة.

خرجت من السرير، وضعت قدمي على الأرضية المفروشة بسجاد فارسي. خلعت قميص النوم، ووقفت لأمارس عادتي اليومية في تأمل جسدي الجميل، البرونزي والصلب كتمثال.

رحت أرقص على وقع أغنية وحشيّة، وأنا عارية، بينما زوجي يواصل طرق الباب بجنون: افتحي الباب.

كان لا بد لي أن أشحذ شجاعتي وأفتح الباب المغلق، وأشرح لزوجي مثل أي امرأة عاقلة ما حدث ليلة الدخلة، حيث كنا متعانقين في الشرفة، وهو يشد على يدي كأني طفلة، في حين أنني كنت باردة ولم أحس معه بأي شيء، كان ثمّة مناخ من الكذب والتمثيل يسود بيننا. لم أكن شُجاعة بما فيه الكفاية لأفتح له الباب، فظلّ في الخارج.

واصل كاظم ليلتها طرق الباب. وقفت تحت الدوش الساخن باكية، وصرخت: أنا حقيرة، ومذنبة. وأضفت: هو كذلك، حقير ومذنب. عدت عارية إلى السرير، بشعر مبتل بالماء، وبشرة محمرّة من الخجل، أزرع رأسي بين الوسائد وأخبئ نهدي الصغيرين، الصلبين، الأحمرين تحت الشرشف. أتمدد وحدي كاملة، لا أحتاج إلى أحد، وأبكي بحرارة مثلما لم أبكِ في حياتي. على الرغم من ذلك، كنت

سعيدة وأنا في قمة تعاستي، سعيدة لدرجة أني رغبت بأن أرمي نفسي من النافذة، أو أبتلع لوحاً كاملاً من الحبوب المنوّمة كمحاولة لنوم طويل أو انتحار هادئ.

هاتفت صديقتي جوليا، قلت لها: أريد الطلاق، والرحيل بعيدًا عن هذا الرجل. قالت لي بعصبيّة: لقد خرجتِ من البيت متفائلة، سعيدة، ولا يمكن أن تعودي مهزومة. قلت لها: أشعر أني سأكون تعيسة معه يا جوليا، سيكسّر أحدنا الآخر.

وهناك أمام برج إيفل، أثناء شهر العسل، أمسك بي من عنقي بقبلة أو قبلتين، لا أذكر على وجه التحديد، لكني متيقنة أني كنت ماهرة في التمثيل. كيف كان لي أن أشرح لزوجي أن ليس لي علاقة بما حدث، أنا بريئة، ومجنونة، أتصرف مثل الأطفال، عندما أكون بحاجة إلى شيء أجهله، لكني أحتاج إليه بشدّة. كيف أشرح له أنه تغيّر من ناحيتي، والحقيقة أنه تزوجني ليمتلكني، ثم يعيش من أجل كتبه، ويترك خلفه امرأة مهملة؟

شعرت بأني لا أحبه ولا أشعر نحوه بأي شيء، رغم أنه رجل طيب يحبني. لا، ليس هكذا تمامًا، كنت أحبه، لكن ثمة أمر قد تغير بيننا. كانت علاقتنا ليس لها مثيل قبل الزواج واستمرت سنوات، على سبيل المثال، كنا نمارس فعل الحب باندفاعة كاملة، هياج من الطرفين، ومشاركة حماسية، أما فيما بعد، فأصبح البرود سيد الموقف، إضافة إلى السلبيّة والبطء في أداء الحركات.

كنت أشعر وأنا متمددة على السرير، بأني مجرد «مومس»، لا أفعل الأشياء بشغف، مع الرجل الذي أحبه، بل أريد أن ننتهي من الأمر بسرعة، بأقل الخسائر الممكنة: بلا ألم أو تعب.

المهم، أريد أن أقول إن ثمّة أشياء ماتت في علاقتنا منذ اليوم الأول من الزواج، ثم وجدتني أقوم بأفعال حمقاء، وأنجبت منه سيلينا. ستقولون، أنت معقدة وملتاثة بأفكار غريبة، أليس كذلك؟ ماذا تريد المرأة أكثر من بيت وزوج يحبها؟ لكن ما الفائدة من كل هذه الأسئلة، التي تنفجر في تصرفات بعيدة عن العقل؟ ماذا يهمني كل هذا الهراء، إن كنت غير سعيدة؟

مرّت الأيام وبات مشغولًا بمؤلفاته ولقاءاته الأدبية. لم نعد نجد لنفسينا حتى الوقت لتبادل الحديث. ما إن يستيقظ حتى يضع ركوة القهوة على الغاز، وعندما تجهز يحمل فنجانه، ويذهب إلى طاولة الكتابة. هكذا يبقى غارقًا في عمله، إلى أن تأتي سيلينا من مدرستها بعد الثانية ظهرًا.

أثناء انشغاله كنت آخذ ملابس السباحة والمنشفة وأذهب إلى نادٍ رياضي قريب من المنطقة، أسبح مدة ساعة، قبل أن أعود وأسخّن الطعام، فنتناول الغداء ثم يدخل إلى غرفة النوم من أجل القيلولة. يصحو عند الساعة الرابعة، ويعود إلى الكتابة حتى الساعة التاسعة مساءً، فينتهي منهكًا ومستنزفًا، فينسَل إلى السرير.

اليوم الثالث

أتمشى في شوارع فلورنسا وحيدة، أجلس في ساحاتها متأمّلة تماثيل ولوحات عصر النهضة، بعد أن أبتاع آيس كريم أو قهوة ساخنة. أرجع إلى البيت، أشاهد التلفاز، أو أقرأ كتابًا. هكذا أضحت حياتي، مع الشخص الذي وعدني بالعيش في بلاد الأحلام والرومانسيات، فاكتشفت أنه بليد وكسول. يقضي معظم وقته في البيت، بالتالي علاقاته الاجتماعية محدودة، كما يكثر من الكحول والمهدّئات، حتى أصبح مكتئبًا وعصبيًا، والحياة معه تكاد تكون مستحيلة. رفض في البداية الزواج، وبعد أن تزوجنا رفض الإنجاب، وبعد أن أنجبنا رفض أن يشاركني في تربية سيلينا. قال لي بالحرف الواحد: إنها مسؤوليتك. لا يعني هذا الكلام أنه كان يكرهها، بالعكس لقد أحبها كثيرًا، لكنه يشعر بعقدة إزاء الأطفال ترجع إلى طفولته في فلسطين، لذلك لم يكن واثقًا بنفسه، ويمكنني أن أقول إنه كان خائفًا من إيذائها.

عندما دخل في أزمته النفسية، لم نعد نثرثر كما اعتدنا أثناء العشاء والسهرات. أصبح منغلقًا على نفسه، صامتًا، يعاني نقص نوم وهلوسات غريبة. كان يرفض أن يذهب إلى المستشفى للعلاج. رغم ذلك، لم أتركه وحاولت مساعدته قدر الإمكان، حتى جاء اليوم الذي ضربني فيه إلى أن غبت عن الوعي، إثر اتهامه لي بالخيانة مع صديقنا الرسّام ليوناردو، فوجدتني في النهاية مضطرّة إلى هجره.

قال لي ونحن إلى مائدة الطعام: لقد ذهبت إلى مرسمه وضاجعك.

كان كلامه جارحًا وبذيئًا بحق زوجته. رغبت للحظة أن أحمل حقيبتي وأهجره، إلا أنني مثل أي امرأة فيها ذرّة من عقل، حاولت أن أحتوي الأمر ولا أزيد الخراب، لكنه أصر على اتهامي بالخيانة. ما أصعب أن توصف امرأة مخلصة، لا تفكر سوى في زوجها وبيتها، بالخائنة والعاهرة؟ تمنيت أن أموت قبل أن أصل إلى هذه اللحظة، وعندما رفض تصديقي، صرخت وتوسلت إليه وأنا ممسكة بيديه الجافتين والقاسيتين: أرجوك كادم، ستدمر حياتنا، فكر في ابنتنا، مستقبلنا، اللحظات الجميلة التي قضيناها معًا. أرجوك أن تفهمني. لم يحدث بيني وبينه أي شيء. لا يمكن أن أعيش مع رجل يشك في كل نظرة أو كلمة أو تنهيدة.

رأيت الصحون تطير في الهواء، والملاعق تتساقط على الأرض، وتحولت مائدة الطعام إلى قطعة من الجحيم، فصرخت في وجهه من جديد، بعد أن امتلأت فجأة عيناي بالدموع: أتظنني مثل شخصياتك الروائية المهووسة، الشاذّة، الخائنة؟

طاردني في أرجاء البيت، حتى أمسك بي وألقاني على الكنبة، ثم صفعني مرات قبل أن أسقط على الأرض. لم ينقذني أبي الإله في الأسطورة الإغريقية، أو أي إله آخر مزعوم، ويصيّرني شجرة غار مقدسة، بل بقيت دافني النازفة، الغارقة في عارها وحزنها.

رأيت كل الأشياء تأخذ لون خيبتي: الصور المعلّقة على الجدران، الأشجار المزروعة في الرصيف، الغيوم القليلة العائمة

تحت سماء زرقاء صيفية، ووجه سيلينا الحياة الخاطئة في حياة لا تستحق أن تعاش.

أعرف مثل أي مجنونة بالحب أنه قاتل ومتعب. الحب أزهق روحي، وصيّرني إنسانة معطوبة ومحروقة. لقد أحببته، لكنه كابوس تأتيه كوابيس.

ما هو الكابوس؟

إنه لحظة قاتمة، مرعبة، تجعل الإنسان يعيش في الكآبة أياماً، ويخلّف داخله جروحًا عميقة. حالة تشبه التشنج والشلل، خوف وكأنك رُميت في عمق بئر أو كهف، تعرُّق وتسارع في التنفس، ضخ كميات كبيرة من الدم في الشرايين، توقف القلب والرئة عن العمل لحظة، قبل أن تعود مضخة القلب إلى ضخ كميات كبيرة من الدم في الشرايين، رغبة في الصراخ، واللسان صخرة كبيرة. لقد كانت علاقته بعالم الكوابيس على أحسن حال، فلم تكن تفارقه طوال ليالٍ متتالية، وهذا العالم يقتل الكثير من الأشياء داخلنا، إذ إن الصرخة الصامتة التي تأبى الخروج، وتنتشر في الجسد كله، تترك أعطابًا داخلية من الصعب إصلاحها بعد ذلك.

لقد كان يعاني الكوابيس والتخيلات المريضة، ويرفض زيارة أي طبيب، فماذا ينتظر من امرأة مثلي؟ لا أدري كيف نتغير وتتغير الحياة بهذا الشكل؟ على كل حال، هذا الذي حدث. كان لديه خلل بيولوجي، يمنعه من التصرف بشكل طبيعي، رغم ذلك كان

سعيدًا وكأن هذا الشذوذ يمنحه حريّة أكبر، تحررًا، وإحساسًا عميقًا بالذات.

لماذا تزوجت، في حين أنه كان من الممكن أن أظل امرأة حرة؟

لم يهيّئني أحد في حياتي لمؤسسة اسمها الزواج، ولم يكن هدف حياتي تكوين أسرة والإنجاب، لأني لا أجد نفسي في هذه الأشياء. كنت أحب التعري، أستثار عندما أرى الرجال يلاحقونني، رغم أني عادية ولا أبذل جهودًا خارقة في الإغراء، لكن هذا هو الرجل، مهووس وجائع للجنس، في أي زمان وفي أي مكان ومع أي امرأة. فما الذي حدث؟ لقد أحببته لدرجة أني اشتهيت فعل أكبر الحماقات معه، أن نتقاسم حماقة اسمها الزواج، بعد أن استنفدت كل الحماقات الأخرى.

تساءلت كثيرًا قبل اتخاذ قراري بالزواج: ماذا يعني أن يكون الإنسان امرأة؟ وسألت كاظم غير مرة: هل تجدني امرأة؟ وكان ينظر إلي باستغراب، فاستطردت موضّحة: أقصد أكثر من مجرد امرأة، امرأة مستحيلة.

كان يقول لي: اذهبي يا دافني إلى الحمام، وافركي شعرك وفخذيك بالماء الساخن، وسيتدفق الدم في أوعيتك باشتهاء، عندئذ ستكونين امرأة منتخبة من أمنا الطبيعة. كان جوابه مضحكًا، إلا أنني أخذت به. فتحت الصنبور، ووقفت تحت الماء الساخن ورحت أفرك جسمي بالصابون، ليس سرًّا أني أهتم بجسدي مثل جندي نظافة، أحبه

لأنه الملتصق بي في كل الأوقات: العبثية، وشبه المنطقية. تخيلت جسدي يستحيل غيمة هاربة، لا يمكن إمساكها، أو غزالة شاردة في غابات كثيفة بعيدة عن البشر.

للأسف، لم يعد يرى بي سوى امرأة، لا تجيد غير تعرية نفسها، والاهتمام بجسدها والعزف على الكمان. لم يحاول أن يتجاوز، أن يتخطّى المظهر إلى العمق، لم يملك الجرأة الكافية ليخترق الروح الطيبة المتألمة داخلي.

استمرّت علاقتنا التي لم تكن طبيعية خمسة عشر عامًا، رغم أننا جهدنا نفسينا كي تبدو محتملة: أثناء النهار، نجلس في الشرفة لنحتسي القهوة، ونثرثر في أحاديث تافهة، أحيانًا في السياسة أو السّينما، أو عن النمور في أدغال إفريقيا. في الليل، نفعل الحب مع كثير من الشك والارتياب، كأنه واجب ليس أكثر، نشاهد التلفاز ونحن نأكل المكسرات. لا شيء جديداً، كان هناك حب في داخلي، لكنه ظل جامدًا، محافظًا على حجمه، فلم ينم أو يكبر.

بينما رحت أشغل نفسي بالعزف على الكمان، فأشارك في كل الحفلات التي تقيمها الطبقة المخملية في فلورنسا، إضافة إلى انشغالاتي كأم وربة منزل؛ فسيلينا كانت بحاجة إلى العناية لأنها نشأت في جو مشحون بالمشاكل والبرود. كان عليّ أن أعوّضها عن الحنان الأبوي الذي كانت تطلبه فلا تجده. هكذا، كنت أنسى نفسي ومتطلباتي النفسية والجسدية بالانهماك في العمل ومتطلبات الأمومة.

لم أكن أملك الجرأة لأخذ القرار، أن أغير حياتي، أخرج مما أنا فيه، وأعيش حياتي كما أرغب. كنت خائفة، لأني عشت طوال حياتي وحيدة وكاظم كان الوحيد من بين رجال العالم، الذي أحبني رغم كل المشاكل التي عانيت وما زلت أعانيها، وتقبلني بكل ذنوبي وأخطائي. ربما، كان هذا هو، شعوراً بالامتنان والمسؤولية تجاه رجل لم يقصر معي في شيء، في مرحلة من مراحل حياتي.

طالما قال لي بأنه يرفض ابتذال الجسد، لأنه خاص وحميم، وأنا متيقنة أنه قال ذلك لجمهوره من القرّاء. أقرأ ما يكتب بين الفينة والأخرى، إنه محترف أكاذيب، ربما لأن مهنته ككاتب روائي، تحتّم عليه اختلاق القصص، إضافة إلى حبكها بطريقة عبقرية لتبدو حقيقية.

قبل عامين تقريبًا، عندما كنا متزوجين، خرج كاظم في صباح أحد الأيام، بينما كنت مشغولة بتنظيف المنزل، وبالصدفة وجدت ملفًا على مكتبه مكتوب على غلافه بخط غامق (رجل واحد لأكثر من موت)، كانت مسوّدة لإحدى رواياته. جلست حوالى ساعة كاملة، وأنا أتصفحها. صدمت حين وجدت اسمي في الرواية، ومن خلال الفقرات التي تمكنت من قراءتها خلال هذا الوقت، اتضح لي أنه أقحمني في الرواية بإضافة تفاصيل وملامح غير حقيقية: خليط من الواقع والخيال. صحيح، كما سبق أن قلت، أحب الجنس مثل أي امرأة طبيعية، وربما لدي رغبة مستعرة بعض الشيء في التعري، لكن ليس كما وصفني في روايته: استعرائية حد الوقاحة، رغائبية بجنون، ممعنة في الشهوة.

وجدت مبالغات وأكاذيب، هوساً وخيالات جنسية مريضة، لا تنبثق إلا من رجل أخرق. عندما فاتحته في الموضوع، أنكر وحاول التهرب، قال لي: هناك مليون دافني في العالم، والكاتب يأخذ من حياته الشخصية وتجاربه، هذه دافني أخرى، لا تشبهك. إنها من صنع الخيال، كائن ورقي ليس أكثر.

بعد هذه الحادثة، وصلت معه إلى طريق مسدود، وبعد فترة قليلة حدث الطلاق وانفصلنا.

اليوم الرابع

أثار فضولي منذ اللحظة الأولى حين صادفني وأنا أعزف على الكمان، تجاهلته وكأنه غير موجود، لكنه لم يرحل واستمر في التحديق، شعرت أنه يعرّيني بعينيه، والغريب أنني لم أنزعج من اهتمامه بي. أستطيع أن أزعم أني أحببته في تلك الليلة، حينما خرجنا معًا من مطعم السكن الطلابي، لقد كان شخصًا عاديًا، بسيطًا، بريئًا كطفل، تحدثنا عن النجوم والقططة والرقص والعزف على الكمان. لم يكن كائنًا نادر الوجود، لكن تفكيره، أسلوبه في الحديث، حركات جسده المرحة، رائحته، ابتسامته، كلها كانت تشي برجل استثنائي. لأعترف بأنه ليس على قدر كبير من الوسامة، لكنه جذّاب وله حضور مجنون يدفع أي امرأة في الدنيا لأن تتعلق به وتقفز في سريره.

كان يقطّب حاجبيه، ويغدو وجهه حزينًا وقديمًا حين يتحدث عن بلده، عندئذ كنت أشعر أني وصلت إلى ضفاف جرحه، كان حديثه نزيفًا

حقيقيًا. كنت أعلم القليل عن الأمر، ما وصلني على وجه التحديد: العرب باعوا أرضهم لليهود، وهاجروا بإرادتهم. لم أكن أعلم أن عملية إبادة منظمة قد حدثت للفلسطينيين.

وفي أحد الأيام، عندما شدّني إلى حضنه ونحن نتمشّى في الغابة، شعرت أني جزء منه، وخفت أن ينزعني فيما بعد، همست في أذنه: لا تتركني، سأموت، هل فهمت؟ كان حضنه لذيذًا ودافئًا، كان حضنه الكون بأكمله، قال لي: أنت روحي، كيف يتخلّى الإنسان عن روحه؟ وسقطت من عينيّ دمعتان حارتان على كتفه. عبارته لم تكن أكثر من وعد، تحوّلت فيما بعد إلى ذكرى مؤلمة. كان يجب علينا أن نتزوج، أن نخرج من دائرة غرام الطلبة، إلى عالم نؤسسه بالحب والحياة المشتركة، لكنه ويا للأسف، تغير بعد الزواج وأصبح إنسانًا آخر. الأصح أن أقول إننا تغيرنا معًا، ثمة شيء لا نعرف ماهيته انكسر في دواخلنا، قال لي بالحرف الواحد: لقد خدعتني، وزواجنا كان خطأً فادحًا لن أسامح نفسي عليه.

كان يريد أن يظل وحيدًا، علاقاته أكثر خفة، بعيدة عن الواجب والالتزام، ليس لديه أدنى شعور بالمسؤولية، كل حياته تتمحور حول الكتابة، حتى يخيّل إلى المرء أنه ليس حقيقيًا من لحم ودم، وإنما كائن مصنوع من أوهام، مخلوق ورقي، يحترق بسرعة ويتحول إلى رماد، ثم لا شيء.

الشباب، أمسيات العزف على الكمان، السكن الطلابي، التسكع

في شوارع فلورنسا بعد منتصف الليل، حفلات الرقص والشرب، كل هذه الذكريات تتحول إلى أدوات حادّة تقطّع داخلي أجزاء صغيرة. أتذكر تلك الليلة حين قفزت في حضنه لأني كنت موجوعة، مخنوقة، والدموع في عيني، كنت أراني ابنته، أنظر إليه كأنه والدي الذي لم أره سوى في ألبوم الصور، قلت له: أشتهي أن تترك ماءك في داخلي، أشتهي طفلة تشبهك. مسّد شعري، ومرّر أنامله على خدي وعنقي، ثم سحب قلم الحبر الأسود عن الطاولة التي أمامنا، وكتب على ساعدي: أحبك، لكني لا أريد منك أطفالاً. لقد جرحني، كانت كلماته قاسية، وكرهته بعد ذلك. كيف بوسع امرأة أن تحافظ على حبها تجاه رجل كهذا!

تعلّقت به مثلما يتعلق المريض بحبة دواء، وكما يتعلق الغريق بقشة، وكما يتعلق الخاسر بأي احتمال ضئيل بالربح، ولم أجد بعدها سوى الألم والدموع والخيبات، كنت أنزف في كل يوم أعاني فيه البرود واللامبالاة، بينما كان مشغولًا برواياته ومعجباته، وطالما سألت نفسي: لماذا هو يا دافني؟ إنّك لستِ سوى أنثى يمارس عليك ألاعيبه الروائية، خطف الكمان من حضنك، ومارس عليك سطوته باسم الحب. سأكفر بدين الحب في سبيل كرامتي، لا أريد لهذا التعلُّق المرضي أن يستمر، لا أريد أن أكون فقط متعته، لعبته، وشخصية في إحدى رواياته لا حول لها ولا قوة. يجب أن أعود أنا، ذاتي، دافني التي كنتها قبل أن أتعرّف إليه، لن أسمح له أن يعلن انتصاره على امرأة مهزومة، كان قلبها الطيب سبب خساراتها.

بعد ليل فلورنسي طويل، عدنا إلى غرفتي في السكن الجامعي، وكلانا يمسك بيد الآخر، ونتبادل العناق والقبل. بعد أن تجاوزنا الباب، اقترب بهدوء نحو وجهي، لمس خدي الأيمن براحة يده، وأطبق بشفتيه على شفتي، ظننت أنها قبلة لا نهاية لها. تنفسته زفرةً زفرة، غيمة غيمة، وحلمت أن أفنى فيه، كان في الجسد جوع وعطش وحفلة موسيقية صاخبة، سحبني من يدي لنكمل حفلة جنوننا. عزفت على أوتار جنونه، وخيّل إلي أنه كماني الذي أحبه، فرحت أعطيه وأمنحه كل ما بي، انفجرت بالبكاء وأنا بين يديه، كان جنسًا لاذعًا ولذيذًا حد البكاء.

لم تكن ليلة عابرة، بل بطاقة عبور مجانية نحو أعماقي، لقد سلّمت له مفاتيح مدينتي، ونصبته عليها ملكًا.

اليوم الخامس

ما معنى أن تعيش امرأة زواجًا تعيسًا؟

لقد حاولت أن أنقذ زواجنا، خصوصاً أن لدينا ابنة في الثانية عشرة من عمرها، لكني في الوقت نفسه كنت أبحث عن الحب باستماتة في كل مكان. أنا امرأة، كائن بحاجة إلى الحب والاهتمام وحضن دافئ، لذلك لم أتلقّف أول رجل يلتفت نحوي، انتظرت أن يأتي الرجل الذي أتمناه، هكذا، عين إلى الأمام نحو الحبيب المنتظر، وعين إلى الخلف نحو الزوج البائس.

هل كان حبًا من أول نظرة؟ عندما رأيت ليوناردو لدى أحد المعارض التشكيلية في فلورنسا، ارتبكت، واحمرّ وجهي، شعرت بأن

قلبي سيقفز من مكانه. هل تصرّفت كمراهقة؟ كأني فتاة في التاسعة عشرة، بينما أنا امرأة ناضجة عاشت الكثير، في الخامسة والثلاثين من عمرها. كنت أنظر إليه خلسة، وجدته هادئًا، أنيقًا، وقريبًا من القلب، كأننا متعارفان منذ زمن طويل. لقد أرجعني هذا الرجل إلى أيام مراهقتي، وهذا بالضبط ما كنت أبحث عنه كامرأة تشعر بالضجر إزاء كل ما حولها، ولما تحدثنا تلعثمت، لم أستطع أن أركّب جملة واحدة. كان كاظم مشغولًا في الحديث مع أحد أصدقائه، يبدو أن ليوناردو وجدها فرصة مناسبة، ليقول لي بالحرف الواحد، من دون مقدمات: يجب أن تخلعي عنك كل همومك وضجرك، وتلتفتي إلى أفراح الحياة، ثمة ما يستحق أن يُعاش يا دافني.

كيف عرف أني تعيسة في حياتي؟ هل يبدو على وجهي؟ كنت أود أن أصرخ أمامه: نعم، أنا امرأة تعيسة، تكره حياتها. أن أعلن للعالم بأكمله بأنني أريد أن أتخطى هذه الحدود، أن أصبح كائنًا آخر ينبض بالحب والحياة. كان الحزن أقصر الطرق إلى قلبي، شعرت بأنني مكشوفة أمامه، ولم يعد بيننا أي تحفُّظ. اتفقنا أن يأخذني في سيارته عصر اليوم التالي، للتنزّه في إحدى الحدائق الفلورنسية، لم أرفض، وجدتني منقادة له، كأي طفلة ضائعة، لا أمل لها إلا بهذا الرجل، لكي ترجع إلى حياتها وفرحها.

وجدتني على الضفة الأخرى، وفي القلب خوف من ضياع الزوج، وأمل في رجل أعيش معه بقية أيامي في سعادة. أعلنت له قلقي لأني

امرأة متزوجة، فرأيت الحزن على وجهه، لكني شعرت بأنه يشتهيني، يشتهي امرأة متزوجة تعيسة، لقد كانت تجذبه هذه المرأة: المتزوجة التعيسة. كان قبطان السفينة وسط أمواج عاتية، وقلت له بصراحة: أنت قبطاني.

لقد كان يفهمني دون أن أتكلم، يرى الخيبة والألم والحرمان على قسمات وجهي، وإزاء ذلك كان يحاول أن يضحكني، لا يسألني، بل يتكلم ويتكلم ليرى الابتسامة على وجهي، وشعرت أني امرأة مرغوب فيها، ووجدتني أتشبث بعنقه كطفلة. كنت أشعر بالخجل وأنا برفقته، لأنني كنت أتذكر زوجي وابنتي، وهذا الخجل كان لذيذًا لدرجة أني اشتهيت أن أخون، أخون زوجي وحياتي السابقة.

منذ ذلك اللقاء، تغيّرت كل الأشياء في داخلي، أعدت ترتيبها، والعمر الذي توقف سنوات أخذ فجأة بالتحرّك كتيار مجنون، له معنى، نحو متعة وفرح خالصين. انتزعني هذا الرجل من حياتي البائسة، وغمرني بالرعاية والاهتمام، كنت امرأته التي حرّرها من كآبة الأيام التي تكرر نفسها.

(٦)

ما زال مطعم bella محافظًا على أجوائه الهادئة. تنبعث من السماعات المثبّتة في الزوايا، أغنية «italiano vero». لا ضجيج، أو أحاديث مزعجة، كما أن عدد الزبائن أخذ بالتناقص، ما يشير إلى أن الليل في عمقه.

قال ليوناردو: «أنتما تتعرضان للصدمات النفسية، صرخاتكما مكتومة، ونزيفكما ليس مرئيًا، إن داخلكما ينهار. أعرف أنك لست روحانيًا، وإنما لديك شغف بما تعشقه الحواس: البشرة الناعمة، العطر، طعم القبلة. بيد أنّ وجعك في الروح، وليس في الجسد».

ـ ما الروح؟ إنها شيء مجهول وغامض. من هنا، تتأتّى كل هذه الأساطير والحكايات حولها، لأن العقل البشري لم يستطع معرفة ماهيّتها، واستجلاء أسرارها. الروح بالنسبة إلي، هي دافني، إنها تعيش بداخلي، أتألم لألمها، وأعاني لمعاناتها.

قطّب ليوناردو وجهه.

ـ ولماذا لا تريحها؟ إنها تتعذّب من أجلك.

وأجيبه بالصّمت.

ـ دعني أخبرك شيئًا. يهمني أن تصلح علاقتك بها. إنها مصلحة ذاتية قبل أن يكون من أجلكما. إنني أشعر بالذنب، إذ شاركت بصورة أو بأخرى في حدوث هذا الفراق، لقد كانت أموركما متأزّمة وزدت الخراب حين دخلت حياتكما. إنها تراكمات سنوات طويلة من الكبت والخوف، ولا أحد يدري كيف ستكون النهاية. الأمر مخيف، ودواخلكما شبه مدمّرة، عليكما علاج هذه التصدُّعات الداخلية قبل فوات الأوان.

ـ لقد فات الأوان، لم تعد في داخلي رغبة في العيش.

ـ كيف؟ إنك تضحك، وتبكي، وتصرخ، هذا يعني أن بكَ حياة.

ـ إنّ ثمة أشياء تموت فينا. حين تتوقف عن الشعور بالدهشة وتخفت رغبتك في الاكتشاف وعيش الحياة كمغامرة، هذا يعني أنك ذاهب إلى النهاية، الهاوية ولا شيء آخر، حيث الموت والفناء.

ـ هذا كلام مخيف.

وضع ليوناردو إصبعه فوق جبينه، ونظر إلي باستغراب.

ـ أنت كائن ماضوي.

ـ ماضوي؟ مفردة جذّابة.

ـ ومشحونة بالكثير من الدلالات.

ـ هل تريد الحقيقة وإن كانت جارحة ومؤلمة؟

ـ نعم. هيّا، تحدّث.

ـ أنت دودة تتغذّى بالألم، لأنها المادة الخام التي تحتاج إليها في الكتابة. كما أنك كائن مؤثث بالماضي، أو دعني أقول، إنك ماضٍ بهيئة إنسان. لم تحاول قط الخروج والتحرر من هذا السجن. أعرف أنه أمر صعب، وذكريات الحرب والطفولة القاسية تمدُّ أذرعها الطويلة إليك، وتعيث فسادًا بحياتك، ولكن...

ـ ولكن، ماذا؟ أنت تعرف كل هذه الأشياء. أنا مريض بكل الأشياء التي حولي: فنجان القهوة الذي بين يدي، الكتب التي أشتهي لمسها وشمّها، المطر ووجوه الفتيات الحزينات، مثل وجه هذه النادلة، انظر إليها.

والتفت.

ـ الحزن، إنه أوركسترا متناسقة، لا يوجد نشاز واحد، واللافوضى تصيبك بالجنون. من هنا، انبثقت هذه الرغبة في التشويه قبل إعادة الخلق. أن تكسّر الأشياء في الكتب، لتعيد رتقها كما تشتهي. إنه رفض لما تراه، لأن العالم ببساطة ليس كما يبدو عليه، والحقيقة تتوارى خلف أقنعة زائفة، وأنت بحاجة للإبداع كي تُعرّي وتكشف. أما الحياة، فإنها شيء آخر، إننا نعيشها كما تريدنا أن نعيشها، قد تشتهينا مجانين أو عقلاء، فيأتي العالم والشاعر والفيلسوف.

ـ نحن أبناء الحياة.

ـ نعم، أبناء غير شرعيين، لأم واحدة، وألف أب سافل: الماضي، والوهم، والخوف. أنظر ... أنظر.

ومددت له يدين مرتعشتين: الخوف في المفاصل، في الركبتين، في عيون الأطفال والأرامل. ماذا تعرف؟ ها. من لم يدخل مبنى المخابرات، لم يعرف الخوف في حياته. هل أكلت الخبز اليابس مع ماء قذر، بينما ينخر البرد عظامك؟ هل تعرف ما معنى أن تطرد من المدرسة لأن رائحتك تشبه رائحة الحيوانات؟ هل شاهدت عمليات الاعتقال وحفلات التعذيب والشنق الميداني؟

ـ أعرف شيئًا واحدًا فقط. أنت كائن غير مرحّب بك، لذلك تحارب تاريخ أجدادك وشرق الروحانيات والأساطير، حيث يخوض الشيطان حربًا لا هوادة فيها مع الله.

ـ الإنسان معقّد، وغريب حتى عن نفسه.

ـ ما هذا التجديف بحق البشريّة؟

ـ إنها الحقيقة الجارحة: لا أحد يشبه نفسه. والمرآة أخبث فكرة اخترعها الإنسان، لقد موّهت وخدعت وحرَفت زاوية الرؤية.

ـ صحيح. في كل يوم نكتشف كم أننا غرباء عن أنفسنا.

ـ حتى أنت تغيّرت، وأصبحت غريبًا عن نفسك.

ـ أنا؟ أنت لم تعد الصديق الذي عرفته.

ـ منذ عرفتَ دافني، انقلبت حياتنا.

ـ الآن، اترك هذه المرأة جانبًا، أنت تعرف السبب الحقيقي، لقد دارت حياتك حول الكتابة.

ـ الأمر ليس كذلك. الكتابة هي محاولة للإفلات من الموت بكل أشكاله: الروتين اليومي، التوقف عن الدهشة، عدم أخذ الحياة كمغامرة. ثمّة أشياء تموت فينا. أنا تعِب جدًا، الكتابة بمثابة الملجأ والمهرب من كل الكلاب الضالة التي تلاحقني: الماضي بما يحمله من استبداد وتخلُّف وعنف.

قام بخلع جاكيته ووضعه على ذراع الكرسي. فرك وجهه بكلتا يديه. حدّق برهة نحو الخارج. وكأنه تذكّر شيئًا، فتح فمه ثم أغلقه، ولاذ بالصمت.

ـ ماذا أردت أن تقول؟

ـ يجب أن تكون لديك روح معنويّة عالية، هل تفهمني؟ رغبة في الحياة، أمل في الغد، وإلا ستدمن تعاطي الكحول والمخدرات، لأنك

بدأت فعلاً بتعاطي بعض الأدوية، التي تسبب لك هلوسات وتخيُّلات غريبة.

ـ أعرف.

ـ ماذا ستفعل؟ هل ستقضي حياتك تكتب الروايات؟

أشعلت سيجارة، وقلت له بلامبالاة:

ـ نعم.

ـ ماذا ستفعل بشأن زوجتك وابنتك؟

ـ لا شيء.

ـ أخاف عليك أن تموت من الأسى والألم. المشكلة أنك تبكي من دون دموع، لو أنك تذرف دموع الخيبة لترتاح.

ـ جرّبنا أن نعيش معاً في شقتي، أسبوعاً واحداً. لكننا فشلنا ولم نستطع أن نتكيّف من جديد. يبدو أن الحب العظيم حين ينتهي ليس بوسعه أن يعود مجددًا. لا يمكن أن تتحول علاقة الحب إلى علاقة صداقة طيبة، في أي حال من الأحوال. عندما لا تعود المرأة تشعر بالأمان معك، فتخافك، وتشعر بأنها كيان مهدد وفي خطر، هذا يشي بالنهاية. النهاية القاسية والمؤلمة.

ـ وما الحل؟ إما أن تواصل الحياة، فحياة الرجل لا تتوقف على امرأة واحدة، يبدو أن علاقتكما ماتت، وإعادة بعثها أصبحت من المستحيلات. الحقيقة الآن، دافني بمثابة الموت بالنسبة إليك. تذكر أنك تعيش في بلد أوروبي، حيث يمكنك أن تعيش مع امرأة خارج إطار الزواج.

ـ نعم، لقد كان لدي بعض الأمل. كنت متفائلًا، خصوصاً حينما التقينا بعد الفراق، وتحدّثنا. ظننا أن الأمور أكثر سهولة، لكننا اكتشفنا بأنها مستعصية. اسمع، لا أريد الحب أو الزواج، لا أريد أي شيء.

ـ يبدو أن هذه هي الحياة يا صديقي. إنها تأتي هكذا وتذهب دون تقديم تفسيرات. التقيتما وتزوّجتما ثم افترقتما، لو نظرت إلى الأمر من زاوية أخرى، لوجدت الأمر عاديًّا وطبيعيًّا للغاية. الناس تلتقي وتفترق، لكن أن تحمل الحزن في قلبك طوال حياتك، فهذا الذي ليس طبيعيًّا.

ازداد منسوب التوتُّر في جسدي، فأشعلت سيجارة جديدة.

ـ دافني ليست مثل بقية النساء. إنها تمتص دمك، وتترك آثار نظراتها ولمساتها في جلدك. تأكل قلبك حتى تترك خرابًا بعدها، وتصبح كائنًا عديم القيمة سواء في الحب أو الحياة. هي الموت، إنها أكثر من امرأة تمر بحياتك ولا تترك أثرًا، إنها من ذلك النوع من النساء اللواتي إما أن يحولن حياتك إلى جنة وإما إلى جحيم.

ـ إذا أردنا أن نجمل الأسباب التي أدت بعلاقتكما إلى هذه النتيجة المأسوية. طبعًا أتحفظ عن الكلمة الأخيرة، لأن حالات الطلاق في العالم تكاد تكون أكثر من حالات الزواج الناجحة ...

قاطعته قبل أن يكمل فكرته: لا، قصتي مع دافني مختلفة. إنه حب عظيم، يتجاوز الزواج، والأولاد، والحواجز والصعوبات. إنها أكثر من مجرد علاقة عابرة، أو زواج روتيني فاشل. الأسباب كثيرة: لم نستطع أن نتخلّص من الماضي، كذلك الكذب في علاقتنا، والنزوع

نحو فكرة الخلود، الكتابة: دعني أكون أكثر صراحة، الرواية بالنسبة إلي، أكثر أهمية من علاقة حب مع امرأة جميلة وساحرة مثلها. حتى لو كان مصيري الموت أو الجنون. والسبب الرئيس هو أنها خانتني معك.

قال بينما أخذ الإرهاق، ينهش وجهه: حسنًا، يبدو أن هذا هو الموت الذي رأيته في أحلامي. إنه ليس موتًا واحدًا سهل المنال، بل موت تدريجي سيأكل من أعصابك ودمك حتى آخر ثانية في عمرك. هذا هو الموت الذي رأيته:

كنت محمولاً فوق كتاب وكأنه بساط سحري، لكنه أطبق عليك وراح يضغط على جسمك. صرخت طويلاً ولم ينجدك أحد، ثم اختفيت واختفى صوتك.

ستموت اختناقًا بالحبر والأوراق، لأن لديك هذا الهوس بالخلود، والكتابة حتى آخر قطرة دم. أناني، لا تفكر إلا في نفسك، اذهب ومُت بعيدًا عنّي، بهدوء.

أخذ جسدي بالارتجاف، وسرت النار في عروقي. أمسكت به من عنقه، وأطبقت عليه بيدي. كنت غاضبًا، والدم يغلي في رأسي: لست مجنونًا، أنت كاذب وخائن كبير. لقد اعتبرتك صديقي. أنت مثل إسماعيل في روايتي التي اشتغلت عليها، خدع صديق طفولته وسرق حبيبته من بين يديه، وهرب بها بعيدًا إلى الحزن والموت. لقد سرقت دافني وفرّقت بيننا، دمّرت حياتنا، أيها القذر. هذا هو الحلم؟ حلمك في أن تخطفها، وينتهي بي المطاف إلى الموت أو الجنون.

حققت مُرادك؟ ها أجبني؟ لقد قرأت يومياتها، لقد خانتني معك، كنتما تتلاعبان بي.

ـ اتركني، أنت مجنون.

ـ أتظن أني أخاف الموت، إنه ليس مأساة العالم كما تتصور.

اندفع نحونا روّاد المطعم، وطردوني منه. وجدتني على الرصيف وحيدًا ومهزومًا.

هربت من المارّة، وقعت، قمت، تعثّرت، بكيت، صرخت، لعنت.

ركضت في الشوارع، هرولت حتى وصلت إلى محطة «سانتا ماريا نوفيلا» وهناك خطرت لي فكرة الموت تحت أحد القطارات، فلينتشر الدم وليصبغ السكك الحديدية والحجارة. رأيت الأسئلة تتشكل أمامي. ما هو الوطن؟ الحب؟ الانتقام؟ الصداقة؟

الأسئلة المستعصية على الفهم، تلك التي نكتمها في داخلنا، تنفجر على شكل تصرفات غريبة، تزيد الوضع سوءًا وتعقيدًا. هل كان علي البقاء في الوطن رغم كل الظروف وعدم الرحيل؟ هل كنت أنانيًا في اختياراتي أم من حق الإنسان أن يعيش حياة أفضل في أي مكان يريده؟ هل الوطن حقيقي أم تصوّر نحمله في داخلنا؟

شعرت بأني ضحية في لعبة كبيرة. نمتُ طوال الليل على أبواب المحطة، عندما طلع النهار وجدت نفسي متمددًا بين عشرات المشردين، الذين افترشوا الأرض والتحفوا بالأغطية المهترئة وأوراق الكرتون. ضائع، لا بد وأني مصاب بعقدة نفسية. تذكرت أيام طفولتي،

حينما كنت أرى أشياء لا يراها الآخرون، كالقطة السوداء التي أضاءت غرفتي بعينيها، والعصفورة التي سرقت كنزتي الصوفية، والقمر الذي كان يمد يده إلى الجبال، كنتُ معذبًا بهواجسي.

هِمتُ على وجهي. فكرت لوهلة: ماذا تريد؟ أترغب في تدمير حياتك، وحياة الآخرين؟ كنت أنظر إلى البشر كأنهم غير موجودين، لا أدري كيف أفسّر الحالة النفسية التي اعترتني. فكّرت في الانتحار. إرهاق، تشتت، تمزق، شعور بالعبثيّة واللاجدوى. فرِحت عندما تذكرت أن العظماء حاولوا الانتحار كنابليون. في النهاية أنا رقم، عدم، غير موجود، سأُنسى كأي كَلب عاش على الأرض ومات، الموت يُنسى، وتبقى الملكية... المال... الأرض.

شعرت أني في الأشواط الإضافية من حياتي. طالما كان عالمي يهدم نفسه بنفسه، ثم يعيد تشييد نفسه من جديد. كل الأشياء تتغير، إلا أنا أظلُّ نزفًا ثابتًا، اعتدت الوحدة ورحيل الآخرين، سواء من أحب أو أكره. إنهم يأتون، ثم يذهبون وأبقى لجراحي، لذلك لا أخاف الخسارة، لأني لم أربح أحدًا.

كانت حياتي هشّة للغاية، وقابلة للانكسار.

(٧)

لم يمر أسبوع واحد على لقائي ليوناردو، حتى بدأ جسدي يذوي وينهار. فقدت من وزني، وجفت بشرتي، وبدأ شعري بالتساقط.

شعرت بأن قلبي سيقفز من مكانه، كان نبضه متسارعًا، تدفق الدم بقوة في شراييني، فخيّل إلي أنها ستنفجر. بالكاد، استطعت الوصول إلى هاتفي، وطلبت مساعدة أحد أصدقائي القدامى في كلية الطب.

قال لي مريانو: مشكلتك نفسية قبل أن تكون جسدية.

أجبته بنبرة باردة تشي باللامبالاة.

ـ أعرف ذلك، هل نسيت أنني كنت طبيبًا كذلك؟

قال وهو يحدق إلي بنظرات حادّة، بعد أن نزع نظارته.

ـ توقف عن تعاطي المهدئات والمخدرات يا أحمق. ستموت إن بقيت على هذا الحال. اذهب إلى أقرب صيدلية وأحضر «ديبالكين» إنه مضاد للوسواس القهري، والاكتئاب، واضطرابات الهلع، سيثبّت مزاجك ويوقف تدهورك موقتًا، أنت طبيب وتعرف ذلك، لكن الأهم أن تقوم بزيارة طبيب نفسي.

وأضاف:

ـ إن جسدك المسكين ضحيّة عقلك، وعقلك ضحية أوهامك، عليك أن تأخذ فترة نقاهة، لا تكتب حتى تسترد عافيتك، أقلّه سنة واحدة.

فغرت فمي من الدهشة. كيف بوسعي أن أعيش دون كتابة؟ الكتابة هي رهان، لكنها أيضًا علامة على أني ما زلت حيًّا في مكان ما.

ـ أتعرف؟ أعتقد أن ما أصابني بسبب الخوف، إنه معضلة حقيقية، موغلة في القدم، ومستعصية على الحل، عمرها قرون طويلة.

ـ لا أفهمك، هل يمكن أن تتحدث بصورة أوضح؟

ـ الكاتب يتنفس أدبًا، إنه نمط حياة باذخ بالطموح والرغبة في أن يكون.

ـ أنت إنسان رأسه مثقل بأفكار غير مهمة. جسدك يذهب نحو الموت بخطى واثقة، وعقلك يتغذى به ويزدهر على حسابه. إن الروايات التي تكتبها تقتات بداخلك، وهذا أمر خطير. كل ما عليك فعله هو التوقف، أن تملك الإرادة لوقف هذا النزف.

ـ مستحيل. العالم لا يتوقف عن إعادة إنتاج نفسه، تشعر أن روحه معجونة من ضجر ورتابة، إلا في فن الموت، فإنه يبتكر في كل يوم أساليب جديدة، والحل الوحيد للإفلات من الرتابة هو القدرة على روي الحكايات في الكتب. أن تكون لك حكايتك الخاصة، هذا معناه أنك موجود، لأنها أداة مهمة لفهم العالم.

ـ الكلام معك طويل ولن يتوقف. على كل حال، أنا أرغب في لقائك في الخارج، ما رأيك أن نتناول العشاء معًا؟ أعرف مطعمًا هادئًا يقدم وجبات خفيفة، قطعة لحم مشوية مع سلطات.

أخذت حمامًا وحلقت ذقني، جلست إلى طاولة المطبخ وتناولت مشروبًا باردًا. فتحت التلفزيون على القناة الوثائقية، كان برنامجًا حول أسماك القرش في السواحل الأميركية، ثم نمت على أريكة الصالون حتى المساء. رن الهاتف، فنهضت عن الأريكة وذهبت نحوه.

كان الطبيب: أنا قادم.

ـ حسنًا، أحتاج إلى ربع ساعة فقط، ارتد ملابسك وتجهّز للخروج.

ارتديت قميصًا أسود، وبنطالاً من الجينز وانتعلت حذاء رياضياً. بعد ربع ساعة، رن الهاتف. كانت سيارته حديثة، نظيفة من الداخل، كأنه اشتراها تواً. انتبه إلى نظراتي، فسألني: هل أحببتها.

«نعم، إنها ليست سيئة».

«مم حسنًا، شكرًا على كل حال».

قال دون أن يلتفت إلي: لا أريد التدخل في شؤونك الشخصية، إلا أنني أرى بك شيئًا غريبًا، لم أقابل شخصًا مثلك من قبل. قلت له: لقد سمعتها كثيرًا حتى لم تعد تزعجني «غريب الأطوار».

ـ سمعت بطلاقكما. لقد كنتما ثنائيًا مميزًا، لماذا تركتها؟

ـ لا، هي من تركتني.

ـ كيف حدث ذلك؟

ـ حدث مثل كل الأشياء التي تحدث في هذا العالم، دون تقديم شروحات أو توضيحات. ربما لم نكن مناسبين منذ البداية، لكننا رغبنا في المغامرة وتجريب شيء جديد اسمه الزواج، لقد وصلنا في علاقتنا إلى درجة السأم حتى التورط، ثم أنجبنا طفلة، فتورطنا أكثر.

قال وهو يبتسم: يبدو أن حياتك مشوّقة، وفيها الكثير من الحكايات.

ـ لا إنها عادية، تكاد تكون مملة.

عندما دخلنا المطعم، قدم أحد الموظفين لتحيتنا. اخترنا طاولة تقع في الركن الأخير، ثم جاء النادل وأخذ طلبنا: قطعة لحم عجل مشوية وسلطات، وكأسين من الويسكي.

فكرت بصوتٍ عالٍ قائلًا: أود أن يكون هذا اللقاء الأخير بيننا، أنا من ذلك النوع الذي لا يحب أن يعرف عنه الآخرون، هكذا أن يظل بعيدًا عن العيون المتلصِّصة، رغم أنك صديق قديم، لكن رجاء أن تحترم رغبتي.

ـ لا مشكلة لدي، لكني أطلب بتعويض ما، أقلّه أن تبوح أكثر في هذا اللقاء ثم يكون ما تريد، أخبرني عن طفولتك.

لم يكن طويلًا ووسيمًا، بل قصير القامة، ضخم الجسم، واسع الصدر، عريض الجبهة، وشعره قد خطّه الشيب.

أجبته: حسنًا، ربما لم أحدثك يومًا عن طفولتي، كنت انطوائيًّا، أحب الوحدة، وهذا لم يكن أمرًا مقبولًا في مجتمع لديه مشكلة مع الاختلاف. يريدك أن تكون واحدًا من الكيان الاجتماعي، تتخلّى عن رغباتك وأحلامك الشخصية في سبيل الرغبة والمصلحة العامة، الحلم الجمعي. لم أحب المدرسة، وجدتها نظامًا غبيًّا وبائسًا، يُنتج لنا حمقى لا يأبهون إلا للحصول على الدرجات العالية، لا تجارب أو خيال أو طرائق مبتكرة في العيش، فقط أنظمة صارمة تفرض عليك بالإكراه، وواجبات منزلية كثيرة، لا تترك لك الوقت لاكتشاف العالم عبر التجربة الحرّة. كنت أرغب في التمرد وتكسير ما حولي من قيود

اجتماعية، لكني لم أعرف كيف، لقد كنت أضعف بكثير، لذلك انطويت على نفسي، وأثّثت عالمي بالكتابة والقراءة. قلت لنفسي، عندما أكبر سوف تتغير نظرتي إلى العالم، وسأدخل في مرحلة من التصالح مع الأشياء، لكن الأمور ازدادت صعوبة، لأنني أصبحت أعاني تراكمات وذكريات تركت ندوبها في داخلي.

ـ أنا أيضًا، كبرت في ظل أنظمة عائلية صارمة، وأجدني مديناً لها. لقد تعلمت النظام والانضباط، ودفعتني إلى القيام بأشياء مفيدة للمجتمع. إني أعالج المرضى وأنقذ حيوات الناس، لذا بصفتي طبيباً أختلف معك لدرجة كبيرة. أحيانًا، تنتابني هذه الرغبة في التمرد وتدمير كل شيء منتظم، مرتّب، أشعر أنها مُريبة، تحمل الكثير من النفاق والزيف. على كل حال، أظن أن النظام أفضل من الفوضى.

أشعلنا سيجارتين، فارتفعت سحب الدخان إلى أعلى. قال الطبيب: قلت لي في المرة السابقة، إنك تعاني الخوف.

ـ أوه، هذا أمر مفروغ منه. لقد شربت الخوف مع حليب أمي. إن العالم يزرع فينا الخوف منذ الطفولة حتى لا نفكر في مواجهته، الخوف من الله والجحيم، الخوف من غضب الأجداد والمجتمع، الخوف من الفرح والفقد والحلم. خوف ليس له شكلٌ محدّد، أقصد لا شكل له. صعب أن أوضّح لك ما هو، إلا أنه يشعرك بالعجز وعدم القدرة على فعل أي شيء ذي جدوى، هل نجحت في إيصال الفكرة؟

رفع مريانو حاجبيه، وراح ينظر إلي باستغراب.

ـ كانت زوجتك محقّة حين هجرتك، لقد اتخذت القرار الصائب. لا أدري كيف أحبّتك!

ـ نحن لا ندري لماذا نحب، بالضبط مثلما لا ندري ما الذي نفعله في حياة لا ننتمي إليها، نعيش فيها غرباء.

هزّ رأسه، كأنه يقول لي لا جدوى من الحديث معك. وأضفت: الأشياء في بداياتها يكون لها نكهتها الخاصة، مختلفة نوعًا ما، كل شيء يبدو لك رائعًا حتى الأحزان والمآسي. الكلمات تشعر بها حين تنطقها ذات معنى، ثم بمرور الوقت تبدأ الأشياء تفقد دهشتها الأولى، تصبح عاديّة ومبتذلة بطريقة مؤذية، وتتعقد بعد أن كانت بسيطة.

قال: أنت لست طبيعيًا، لم تكن كذلك.

قلت: لقد كان العالم بسيطًا، غير معقّد، والأشياء فيه مترابطة. كنت تعلم ماذا تفعل وماذا تريد وإلى أين تذهب، أما الآن، فإننا نعيش في نظام لا يريدنا أن نعرف أو نفهم، فقط ينبغي لنا أن ننفذ الأوامر، أن نستهلك، ونكون أشخاصًا مستنزَفين، طائعين في مجتمع رأسمالي.

ـ الإنسان يفعل ما يجب عليه فعله. بالأمس، كان عليك أن تزرع الفجل والبقدونس والنعناع في أرض الحديقة، بينما اليوم عليك تسديد فواتير الكهرباء والذهاب إلى السوبرماركت وشراء الخضروات من هناك. إنها حرب من أجل البقاء، إلا أن أسلحتك تختلف باختلاف «الزمكان» الذي تعيشه.

قلت له بنبرة هادئة: على كل حال، لديّ عالمي الخاص.

ـ عالم خاص عشوائي، يفيض بأشياء لا لزوم لها، إنه نظام قابل للعطب في أي لحظة. يا إلهي، أشعر أني أصبت بالعدوى، تحدثت بأشياء غير مفهومة. لماذا أنت غرائبي هكذا؟

ـ لأنه هكذا.

ـ اسمع، لا تفكر كثيرًا، عِش حياتك بطريقة جيدة، مارس الجنس والرياضة، تناول الأطعمة الصحية، وليذهب هذا العالم إلى الجحيم.

ـ كيف يذهب إلى الجحيم ونحن نعيش فيه؟

ـ الإنسان المعاصر يعيش في عالم معقد، لذا لديه هذه النظرة السلبية إزاء الأشياء. يشعر أنه يؤدي دورًا في لعبة أكبر منه اسمها الفراغ.

ـ أين الحل؟

ـ الحل في أن تضيف معنى إلى حياتك، من خلال القيام بالأشياء التي تحبها. رغم أن إنسان هذا العصر، الذي ينطلق مثل قطار سريع إلى محطته الأخيرة، مجنون يعيش في فراغ كبير، إلا أنه أكثر انتباهًا للتفاصيل والأشياء الصغيرة من أي وقت مضى.

قلت له: الإنسان حادث اعتباطي، في عالم اعتباطي، يعاني الضجر والمرض والارتباكات النفسية وفقدان القدرة على الحياة، والحقيقة الوحيدة في الموت.

عندما وصلت إلى البيت، نمت مدّة ساعتين، واستيقظت في منتصف الليل. قمت بتشغيل أسطوانة موسيقية، وبدأت قراءة رواية «آنا كرنينا» لتولستوي للمرة الثالثة. كنت جائعًا لقراءة الروايات الروسية

الضخمة. طالما شدتني العبارة الأخيرة التي أتت على لسان البطلة، قبل أن ترمي بنفسها تحت عجلات القطار: «لا يوجد سوى نوع واحد من العائلات السعيدة، لكن ليس هناك عائلة حزينة تشبه الأخرى».

كنت في كل قراءة أكتشف فيها شيئًا جديدًا، وجدتها مبنية على طبقات، عوالم داخل عوالم، وكلما توغلت في القراءة اندهشت أكثر. رواية حبلى بالأسرار والغموض الفلسفي، غنية بدهاليز النفس البشرية وخباياها. تجاوز تولستوي نفسه في هذه الرواية، وما أجمل أن يتخطى الإنسان ذاته، وعوالمه وحدوده، ليسبح في آفاق جديدة. إنها نزهة تسير فيها إلى جانب الشخصيات، تدور حولهم، تحاول فهم تصرفاتهم، ولا تملي عليهم ما يقولون ويفعلون. لماذا كانت لدي هذه الرغبة في قراءة رواية تولستوي غير مرة، وأنا في ذروة أزمتي النفسية؟

ربما لأني عشت حياتي في الروايات، وحولها، ومن أجلها، ولأن هذه الرواية بالذات كانت قريبة جدًا من روحي المعذبة. إنها تمثل الصراع بين العقل والعاطفة، الوهم والواقع، وما قالته آنا كارنينا عن زوجها، كان يذكرني دائمًا بدافني، بأنها امرأة من ورق، وأريد تخليدها في كتاب. كأن الكلام جاء على لسانها: «يقولون إن النساء يحببن فى الرجال حتى رذائلهم.. وأنا أكره فيه فضائله!. لا أستطيع أن أعيش معه! لكن ماذا أفعل .. لقد كنت شقية.. وكنت أعتقد أن الإنسان لا يمكن أن يكون أكثر شقاء مما كنت، لكن الحالة الفظيعة التى أجتازها الآن تفوق كل ما تصورت، أتصدق أني أكرهه برغم علمي بأنه رجل طيب!

بل رجل رائع! وإني لا أساوي إصبعًا من أصابعه؟.. إني أكرهه بسبب كرمه».

هل كانت دافني تعيش معي في بؤس وشقاء، وتعتبرني في الوقت نفسه رجلاً طيبًا؟

هل أحبت دافني ليوناردو، مثلما أحبت آنا كارنينا فرونسكي؟

وأين موقع ليوناردو من هذه الحكاية؟ أين الحقيقة والخيال في الجانب المتعلّق به؟ هل كان وفيًّا طيبًا، أم مخادعًا وعاشقًا لزوجتي؟

أقفلت الرواية، نهضت ووقفت قبالة النافذة، دخّنت بشراهة حتى لم تعد تتسع منفضة السجائر لبقايا سيجارة جديدة. كانت الطاولة متّسخة، عليها علب بيرة فارغة ورماد سجائر، وقدّاحة حمراء، ولوح من الأقراص المهدّئة. دخّنت سيجارة أخرى، وشربت كأسًا جديدة، شعرت بأن رأسي صخرة بدأت بالتدحرج، فألقيت بنفسي على الكنبة. وضعت على الطاولة فودكا، كونياك، شامبانيا، روم، ورحت أحتسي كمجنون، أردت أن أنسى، استرخيت أكثر رغم الدوار والنار التي اشتعلت في داخلي. أخيرًا بلعت حبة مخدر، رأيت الصالون يتأرجح، يهتز، واللوحات المعلقة على الحائط تخرج من إطاراتها، بدأت الجدران تكتسي باللون الوردي والأخضر، تموجات من الألوان بتدرجاتها، ثم تشابكت خطوط وأشكال هندسية، لتأخذ هيئة مخلوقات غريبة، سمعت ضجيجًا وصرخات من الغرف

المجاورة، انتبهت إلى جيش من النمل يتقدم على السجادة باتجاه قدمي، تتسلقها في صف منتظم، صرخت حتى ظننت أن حنجرتي قد خرجت من مكانها.

شعرت بانخفاض في درجات الحرارة، واعترتني قشعريرة حادة، فزحفت إلى السرير، ولملمت جسدي تحت البطانيات الثقيلة، تصببت عرقًا. كنت أهذي، وأبكي، وجسدي يئن من الإرهاق والخوف.

الجزء الرابع

(١)

انقضى أسبوع كامل، لم أخرج فيه من البيت، قبل أن تتحسن حالتي الصحية وأذهب للسباحة، كما اشتريت بعض الروايات والخضروات وشفرات الحلاقة. اتصلت بدافني وقلت لها بأني أريد رؤية سيلينا. خرجنا مساء في جولة بالسيارة، استمعنا إلى هايدن، كنا نريد أن نقتل الوقت، نقضيه بالتسكع في شوارع فلورنسا. سألتني: ما رأيك في الذهاب إلى روما؟ بحلقت بها ثانيتين. «اعتقدت أنك ستقترحين الذهاب إلى مدينة الملاهي أو حديقة الحيوانات؟ حسنًا، روما مدينة مكتظة، وتصبح مزعجة في الصيف لكثرة السيّاح، ما رأيك بالذهاب إلى البحر؟».

ـ أوكي، لنذهب إلى البحر.

ـ ليس لدي مشكلة، لكن يجب أن أستشير أمك.

الذهاب إلى البحر، فكرة جيدة. شعرت أني بحاجة للخروج من فلورنسا بضعة أيام، كانت المدينة تضغط على أعصابي، وصلت إلى

طريق مسدود، ووجدت أن الحل الوحيد هو الخروج في رحلة قصيرة مع ابنتي. قلت لنفسي: السباحة، الاستلقاء على الشاطئ والمشي على الرمل، الفتيات الجميلات، حفلات الرقص، إنها أشياء جميلة. سأجرّب أن أنسى همومي وأقضي وقتًا ممتعًا.

أجريت اتصالًا بدافني.

ـ هذا مستحيل، صرخت في الهاتف، وافقت أن تخرج معك على مضض، لأنها لم تركـ منذ مدة طويلة، ولأنها أصرّت على ذلك، أما الذهاب إلى البحر فهذا أمر آخر.

في اليوم التالي، اتصلت بي: حسنًا، اذهبا إلى البحر، لكن خذ حذرك، لن أسامحك إذا حدث لها أي مكروه.

ـ لا تنسي أنها أيضًا ابنتي.

ـ نعم، أعرف، قل هذا الكلام لنفسك، كيف أصبحت صحتك؟

ـ أنا بخير.

ـ ألم تعد تأتيك الهلوسات؟

ـ لا.

عندما أخبرت سيلينا بأنني أصبحت جاهزًا للرحلة، سمعت ضحكتها وتخيلتها تقفز على السرير.

ـ جهّزي أغراضك. حقيبة صغيرة، ضعي فيها البكيني وفرشاة الأسنان وبعض الملابس الخفيفة. آه، لا تنسي مرطبات الجلد.

فيما بعد أخبرتني بأنها ظلت تبكي طوال الليل حتى أقنعت أمها.

جهزت حقيبتي، وضعت فيها بعض الكتب وشفرات الحلاقة وملابس السباحة. في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى منزل دافني.

ـ أكاد لا أصدق، تخرج في نزهة وتترك الكتابة، هذا أمر غريب. إنك لم تفعلها في حياتك.

ـ سيلينا تستحق، إنها كل ما تبقى لي.

نظرت إلي غير مصدقة.

ـ على كل حال، خذ حذرك، لا تتركها وحيدة، لا حديث مع الغرباء، لا وجبات غير صحية، لا تأخر في النوم.

ـ أعدك.

قضينا الوقت في السيارة بالحديث والاستماع إلى الموسيقى. جلبت سيلينا كاسيتات غنائية لتسمعها أثناء الرحلة، كانت تقلب الاستيريو كل دقيقة على أغنية جديدة. كنت سعيدًا، رغم ذوقها الموسيقي المختلف.

ـ بابا، قالت لي أمي إنك تحب أن تستمع إلى مطربة مصرية، هل هذا صحيح؟

وضحكت قبل أن أجيبها: نعم، أم كلثوم، إنها صاحبة صوت رخيم، محمّل بالحنين والعواطف الشرقية. ومدّت يدها تبحث بين الكاسيتات: أي واحد؟ أريد أن أسمعها.

ما إن انطلقت حتى وضعته في الاستيريو، ما إن انطلقت الموسيقى حتى سألتني:

ـ بابا، لماذا تبعث على الاكتئاب؟

ـ أنا أم الموسيقى؟

ـ لا، أنت.

ـ عندما تكبرين، سترين كيف أن أغلب الأشياء تبعث فينا الاكتئاب.

ـ لقد كبرت، إنني أرتدي صدرية.

ـ أووه.

وضحكت.

ما إن وصلنا حتى نزلنا إلى الشاطئ. سبحنا قليلًا في المياه الدافئة، ثم استلقينا على الرمل. تأملت السماء الموشاة بالغيوم والطيور والأمواج التي تتكسر عليها أشعة الشمس. كانت سيلينا مستلقية إلى جانبي مرتدية البكيني الوردي، ونظارة شمسية، وقبعة من القش.

نظرت نحوي، وقالت بصوت خافت: هل تحب البحر؟

ـ بالتأكيد، إنه شيء جميل، لكنه مريب في الوقت نفسه، كبير جدًا وممتلئ يشبه دواخلنا.

ـ لماذا افترضت أن دواخلنا ممتلئة؟ أعتقد أنها فارغة. قالت سيلينا وهي تتأمل صفحة البحر.

ـ ربما تكونين على حق. وأضفت: تعلمين أن التفكير يبعث على الإرهاق، لكنه أفضل من الخمول والكسل. هكذا، أن يظل الذهن في حالة انشغال كامل، لا تضجري يا ابنتي من التفكير والشك والسؤال،

إنها أمور ضرورية لنبني إنسانًا واعيًا، لكني رغم ذلك أريدك أن تعيشي حياة طبيعية، لا تقفزي عن المراحل.

تنهدت سيلينا بعمق، ثم أغمضت عينيها: «هل تؤمن بوجود حوريات البحر؟»

ـ اسألي أمك.

ـ لماذا؟

ـ لأنها تعشق المخلوقات الأسطورية. على كل حال، أعتقد أنه لا يوجد خرافة أو قصة خيالية دون أن يكون لها جذور في الواقع. لقد وجد علماء الآثار قوالب برونزية لحوريات البحر تعود إلى ٣٠٠٠سنة، وتحدثت عنها شعوب كثيرة منها الإغريق والفراعنة، لا أستطيع أن أجزم في هذا الأمر، هل تحبين حوريات البحر؟

ـ ليتني كنت حورية، أعيش في البحار والمحيطات بعيدًا عن عالم البشر.

ـ فكرة جميلة، لكنها تظل مجرد فكرة.

مرت ثلاث دقائق دون أن نتحدث.

ـ هل يمكن أن تفكري بصوت أعلى؟ ماذا تقولين في نفسك؟

ـ إنك تتصرف بطريقة غريبة.

ـ ليتني عشت حياة طبيعية، وظيفة محترمة وأسرة صغيرة وحب هادئ. ربما كنت تصرفت كالآخرين، لكن هذا هو والدك، هل تشعرين بالخجل مني؟

ـ لا، أنا فخورة بك، لكني حزينة من أجلك.

أفكر أحيانًا في هوية سيلينا، أهي فلسطينية أم إيطالية؟ هل تشعر بالتمزق وتعاني الاغتراب والضياع اللذين أعانيهما؟ لا أعتقد، فحبها لفلسطين نقي وواضح كسماء صيفية، أكاد أجزم أنها تحمل حبًا وانتماءً إلى فلسطين أكثر مني. كانت تتحدث غير مرة عن رغبتها في زيارة البلاد، كما كانت تكثر من الأسئلة، ذات مرة وجدتُ ألبوم صور في خيمة ألعابها، إنها لا تكفُّ عن العبث بأغراضي، عادةً لا أحمل معي عند عودتي إلى البيت سوى كتب وبعض الروايات، لا بدّ أنها لاحظت أن شيئًا زائدًا أحضرتهُ معي، والصّور عند الأطفال في منزلة القصص وحكايات الجدّة. حين جلست إليها كان عليّ أن أسردَ قصّة واحدة أقلّه لكل صورة تسألني عنها. الألبوم ليس ملكيّة خاصّة، لا يحتوي على صوري أو صور أحد من أفراد العائلة، بذلت جهدًا خرافيًا في تجميعها وأغلبها من الإنترنت، قمت بطبعها ورقيًا، والسبب بسيط جدًا لكنّه ضروري، لقد كان الألبوم لافتةَ احتجاجٍ وغضب على صديقة ألمانية، أردْت أن أريها بلادنا كم كانت جميلة قبل أن يأتيها القتلة واللصوص من كل أصقاع الدنيا، قالت «حيفا، وعكّا، ويافا، جميلة وساحرة، لا أعتقد أنها ستكون كذلك لو أنها ما زالت بيد العرب». انبثقت هذه النظريَّة العبقريّة في رأسها بعد رحلة قامت بها إلى فلسطين المحتلة.

بحثت عبر الإنترنت واستفسرت.كان في فلسطين قبل النكبة عدّة مطارات، وخطوط للسكك الحديديّة، ودور عرض للسينما،

ومسارح ومقاهٍ، كنّا نملك كل المقومات الثقافية والاقتصادية والجغرافية ـ فلسطين قارّة مُصغّرة، شمالها الغابات ووسطها الجبال والسهول وجنوبها صحراء النقب ـ لدينا أهم سياحة دينية في العالم، أرض المسيح ومعراج محمد عليه السلام، لذلك أردت أن أُفهم هذه الصديقة أن المحتلينَ لم يأتوا لنا بالنظافة أو الجمال أو الحضارة، بل بالقتل والخراب والعنصريّة.

بدأتُ أسرد على سيلينا في ذلك اليوم الحكايات تلو الحكايات: حكاية شاب يتغرّب عن أهله ووطنه، ويذهب لدراسة الطب في بيروت، ينتظر مرور القطار، في الصّورة محطة قطارات في مدينة طولكرم. حكايةُ أربعة رجال يتحلّقون حول طاولة للعب الورق وتدخين النرجيلة، في الصورة مقهى مكشوف على شاطئ البحر في يافا. حكاية سيّدة بقبعتها الفرنسية ولباسها الأرستقراطي في أحد أحياء حيفا. حكاية إعلان حفلة للسيدة أم كلثوم في أحد فنادق القدس. حكاية أحد الأعراس الشعبية، في الصورة رجال في حلقة دبكة والنساء يصفّقن ابتهاجًا، ـ لايوجد وعّاظ بعدم الاختلاط ـ اجتمعت القرية بصغارها وكبارها للفرح.

ثرثرت سيلينا كثيراً كعادتها، أرادت أن تعرف التفاصيل، وقاسيةٌ هي التفاصيل وموجعة، كانت تقلّب الألبوم بين يديها وتسألني: «بابا ما هذا؟ وما هذا؟» وأنا أجيبها بقلبٍ مكسور وعيون غائمة بالدموع: إنها فلسطين يا صغيرتي، فلسطين. أقصُّ عليها الحكايات حتى تنام على

ذراعي، لعلّها تصحو على فلسطين محرّرة من القتلة وسارقي أحلام الأطفال.

عدنا إلى الفندق قبل غروب الشمس. كان مكان الإقامة متواضعًا من حيث الديكورات والأثاث، إلا أن الإطلالة كانت مميزة، حيث أخذنا غرفة في الطابق الخامس تطل على البحر. نزلت إلى البار لأشرب كأسين من الويسكي، بينما ظلت سيلينا في الغرفة.

كنت قد حجزت غرفة أخرى في الفندق. أخذت المفتاح وصعدت إلى هناك. لم تكن مغرية: سرير واحد ملتصق بالجدار، وفي الوسط طاولة لها كرسي، ومكتب خشبي. فتحت النافذة، كانت تطل على ساحة مزدحمة بالناس وبائعي العصائر، أغلقتها ثم أقفلت الستائر. على أحد جدران الغرفة علقت لوحة، داخل إطارها الذهبي كانت هناك ثلاثة وحوش مخيفة تتقاتل فيما بينها، تتصارع بالأنياب والمخالب بمنتهى العنف، وكانت يد تحمل حربة تظهر من زاوية اللوحة، تتهيأ لإطلاقها على أحد الوحوش، لا أدري لماذا أحسست بأن هذه اللوحة القاسية تعنيني؟ ثمة أيد خفية تعبث بمصائرنا، ترسم الطرق التي سنسلكها، ثم توقعنا في الحفر والمصايد التي زرعتها.

أظن أن اللوحة كانت تمثل إحدى الأساطير القديمة، حول إلهة القنص والصيد، ربما تشير إلى آرتميس، أهم وأقوى وأقدم إلهة إغريقية، تلك التي تروِّح عن نفسها بالصيد بين الجبال، هل كانت يد

كيدها تحاول قنصنا؟ هل كنّا مجرد ضحايا للحكاية الإغريقية التي ترشح بالذعر والفزع؟

فتشت المجلة التي كانت مركونة على السرير، صور نساء عاريات مع أرقام هواتفهن، تابعات إلى إحدى المؤسسات «شبكة دعارة». قررت الاتصال بإحدى المومسات، قلت لنفسي: سألعب قليلاً. لفتت انتباهي امرأة سمراء، ناضجة، اتصلت بالمؤسسة. بعد نصف ساعة، دخلت إلى الغرفة، كانت تلهث كالعجوز، مقوسة ظهرها، متعبة بشكل كبير.

جلست بهدوء على أريكة الغرفة، لم أخلع أي قطعة من ملابسي، بينما بدأت المرأة تتعرى.

ـ هل أبدو لك جميلة؟

لقد خدعت، في الحقيقة كانت قبيحة جدًا، ثدياها متهدلان، جلدها مترهل، بطنها متكور كأنها حامل.

ـ هيا امشي في الغرفة، اقفزي، ارفعي قدمك اليمنى لا تقفي كالتمثال.

بعد دقائق اقشعر بدنها، غضبت، نظرت إلي بصمت، ثم قالت.

ـ إلى متى ستبقى تنظر إلي هكذا؟ هيا تحرك.

عندما لم أجبها، أخذت سروالها وبدأت تلبسه.

ـ هل تريد اللعب معي؟ اللعنة عليك.

عندئذ صرخت فيها.

أنزلت سروالها من جديد.

قلت لها: لا تقفي، اذهبي، ارجعي، افعلي أي شيء.

انصاعت لأوامـري، كانت تبدو لي مهرجة مجنونة، عندئذ ضحكت طويلاً، فاحمر وجهها خجلًا، وأحسّت بالخزي والعار، بدأت تتوسل إلي وتطلب مني أن أصفح عنها.

ـ أرجوك يا سيدي، لدي أطفال صغار، وما أتيت إليك إلا طمعًا في بعض النقود لكي أوفر لهم الطعام.

أشفقت عليها، لكني لم أتركها. ارتعشت المسكينة، حتى بدأت تزحف على يديها وقدميها، وقفت تحتي تمامًا.

ـ اصفح عني يا سيدي، اتركني لأرحل.

حينئذ فتحت باب الغرفة وتركتها تذهب.

مرّت نصف ساعة، كنت منهكًا، الصمت يغلف كل شيء، تذكرت سيلينا التي تركتها وحيدة، فركضت إليها.

(٢)

دخلت إلى الغرفة بوجه مضرّج بالحمرة، وجلست على طرف السرير. لم أملك الجسارة للنظر إلى عينيها الحزينتين. رفعت رأسي نحوها فرأيتها عابسة ترتدي بيجاما خضراء، وهي تنظر إلى الخارج عبر النافذة. سألت دون أن تلتفت إلي: أكنت مع مومس؟ أوه! هذا أمر مقرف.

ـ ابنتي، إنه نمط من الحياة في العالم الحديث، أن نجد كل شيء جاهزًا. الأمر يحتاج إلى اتصال واحد، وتصل الخدمة إلى الغرفة.

تضرّجت وجنتاها.

ـ نأتي إلى هنا لكي نستمتع بوقتنا، لأني مشتاقة إليك، ثم تتركني وحيدة وتذهب لتقضي وقتك مع مومس، كم أنت غريب!

ـ على كل حال، هذه هي الحياة مليئة بالمفاجآت. أعتذر سيلينا عمّا بدر مني، لم أقصد ذلك.

في صباح اليوم التالي، حاولت أن أتحدث إليها ونحن نتناول الفطور، إلا أنها ظلت صامتة. اقتربت منها لأمسك يدها، لكنها ابتعدت وأدارت وجهها، فشعرت بامتعاض شديد، وحزن عميق. قلت في نفسي إنني والد سيئ لبنت لطيفة وذكية، وبذلك أسعى لتدميرها.

قالت سيلينا: هل يمكن أن نعود إلى البيت؟

ـ لكن الرحلة لم تنتهِ، ما زال هناك ما نفعله.

ـ لا، هذا يكفي لو سمحت.

عدنا إلى فلورنسا. كان الصمت طاغيًا في السيارة، فشغلت المذياع. لم نتحدث طوال الطريق، كانت تنظر إلي باحتقار. ضغطت على المقود بيدين متعرّقتين، بينما كان نظري متوجهًا إلى الأمام، وقد خيّم علينا الملل والسأم والحزن.

قالت لي قبل أن نصل: اسمع، لن أخبر والدتي بما حدث، لكني حقًا منزعجة منك، لا أفهمك. صمتت برهة، ثم أضافت: أظن أني

بدأت أكرهك. قلت لها، وأنا أرسم ابتسامة صفراء، حمقاء على وجهي: أنا لا أكرهك، ليس لدي في الدنيا غيرك، ولا أرغب في خسارات جديدة.

عندما عدت إلى البيت، جلست على أريكة الصالون أفكر في ما وصلت إليه. رأيت أفعالي عبثية، ولا تخرج من إنسانٍ عاقل. الجسم واهن، دوار شديد في الرأس، الدماغ كتلة من لهيب. مشيت ببطء نحو الباب متوجهًا إلى المطبخ، أخرجت سكينًا من أحد الأدراج، وسحبت جسدًا ثقيلاً إلى غرفة النوم.كانت ذاكرتي تزداد توهجًا واشتعالًا: والدي الشيخ عثمان، أمي، دافني، سيلينا. رأيت وجهي في المرآة شاحبًا، وشممت رائحة كريهة تنبعث من جسدي. جلست على حافة السرير ووضعت حافة السكين على رسغ يدي، بالضبط فوق الشريان، أغمضت عينيّ، وحلمت.

كنت جالسًا على كرسي طويل، تحت مظلّة كبيرة زرقاء اللون، قبالة مسبح رياضي يقع على تلّة، تطل على وسط فلورنسا، فتبدو كنيسة الدُّومو، بقبتها الكبيرة بين المباني الإيطالية ذات القرميد الأحمر، كامرأة فضوليّة تشرئبُّ بعنقها. كان بين يدي كتاب، فوضعته إلى جانبي، ورحت أنظر إليها. خرجت من الماء لتسند ذراعيها إلى طرف المسبَح، ثم أخذت شهيقًا عميقًا، قبل أن تجمع شعرها بيدها، وتعصره. بدت في العشرين من عمرها، وخيّل إلي أنها ابتسمت. لم أكن متيقناً، لكنها نظرت، ونظرتها كانت موجعة ومحمّلة بنداءات. خرجت من بركة السباحة مرتديةً المايوه الأحمر.

استيقظت من غفوتي، فوجدت السكين في مكانها. حززت الرسغ، فانطلق رشاش من الدم وتناثر على وجهي وملابسي. صرخت مثل حيوان موجوع، ثم كأني كنت في غيبوبة وصحوت فجأة، زحفت نحو الهاتف واتصلت بالمستشفى.

أدخلوني إلى غرفة الطوارئ. سمعت أنين الجهاز يصلني متقطعًا، وخيل إليّ أن قلبي قد توقف عن النبض. طلب الطبيب من الممرضة أن تأتيه بجهاز الصعقات الكهربائية، راح صدري ينتفض بقوة. كم كنت منهارًا ووحيدًا في تلك اللحظة! لا وطن، لا أهل، لا زوجة، لا ابنة.

بعد يومين من الحادثة، فتحت عينيّ نصف المغمضتين. كانت أشعة الشمس تتسرب من بين الستائر، وتملأ جو الغرفة بالدفء. زارتني دافني مرة واحدة، قالت لي: لم أخبر سيلينا بما حدث، أخاف عليها أن تصاب بلوثة الانتحار. يكفينا مآسٍ، أريد أن أبقيها بعيدة عن جنوننا وعقدنا، يبدو أن هذه الأمراض تنتقل بالوراثة.

هل كان الماضي يملك كل هذه القدرة على التأثير في حياتي، أم كانت علاقتي بأبي وأختي مشجبًا أعلق عليه مآسيَّ وخيباتي الشخصية؟ بمعنى آخر، أعلّقت أزماتي النفسيّة بالذاكرة؟ على الرغم من ذلك، كنت متيقناً أن الاحتلال الإسرائيلي بإجرامه ودمويته، قد أجرى عملية تهديم وتخريب في عالمي الداخلي، وأحدث أعطابًا وحروقًا، لم يتمكّن الزمن من إصلاحها. ربما رغبتي في الكتابة تتوارى خلف طموح شخصي بأن أكون، أكون شخصًا مهمًا وغير قابل

للنسيان، انتقامًا من والدي الذي كان يرى في الأدب مضيعة للوقت، خصوصاً الروايات التي تنشر الفساد في الأرض أكثر من الحكومات.

إذًا، الإبداع الأدبي كان محاولة انتقام من الماضي والوالد المستبد وانتحار أختي، بالرفض والتمرُّد على السلطة الأبوية والسياسية والدينيّة. الرضوخ للسلطة معناه أننا رضينا بأن نصبح عبيدًا. الرضوخ للماضي وتمكنه من السيطرة والتأثير في حاضرنا، هو أيضًا شكل من أشكال العبودية. أعتقد أن حياتي، خصوصاً الفترة المرتبطة بدافني وما احتوته من أزمات، كانت محاولات للتحرر من نير هذه العبودية، وأجزم أنها كانت من أشرس المعارك في حياتي، لدرجة أنني دفعت من صحتي الجسديّة والنفسية.

خواء مخيف على الرغم من قامتي الأدبية التي راحت تطول مع السنوات. لم أعرف كيف أستمتع في حياة لا متعة فيها، والكتب نسيت أن تعلّمني كيف أعيش. لذلك شعرت بأني أجوف، لقد ارتفعت قامتي الأدبية، لكني كنت أحمل الفراغ في داخلي حيث أذهب.

قرون من الخوف والاستبداد والجهل ساهمت في بناء رجل معطوب ومعقد بالماضي اسمه كاظم اللبدي، حاول أن يستمر في المحو والشطب والهدم، لذا سعى أن يطمس تاريخه وزمرة دمه، لكنه فشل لأنه يحمل هذا التاريخ على كاهله أينما ذهب.

وعندما عجزت عن تصحيح ما ينبغي تصحيحه، اخترت الفناء بعد أن استشعرت وجوب الانتحار.

كنت أعتقد أني أعاني الأمراض التالية، ولأترك جانبًا الأمراض الأخرى.

١- البارونويا: في هذا المرض يسقط المريض مشكلاته على غيره من الناس، ويرى نفسه ضحية لتآمرهم عليه.

٢- الهوس الشبقي Erotomania: يكون المريض مصابًا بالهوس الشبقي، من خلال علامات مطاردة من يزعم أنها حبيبته ومعاكستها. لكن الحبيبة تكون ضحية المريض عادةً، الذي يخطط للاعتداء على من يظن أنهم يمنعون اتصاله بها، وقد لا يتوانى في ارتكاب عمل إجرامي لإرضاء الضحية.

٣- الميلانكوليا: وهي التلذذ بالحزن الخفيف الذي يتولد من تذكر السعادة الماضية أو من تصور الأحلام التي لا يعقبها التحقيق.

لم أجد أحدًا ليخلِّصني من السّأم، ومن لمسة دافني الحانية على كتفي، ومن الذّاكرة المقبرة، حيث الذكريات جثث متفسّخة. كنت في الليالي الموحشة، أتفقد وجهي في المرآة، لأتأكد أني لست غيري، وكأنني نسيت أن ثمة حياة تنتظرني خلف الباب، وابنة اسمها سيلينا تنتظرني في سريرها، كي أزيل النعاس عن عينيها، وأحضِّر لها حقيبتها المدرسية.

أحاول عبثًا أن أصطاد أملًا ضلّ طريقه، لأوثقه بي، أحميه وأقاتل من أجله. كان علي أن أصارع من أجل البقاء، بعد أن انهار عالمي القديم. سألت نفسي عن القيمة والجدوى من الركض وراء أشياء

فانية، واشتعل في نفسي الإحساس بالعبث: نحن كائنات نهايتنا الفناء والعدم.

إنه زمن الاغتراب والرحيل إلى اللامكان واللاشيء، زمن البحث عن أجوبة الأسئلة الكبرى التي يطرحها العقل والمنطق دون جدوى، الدوران في حلقة حلزونية مفرغة. شيء من المفترض أن يكون ولم يكن، شيء ناقص في الأعماق، أحد ليس في مكانه الطبيعي، يعيش حياة ليست له، يقوم بالأمور دون وعي، يحلم كثيراً ويعمل قليلًا.

(٣)

فكرت كثيراً أثناء طفولتي في الانتحار. طالما سألت نفسي عن الأسباب التي قد تدفع طفلًا إلى الانتحار؟ أي خوف وبؤس وإحباط في هذا الكائن اللطيف، الذي يمتلك الجرأة لأن يضع حدًّا لحياته؟ هل العالم بكل هذه البشاعة؟

فعلتها أختي وداد عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها، لقد ذكرت ذلك سابقًا. الليلة التي سبقت ليلة انتحارها، أتت إلى سريري ودسّت نفسها إلى جانبي، وتبادلنا الأدوار، فلعبتُ دور الأخ الكبير، رغم أنني كنت أصغرها بخمس سنوات.

كانت تشهق وتذرف الدموع من أمر أجهله. فيما بعد عرفت وفهمت كل شيء، إنها انتحرت من الأشياء التي قد تدفع مئات الآلاف من الفتيات في الوطن العربي إلى الانتحار: فقر وبؤس الحياة،

الشعور بالدونيّة، وعدم الرغبة في الحياة. هذه أسباب ثلاثة بالخط العريض، كانت وراء انتحار أختي. عندما أصبح الوجود لا يُطاق، اختارت الفناء والعدم، لكن ثمّة أسباب أخرى فرعيّة: فرض والدي عليها الحجاب وهي صغيرة، وكان يرفض أن ترتدي ملابس قصيرة مثل الشورتات، رغم أنها كانت في الثامنة (تعصُّب أبوي ديني مقيت). ضرب أخي الكبير لها لأتفه الأسباب، وكان ذلك قبل انتحارها بأسبوع حيث أصبح جسدها أزرق (تسلُّط وعنف ذكوري). كانت تقوم بكل الأعمال المنزليّة من تنظيف وغسل ملابس وطبخ وخدمة إخوتي الذكور (عدم مساواة في الوظيفة). التضييق عليها من ناحية الخروج مع صديقاتها والمدرسة وممارسة الأشياء التي كانت تحبها، بينما كان إخوتي يعودون إلى البيت بعد منتصف الليل، ويربضون طوال النهار أمام مدرسة البنات (تمييز جنسي). لذلك أصبحت الأنوثة والدراسة والمنزل والعلاقات الاجتماعية الحبل الثخين الذي أحاط بعنقها، وخنقها، وأنهى حياتها وطموحاتها.

بعد أسبوع، عادت إلي الرغبة في الانتحار. ركنت السيارة أمام أحد المباني في الجهة الغربية للمدينة. دخلت وإذ بالمتجر يشبه ما كنت أراه في الأفلام البوليسية: مساحة كبيرة، الرفوف تنتشر في الأرجاء كافة، تعلوها أسلحة من مختلف الأنواع، رشاشات، أسلحة قنص، مسدسات، ذخائر، ملابس عسكرية. طلب التاجر أن أترك الحقيبة التي كنت أحملها عند الباب، كان وجهه مليئًا بالبثور، ضخمًا، جسده

رياضي، واسع المنكبين، وعضلاته مفتولة، شعره طويل ومربوط على هيئة ذيل حصان، قال لي ضاحكًا: أهلاً بك في عالم القتل. ثم أردف قائلاً: كيف أستطيع أن أخدمك؟ أي نوع من السلاح تريد؟ قاطعته قبل أن يكمل: مسدس.

أخرج من الدرج مسدسًا، تحسسه بلطف، ثم وضعه أمامي.

ـ هذا المسدس اسمه «بريتا»، من أقوى الأسلحة في العالم، إنتاج إيطالي، عيار ٩ مم، ٤٥ بوصة، ذو حركة زنادٍ مزدوجة، الحركة الأولى للتعمير، الحركة الثانية للإطلاق، له عدة أوضاع للإطلاق منها الطلقة الواحدة ومنها الطلقتان، ومنها إطلاق جميع الطلقات دفعة واحدة، وله وضعية أمان وهو أقل وزنًا وأكثر فاعلية، نوع الذخيرة: ناتو، الطول: ٢١٦,٩ مم، العرض: ٣,٨١ مم، الارتفاع: ١٤٠ مم، أقصى مدى ١٨٠٠ م، المخزن: ١٥ طلقة.

قبل أن يفرغ من الشرح، طلب إلي أن أمسكه، كانت تلك المرة الأولى التي أحمل فيها سلاحًا، تذكرت بندقيتي البلاستيكية التي كنت ألعب بها في صغري. في الأعياد، عندما كان التجار يعرضون بضاعتهم ولعب الأطفال على البسطات، كنت حين أمر بها أزداد إلحاحًا على والدي لكي يشتريها، وحينما كان يرفض كنت أدخل في موجة صراخ وبكاء مريرين، كذلك كان يفعل كل ولد في القرية، لعبة الأمس أصبحت حقيقة اليوم. لا أدري من أين تأتي المرء هذه الرغبة في حمل السلاح، وإطلاق النار منه بغزارة؟ حتى مجرد الحلم والتفكير في

الأمر، كان يبعث في نفسي نوعًا من الانتعاش واللذة. همس التاجر في أذني بجملة، بدت له شاعرية على نحو مثير للإعجاب.

ـ المسدس كالمرأة، تعاملها بلطف، تتحسس جلدها بمنتهى النعومة، ثم تتركها لتطلق تنهيداتها وأنفاسها الساخنة ـ الرصاصات ـ، هل فهمت؟

كانت حواسي متحفزة. رائحة البارود تعبق في الجو. الفولاذ يلمع في كل الزوايا. الصمت يدق دواخلنا بعنف. راجعت ضميري في لحظة يقظة، شتمت المسدس والحالة المرضية التي تشبه الهذيان، الدوران داخل حلقة مفرغة، قلت في نفسي: ماذا تريد؟ لم أجد جوابًا شافيًا سوى زفرات الغضب، فلتكن عاصفة فولاذية تحطم كل شيء. السطوة هي ما لاحت في الأفق، كانت تستثير الأشياء الغامضة في داخلي، كأنني خنت الكلمة بالرصاصة. في تلك المناسبة شعرت بأن الكلمة والرصاصة أختان تصيبان القلب في مقتـل.

لم يسكت التاجر، أكمل بوحه، كأنه رأى بي طالبًا مبتدئًا، يحتاج إلى حكمه وخبراته المتراكمة.

ـ متعة القتل تفوق متعة الجنس، أن تطلق النار على رجل خبيث من مسافة لا تقل عن كيلو متر واحد وتصيبه، ألا هي لحظة السعادة الكبرى التي لا يوازيها حتى الظفر بامرأة لها جمال هيلانة.

تملكتني رغبة عارمة في سماع المزيد، كأن في داخلي أصواتًا تصرخ، تطلب الإشباع لحاجاتها ونواقصها، سألني مستفسرًا:

ـ من أين أنت؟

خشيت أن أعطيه اسم بلدي، طبعًا للضرورات الأمنية، يكفي أن أقول له إن جنسيتي فلسطينية حتى تراوده الشكوك والأسئلة، فعندما يقال فلسطيني تلحقها في ذهنه كلمة إرهابي، وهذا يعني أنني سأجد نفسي مرميًا في السجن، ما إن أفتح عيني صبيحة اليوم التالي.

ـ ألباني، أنا قادم من شمال ألبـانيا.

ـ أتدري ماذا قال أخيل لدى رؤيته جثة باتروكلوس؟

واصل، في حين كنت أفرقع أصابعي من الإثارة.

ـ صرخ، ارتجت اليونان حينئذ، أتتحدث عن الطعام؟ لا ذائقة لي للطعام، ما أشتهيه حقًا هو الذبح والدماء وأنات الرجال الخانقة.

كتمت صرخة كانت على وشك الخروج، فككت أصابعي المتشابكة وأحطت رأسي بكفّي، ثم رحت أضغط برفق. نظرت إلى التاجر الذي بدا أنه قال شيئاً لم أفهمه، أخذ يقهقه نافثًا دخان سيجارته، ألححت عليه بالأسئلة، حاصرته بجوعي الغريب لمعرفة كل شيء. كان عالماً مختلفًا، مثيرًا، مستفزًا للأعصاب. حدثني عن بداية انغماسه في هذا العالم.

ـ وجدتني أدخن الماريجوانا، كنت أرفع المزاج إلى أعلى مستوياته، وحينئذ كنت أمارس الجنس مع عشيقتي الروسية التي حملت مني. ذات يوم جاءت إلي بعد أن تكور بطنها، ركعت أمامي وأبدت لي رغبتها بأن تبقي الطفل، رفضت في البداية لكني مع توسلاتها وحبي

الشديد لها أذعنت، وافقت أن تنجبه وتأتي به إلى هذا العالم. ساعة الولادة ماتت، ثم أقسمت أن أقتل الطبيب الذي أجرى لها العملية. لقد قتلته في بيته، كانت تلك هي المرة الأولى التي أستخدم فيها السلاح.

كنت منفعلًا. اللعنة عليك، قلت في نفسي. تجاوزته، تقدمت حيث تركت المسدس، وقفت محدقاً إليه دون حراك، لحق بي الرجل القاتل، تاجر الأسلحة، الفيلسوف والشاعر الدموي، وهمس في أذني.

ـ هل أعجبك؟

حرت في السؤال، لم أملك سوى إجابة واحدة.

ـ إنه جميل.

كنت أنظر إليه من ناحية جمالية، متناسيًا الغرض منه، أردفت قائلًا:

ـ كم سعره؟

ـ ١٠٠٠٠ دولار أميركي.

وافقت، وقعت أوراقاً، سددت المبلغ، وضع المسدس في كيس مع الرصاصات ثم أحكم إغلاقه، خرجت وهو يبادلني الابتسامة.

أمور كثيرة تغيرت بعد ذلك، كنت واقفًا على أرض حائرة في أمري، أتقبلني أم ترفضني، وأنا الغريب عنها، القادم من بلاد السلم والحرب. تذكرت وصف امرأة في الحادية والثمانين من عمرها لقاءً جنسيًا حدث عام ١٩٣٦م أثناء الحرب الأهلية الاسبانية. قرأت النص في أحد الكتب التي تتحدث عن القتل، تقول: «كنت في مدريد ... علمنا

أن قوات فرانكو قادمة، لكننا كنا في بار أحد الفنادق، اعتقدت حقًا أن علينا الخروج والهرب، لكننا، بدل ذلك، ذهبنا إلى غرفتي وتضاجعنا! من بين الأشياء جميعها! كان رائعًا. كان بإمكاني سماع نيران الأسلحة الصغيرة، ثم مدفع آلي ينطلق على مسافة قريبة. باستطاعتي تذكرها جميعها، بكل تفاصيلها. كان ثمة ما يحترق بالشارع، ما زال بإمكاني شمه... كان رائعًا».

(٤)

عندما وصلت إلى البيت، دلفت مباشرة إلى غرفة النوم. وضعت جهازي المحمول وميدالية مفاتيحي والمسدس على الطاولة. كنتُ منكس الرأس، أدندن بأغنية إنكليزية حزينة، خيّل إلي أن دافني تجلس متربعة على حافة السرير. أمسكت بيديّ ومسّدت شعري الملبد بالعرق. كانت رائحة عرقي قوية تستفز الحواس، وقميصي الأسود لمع تحت الأضواء الخافتة للمصباح، نظرت نحوي وقالت: حبيبي كادم، لقد جاء الوقت لتموت. هيّا، حاول مرة جديدة، رصاصة واحدة في الرأس وتستريح. دخلت إلى الحمام، تركت المياه تتدفق فوقي بغزارة، تخيلت الدم ممزوجًا بالماء تحت قدمي، مكوّنًا بركة من السائل الأحمر. فركت جسدي بالصابون. بعد أن خرجت، تناولت المسدس الذي وضعته على الطاولة.

سمعت دافني، تسألني: ما هي أمنيتك الأخيرة؟ قلت: أن أموت.

وضعت فوهة المسدس على رأسي، ضغطت على الزناد بعد لحظة تردد، فانطلقت رصاصة واخترقت الجمجمة. شعرت بسائل لزج يسيل على رقبتي، سمعت طنينًا رهيبًا، وشعرت بأن خلايا دماغي قد تفجّرت، إثر ذلك غبت عن الوعي. بعد حوالى ساعتين، اكتشفت أني ما زلت على قيد الحياة. فتحت عينيّ في غرفة العناية المشددة، أذكر أني يومئذ بكيت بحرارة. شعرت بأني نبي يخرج من النار دون أن يحصل له شيء، خيّل إلي أنني أصبت بمرض نادر الحدوث، هو الأول في نوعه، إنه «مرض الخلود». ذاك الذي حلمت به طوال حياتي الأدبية، لقد دهش الأطباء مما حدث إذ إن الرصاصة اخترقت الرأس وخرجت من مؤخرته، وفرصة البقاء على قيد الحياة كانت تساوي صفرًا، رغم ذلك بقيت على قيد الحياة، شعرت أن الموت لا يرغب فيّ، إنه يبتعد كلما حاولت الاقتراب منه.

لطالما ردد أبي على مسمعي فلسفته الصوفية، بأن لا معنى للحياة دون الموت، فالموت برأيه هو الذي يعطي الحياة قيمتها، فلولا المرض لما عرفنا الصحة، ولولا الفقر والأزمات المادية لما عرفنا قيمة ما نملك من مال.

لكن، ماذا لو لم يحضر الموت بعد أسبوع أو ألف عام؟ كيف ستكون حياتي الأبدية على الأرض؟ حاولت أن أطرد هذه الفكرة الكابوسية من رأسي، إنه أمر مخيف لا يمكن تصوره. ما أصعب أن أعيش حياة طويلة مع كل هذه المآسي والخراب الداخلي والارتباكات

النفسية! لا بد أنه الجحيم حيث لا خلاص من العذاب الأبدي، إذ يتحتم علي أن أواجه هذه المأساة التي لا نهاية لها: آلام الإنسانية، مخالب الحياة المتوحشة، أطماع البشر ونزواتهم، قذارة السياسيين وألاعيب رجال الدين، الإعلام الموظّف، مجتمع قائم على ميزان الربح والخسارة. عالم فاسد استبدادي أعمى.

سيتعيّن عليّ أن أواجه أكثر الأشياء عنفًا وقذارة، أن أقاتل وحيدًا بلا سلاح أو قوة خارقة للعادة، سأعيش في البؤس والشقاء الأرضيين إلى الأبد. ما معنى الموت؟ ماذا لو لم يحصد عمري، وظل هذا العمر يتمدّد أكثر؟ كيف يتخلّى الموت عن إراحتي وهو الحل الوحيد لحياتي الإنسانية التي فسدت؟ فكرة الخلود (لا موت)، كانت سجنًا قبيحًا، مجرد التفكير فيها تبعث على الحزن والأسى. كانت كل هذه الأسئلة القلقة تتعمق في مساحة غامضة، مرتبكة في داخلي.

إنه كابوس مرعب.

كانت السماء صافية، بلا غيوم أو طائرات، والجو لطيف. وقفت على حافة العمارة وألقيت بنفسي دون تفكير أو تردد. حاولت أن أقوم بحركات بهلوانية في الهواء، كأن أرفع قدمي إلى الأعلى بينما رأسي إلى الأسفل، كي تتهشم الجمجمة وتصبح على أبشع صورة. كنت أريد أن أضيف إلى الانتحار بعدًا شاعريًا، فلسفيًّا، أسطوريًا: التحليق بحرية لثوانٍ، ثم الدخول في العدم حيث تتساوى الأشياء وتتماهى.

خيّل إلي أن الأمر بسيط، والموت مفروغ منه، إذ إن فرصة النجاة

كانت تساوي صفرًا، معدومة منطقيًا وفيزيائيًا ورياضيًا. كان لا بد لي أن أكون في العالم الآخر، الراحة الأبدية، وعلى الرغم من الطنين والضجيج في رأسي، استطعت أن أسمع أصوات المتجمهرين حولي ودوي سيارة الإسعاف.

أردت أن أموت طواعية، لأبعث رسالة عميقة ذات مغزى، مليئة بالأسئلة والشكوك: لماذا اختار الانتحار والرفض؟ هل عاش حياة موسومة بالشؤم؟ هل كانت حياته محض مسرحية هزلية؟

(٥)

تقع القلعة في الجانب الشرقي من المدينة، وتتكون من غرف متجاورة. الغرف الأولى كانت مليئة بالأقنعة وملابس التنكر، السجائر والشموع، جميعها معروضة للبيع، يأتي بعدها صالون واسع، على زواياه علقت شبكات صيد بحرية، وعلى جدرانه لوحات لفناني عصر النهضة. كان القصب مغروسًا في أحواض تطفح بالرمل، بينما انتشرت سحب من الدخان وبعض المواد التي تم حرقها، لتضيف إلى الجو شيئًا من الرهبة والعنف. كانت رائحة العرق والكحول تفوح من أرجاء المكان، الغرف الأخرى كانت لممارسة الدعارة، كل وحظه. الأمر يجري بالقرعة، من يرغب في الممارسة يضع يده في قارورة زجاجية كبيرة، تحتوي على عشرات الكرات، ثم يخرج كرة واحدة فيها ورقة مكتوب عليها رقم الغرفة، يذهب إلى العامل في الناحية الأخرى،

يسلمه الورقة ويستلم المفتاح، كما أن هناك غرفاً للعب الورق والقمار وإقامة حفلات الشرب.

كانت ليلة السبت، التي لا ينام فيها سكان فلورنسا، المراهقون خرجوا إلى المراقص، العاشقون إلى المطاعم والسينما، السّاسة ورجال الأعمال اختفوا من أمام عدسة الكاميرا، ونزعوا إلى ممارسة سطوتهم بطرائقهم الخاصة.

بعد أن سمح لي رجال الأمن بالدخول، وجدت نفسي أمام باب مقفل بإحكام، مررت البطاقة التي زودني بها أحد العاملين في الجهاز المخصص لذلك. وجدت غرفة الملابس التنكرية والأقنعة، اشتريت طقمًا كاملاً. في الداخل، صدمت بالرجال الموجودين، كان عددهم يفوق الخمسين، موزعين في أنحاء الملهى، بعضهم يشرب، البعض الآخر يتحدث ويضحك بصوت فاضح، الغريب أن آخرين كانوا يتحدثون عن الصفقات والأعمال التجارية، بدوا لي أناسًا مهمين، فنانين، وسياسيين، ورجال أعمال، الجو كان غريبًا ومخيفًا.

في خلفية المكان، ثلاث غرف للعب السنوكر أو الروليت أو البوكر أو البلاك جاك. الحاضرون كلهم رجال، أما النساء فهن غير موجودات، الأمر الذي أثار استغرابي. يستخدم الجميع اللغة الإنكليزية في كلامه، إلا حين يريد أحدهم أن يسب ويشتم ويتآمر، فيعود إلى لغته الأم.

تقدم رجل نحوي بخطوات واثقة، والكأس في يده، عندما وصل قبالتي قال.

ـ العالم غابة، والإنسان مجرد وحش.

راحت عيناه تحدقان إلي، رأيتهما واسعتين، فيهما شيء من الدهاء والمكر. كان قناعه أبيض، تقطعه خطوط سوداء، وتعلوه بعض الريشات الملونة، بخلاف قناعي الذي كان يشبه وجه المعزاة، ما كنت لألبسه لولا تذكري لبعض أساطير القبائل الإفريقية، التي تعتبر المعزاة شيطانًا يجلب الحظ والقوة، التفت نحوي وفي عينيه نظرة ساخرة، أردف.

ـ ما به السيد المحترم، ألا يوافقني في الرأي؟

والآن، لنتحدث بلغة الأقنعة المتخمة بالكذب والرياء. حركت شفتيّ، شعرت بأنهما ثقيلتان، متدليتان، وجدت صعوبة في الكلام.

ـ سيجارة، من فضلك؟

أخرج لي سيجارًا كوبيًا، أشعلته، وسحبت بمتعة ونفخت الدخان عاليًا في الهواء.

ـ هل أنت كوبي؟

ـ لا، أنا برازيلي.

ـ ماذا تعمل؟

كان يشرب بطريقة شهوانية، راقبت خطوط فمه التي راحت تبرق تدريجًا، مرة جديدة حدق إليّ كأنه يتفحصني بكثير من الحرص.

ـ أنا رجل أعمال، أملك العديد من الشركات، أهمها مختصة بتجارة السيارات، مكاسبي تعد بالملايين، وأنت؟

تساءلت «ماذا يمكن أن أقول له؟» شعرت بأنني ساذج، أنا لم أسرق، أو أقتل، أقلّه حتى الآن، لا أعرف شيئًا في عالم المال، داخلي ما زال بريئًا،لم يحترق بما فيه الكفاية لكي يتوحش.

رأيت الأقنعة تنتشر في كل مكان: قناع الطاعون، ذو أنف معقوف يشبه منقار الغراب، يرادف ما يسمى بالموت الأسود، أي الطاعون القاتل الذي أودى بحياة ثلث سكان أوروبا، في القرن الثالث عشر الميلادي، كان يضعه الأطباء في ذلك الوقت خلال أداء عملهم في معالجة المصابين بالوباء. قناع مهرج. قناع الموت الذي يصنع من خلال سكب مادة الجص أو الشمع على وجه الميت. قناع مومياء، وهو من الأقنعة الجنائزية، التي تعود إلى العصر الروماني، كذلك أقنعة بألوانها المختلفة، مصنوعة من الكتان والحرير.

أضاف وهو يرمي سيجارته بعيدًا عنه.

ـ لا بد أنك شاب ثري، أغلبية الموجودين ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية الأوروبية، بالإضافة إلى العديد من الأغنياء الأميركيين.

ـ لماذا لا يوجد نساء؟ هل أنتم مثليون؟

ضحك طويلًا، قبل أن ينبهني.

ـ انتبه إلى ما تقوله، لا يغرنك القناع الذي تضعه على وجهك، قد يحفظون صوتك ويتذكرونه فيما بعد، عندئذ لا يمكنك أن تخلص نفسك، أعذرك، يبدو أنها المرة الأولى التي تأتي فيها إلى هنا، سترى النساء بعد قليل، نساء لم تر عينك مثلهن من قبل.

اندفعت فجأة موسيقى صاخبة، اشتعلت نيران مشاعل كانت مثبتة في الزوايا، صراخ نساء بدأ يعلو من الممر المؤدي إلى القاعة الكبيرة، ضج المكان بالضحك الهستيري والشتائم، «نعم، هكذا!»، «ها قد بدأت ليلتنا المثيرة».

كنت أشم رائحة أنفس رخيصة، وضيعة، رغم البدلات الأنيقة والأقنعة التي تتزين بها. كانت الكحول تحرق الأحشاء والأدمغة، ترفع المزاج إلى أعلى مستوياته. دخل رجال يلبسون أردية سوداء، بدت لي قذرة، ملطخة بالوحل والدم، بينما تدلت من رقابهم سلاسل حديدية ثخينة، يحملون أقفاصًا فيها نساء عاريات يصرخن من الألم. خمسة أقفاص تقريبًا، طول القفص الواحد لا يتجاوز نصف المتر، مغلف من الداخل بأسلاك مدببة، تمزق الطبقة العلوية من اللحم، كان الصراخ والبكاء جنونيًا، بينما الرجال المتنكرون يزدادون ضحكًا.

ـ يا إلهي، ما هذا الذي أراه؟

صرخت بالرجل الواقف أمامي.

ـ إنها اللذة، ألم تشعر بها من قبل؟ رائع أن ترى مخلوقات ضعيفة تتعذب، تناديك، تصرخ بك لكي تنقذها، وأنت لا تلتفت نحوها، لأنها قذرة ووضيعة، هذا في ذاته يشعرك بعظمتك وأهميتك.

«أيها الكلب القذر» قلت في نفسي، ظننتها حفلة تنكرية تنتهي بممارسة الجنس، لكنها حفلة تخريب وبتر للأعضاء البشرية. مروا على الطاولة المركونة في إحدى الزوايا، كان عليها العديد من الدبابيس،

السكاكين، الملاقط الحديدية، والأدوات الحادة بكل أنواعها، كل واحد منهم أخذ ما يروقه، تقدموا نحو الأقفاص التي وضعت في المنتصف، ثم أخذوا يدخلون الأدوات في أجساد النساء العاريات، عندئذ أصبت بصدمة حقيقية، ارتجفت أطرافي، «سحقًا، ما الذي جاء بي إلى هنا؟».

ضج المكان بالصراخ والبكاء، لم أستطع فعل شيء، خفت أن ألفت الأنظار إلي، حملت سكينًا صغيرة ولحقت بهم، اقتربت أكثر. كانت الأقنعة قد تلطخت بالدم، تمكنت من رؤية النساء اللواتي كن داخل الأقفاص، فاتنات، أجساد منحوتة باحتراف، عيون ملونة، شعر أشقر مطعّم باللون الأسود، يبلغن من الجمال حد تفكيرك في اغتصابهن وهن أموات، جثث باردة. أشفقت عليهن، بكيت من تحت القناع، اكتشفت فائدة له، لم ير أحد دموعي.

ماتت أربع نساء، الخامسة كانت في نزعها الأخير. نظرت إلي، حملقت بالقناع الذي كنت أرتديه، وكأنها تعرفت إلي، ثم حنت رأسها وأغمضت عينيها بهدوء. دقائق وإذا بالرجال أنفسهم الذين أتوا بالأقفاص، يحملون صحونًا من الفضة، مطعّمة بالذهب واللؤلؤ، سكبوا الدماء فيها ثم مزجوها في صحن واحد، قدموه لأحد الحاضرين، تحلقوا حول الرجل الذي يحمل الصحن بين يديه، ثم بدؤوا بالتقدم نحوه، كل واحد منهم كان يرشف رشفة واحدة ثم يستدير إلى أن انتهى الجميع، حينئذ شعرت بمدى الورطة التي وجدتني في عمقها، فكرت أنها لا بد أن تكون إحدى المنظمات السرية.

تغيرت الأجواء، توقفت الموسيقى، عاد الرجال الغرباء ليشكلوا نصف حلقة، ولّوا وجوههم نحو شرفة كانت تطل من الجهة الشمالية للمكان، شعرت بالخطر يرمقني بنظراته. من الشرفة أطل رجل واحد على الجمهور، تعالى صوت البوق، ثم سقطت رايات من الشرفات والنوافذ الداخلية. لم أسمع سوى صوت ارتطامي بالأرض، حاولت رفع رأسي، رأيت الدنيا تدور حولي، غبت عن الوعي، قلت في نفسي، لا بد أنها النهاية، هذه المرة سأموت.

(٦)

عندما فتحت عينيّ، وجدت نفسي في غرفة ضيقة وباردة، كأنها تابوت أو ثلاجة موتى، يتألف أثاثها من سرير حديدي وطاولة وكرسي. بين الفينة والأخرى كانت تشتعل نيران الكشافات كبيرة الحجم في وجهي، كان رأسي يتصدع ويكاد ينفجر كأن في دماغي ألف قنبلة موقوتة. بين حيطان بيضاء خرساء تفقد الإنسان صوابه وإدراكه، كانت الدقائق تمر ثقيلة ورتيبة. صمت ثقيل. ذرات من الضجيج تغزو دماغي. أصوات وصرخات تزحف من الغرف المجاورة. رائحة لحم محروق تلج إلى الداخل. جسدٌ تتخبّطُ ذراته الآدمية بين جدران لاهبة صماء. حواسّي راحت تضعف، وجسدي بدأ يذوب كشمعة في كاتدرائية. تململت في مكاني، كنت ممددًا على الأرض، شعرت بألم حاد في بطني، تكورت كامرأة أثناء الحيض. رحت أسترجع ما حدث لي، كنت

ذاهبًا إلى حفلة، اكتشفت بعدها أنها كانت تنكرية، وصدمت في النهاية أنها كانت خدعة، فلا هي حفلة تنكرية راقصة، تنتهي بالجنس كما كنت أعتقد، ولا هي جمعية خيرية. في تلك القلعة القديمة تجمع أعضاء إحدى المنظمات السرية، حاولت أن أفكر وأستجمع أفكاري، على الرغم من الصداع الحاد الذي كنت أشعر به.

كيف وصلت إلى هناك ؟

شعرت بتلف في دماغي، صداع رهيب راح يتكور في رأسي، لقد وقعت في الفخ، والآن سيسلخون جلدي، ويعرضون جسدي لصعقة التيار. عبثًا، حاولت الوقوف. فجأة، فتح الباب على مصراعيه، ودخل ثلاثة رجال، اثنان مقنعان وثالث مكشوف الوجه، أنهضاني ثم أجلساني على كرسي قبالة الطاولة. كنت أترنح على الجانبين، حاولت رفع رأسي والنظر إلى وجه الرجل، ما كنت أرى إلا أشباحاً، لم تكن الرؤية واضحة، لكني أدركت أنه بدأ العد التنازلي لتدميري، سأتحول إلى حطام يصعب تجميعه. وجدتني في عالم سائل، لا ملامح له، ولا دين له سوى المراوغة والإفلات.

وصل إلى أذني صوته، لم أفهم معنى كلماته، كنت ما أزال غائبًا، أطوف في عوالم أخرى، بينما جسدي يربض على الكرسي. رشقوني بالماء البارد، فانتفضت كطائر أصابه وابل من المطر.

ـ بماذا تفكر أيها الأبله؟ بالنساء، البحر، بلدك الضائع، أحلامك، إلهك؟

قلت في نفسي: هذه أسئلة أزلية، لم أتمكن من الإجابة عنها طوال حياتي، لقد بدأ اللعب بالأعصاب، إهدأ، ولا تدع القلق يستبد بك، وانتبه!

ـ أريد أن أشرب، أعطوني بعض الماء.

وضع يده الضخمة على كتفي، قال وهو يضحك برعونة.

ـ ما حاجتك إلى الماء؟ ستتحول إلى صفيح ساخن، اطلب من ربك الغني الذي لديه كل شيء، أن يبل ريقك بقطرة واحدة، ويهب لك من عطاياه الكثيرة، نحن إذ لا نشاء، إلهك القوي يتعمد عدم الإصغاء إليك، كأنه غير موجود.

قلت لنفسي: إنهم أغبياء، ماذا ينتظرون من إنسان لا يملك شيئًا ليخسره، بالعكس، إنه يتمنى الموت لينجو بنفسه من هذا العالم. تملكني إحساس غريب، شعرت به في تلك اللحظات عندما كنت أقف على الحافة، بين الموت والحياة، الهلاك والنجاة.

سحبوني إلى زاوية الغرفة، قيّدوني ثم أتوا بلفة أسلاك كبيرة، أوصلوها بجسدي الذي عروه عن آخره، لتبدأ رحلة العذاب مع الكهرباء، تعرقت، أزبد فمي، صرخت بلا فائدة.

أوقفوا جولتهم الأولى من التعذيب بالتيار الكهربائي، ساد الصمت من جديد، قبل أن يسألني الرجل القبيح مرة ثانية.

ـ هل تعرف كيف خلق الله الإنسان، وزرع فيه هذه النزعة العارمة إلى التعذيب والإيذاء وقتل الآخرين؟ ماذا قال حينئذ، هل تعلم؟

ـ وهل كنت عنده عندما نحت وخلق؟

كنت أشم رائحة لحمي المحروق، فتستيقظ في داخلي رغبة في الرجوع إلى سيرتي الأولى، طينًا بليدًا، لا يحس، لا يفقه، لا يتفاعل مع شيء، ماذا يريد مني هذا الملعون بهذه الأسئلة الفلسفية الحمقاء؟

ـ حسنًا، قل لي ما الذي حملك للذهاب إلى ذلك المكان؟ من الذي أرسلك؟ تعمل لأي جهة؟ عليك أن تجيب، ليس لديك مفر، لا تفكر في المراوغة، نحن لا نفكر مرتين، سنقتلك ونرميك للكلاب.

ـ لم يرسلني أحد، أتيت وحدي.

أمسك بعنقي ورفسني إلى الخلف، هويت على الأرض. كان الضرب حاميًا على كل أجزاء جسمي، صحت من شدة التعذيب: اقتلوني وأريحوني. اختفى الرجل دقائق ثم عاد والمسدس في يده، قال لي: ما هي أمنيتك الأخيرة؟ قلت: أن أموت، أطلق رصاصك في صدري. تلقيت رصاصتين في منطقة الصدر، لكني لم أمت. ألقوني عند مكب نفايات إحدى المدن الساحلية، لأنني شعرت بالنوارس تحلق فوقي، لا أدري، ربما حلمت بها، جاءت حافلة النفايات ورآني عامل نظافة، ثم حملني إلى المستشفى.

يبدو أنني لن أموت. هذا أمر مرعب أن يعيش الإنسان حياة أبدية، إنه أسوأ ما قد يحدث، أن تتوالد الأشياء وتتكرّر حد الابتذال، أن تعيش الحياة نفسها بكل ما فيها من شقاء إنساني غير مرة، لكن بشكل متراخٍ ومتمدد.

(٧)

قال يسوع لتلاميذه: اتبعوني. فتركوا أعمالهم وأسرهم وسمعوا كلامه. قال: من وضع يده على محراث ونظر إلى الوراء، لا يصلح لملكوت الله. كما جاء في القرآن: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول»، فاتبعه المؤمنون إلى السلم والحرب والصلاة. لكن من نتبع في هذه الحياة المعاصرة التي كثر فيها الأنبياء؟ أين يذهب الإنسان وكل الأرض منفى؟

رجل صعلوك نزق، بثيابٍ رثّة، يطوف في الشوارع والمنحدرات والجسور باحثًا عن موت لا يجيء. أتيت من الجبال، فمن يعلم من هو ابن الجبل؟ عنيد ومجنونٌ، وعلى استعداد لأن يخطف الشمس من كبد السماء، كما يقول العرب. كنت أقول لنفسي: ستكبر سيلينا متباهيةً بذكرى والدٍ كاتب ومثقف اختار الموت، لأن الحياة أصبحت فاسدة لا تستحق أن تعاش. هكذا ببساطة، ستنسى كل الرذائل والحماقات التي قمت بها، لأن لحظة الموت تمحو ما قبلها، إنها لحظة التنزيه ومسح ما سبق.

أشتهي موتًا عاديًا، بلا احترام أو وقار، أريدني جثة حقيرة تنتهي إلى قبر بلا شاهدة. ستكون تلك جثة كاظم اللبدي، الروائي المنشق عن العالم.

وبما أنه لا يوجد موت حتى تلك اللحظة، فقد اخترت التشرد على أرصفة المدينة، وفي محطاتها وحاناتها الرخيصة، لاهثًا وراء

الـمومسات، مطلق اللحية، متسخ الثياب، كريه الرائحة، أنام على فراش بائس، وأحتسي الكحول طوال الوقت.

أهو جنون أم أن التشرد كان خياري الوحيد؟ رحت أتخيل بإسهاب أحداث جنازتي، لو أن الموت فكّ إضرابه: سأنقل بتابوت عادي، ضمن موكب تشييع عادي، بحشد قليل من الناس، ومزيج من العادات الجنائزية الإسلامية والهندوسية والفرعونية، الغسل ثم التكفين ووضع العطور، انتهاءً بالحرق أو الدفن. عينا دافني المثبتتان على وجهي الضاحك، وهما غائمتان بالدموع، تنظر إلى الكابوس المرعب الذي انتهى. سيلينا وهي تبحلق في الصورة الكاملة للحمق والغرابة واللامبالاة. هل سيقطر وجهها حمرة من الخجل؟ والدها مات بطريقة مخزية، وعلى وجهه ابتسامة احتقار، كأنه يستهزئ بنا جميعًا.

سيقف حولي مشردون ورواد حانات حقيرة، وشعراء صعاليك، وسكارى، ومدمنو ماريجوانا. أخذتني هذه التخيلات إلى ليوناردو: هل سيكون سعيدًا بما حدث؟ هل سيتزوج دافني وتناديه سيلينا بـ«بابا»؟ سيقول لهم بأنني أستحق هذا المصير. وسيشعر القراء بالخيانة: كيف كان يحدثنا في رواياته عن جماليات الحياة وعن ضرورة الأمل ومقاومة البشاعة في العالم، ليخون كل القيم التي نادى بها؟ كيف استسلم بهذه السهولة وانسحب؟ ستنتقل النميمة، والأحاديث السوداء، والنكات الفضائحية، بين الصحفيين وأعدائي في الوسط الثقافي.

سأموت في غرفة بائسة، وحيدًا بلا أهل أو أصدقاء، وسط حي

قديم في فلورنسا، لتكون شاهدة على حياة عربي بائس، لجأ إليها هاربًا من ماضيه وتاريخه، فانتهى فيها. هذا التحول من شخصية لها بريقها ونجاحاتها إلى جثمان متشرد، يتقزز منه القريب قبل البعيد، بعد سنوات من البوهيمية والعبث.

انتهيت إلى لقب «ملك المتشردين»، «أمير السكارى»، وأصبحت صورتي في الصحف الإيطالية، نموذجاً للمتشرد العبقري الذي تحرر من قيود العائلة والعالم بالتسكع في الشوارع والحانات. ألتقي بعض الكتاب التافهين الذين يأخذون من أحاديثي ثيمات غريبة لقصصهم ورواياتهم. تخلّت عني دافني نهائيًا، كما أصبحت سيلينا تخجل مني أمام زميلاتها في المدرسة. الأب الطيب والمثالي، أصبح مجنونًا وكائنًا يجلب الاحتقار والذل، لذلك كانوا سعداء لابتعادي عن حياتهم، والتشرد في شوارع المدينة، حتى يجدوني ميتًا إلى جانب حاوية قمامة أو حانة رخيصة. إنه تحرر من المسؤولية إزاء رجل كان زوجًا وحبيبًا وأبًا ومبدعًا، فالمبرر كان جاهزًا: لقد اختار حياته، إنه ولد للتشرد، وليس للإقامة، إنها الحياة التي يستحقها.

حياة رديئة بطبيعة الحال، في الحظائر ومحطات القطار والأحياء الفقيرة، رغم ذلك كنت سعيدًا أشعر بغيرة الآخرين وحسدهم. لقد تحررت من عاداتي القديمة، لم أعد أكتب غير بعض النصوص في دفاتر متسخة، كما أصبحت أمارس رياضة التأمل في مياه نهر أرنو، وقمر فلورنسا الفضّي المعلّق فوق قرميد البيوت. أسترسل أحيانًا في

الضحك دون سبب، فأثير انتباه المارّة والعشاق الذين يقضون الوقت، بتبادل القبل وأكل الأصابع. أجول في السوق وأنا أصفّر وأغني أغنيات سوقيّة. تسمح لي العاهرات الطيبات بقرص صدورهن العامرة، والقيام بحركات ماجنة مثيرة للضحك، وقد أضاجعهن دون أن أدفع يورو واحداً.

أشتري من المدينة زجاجة خمر وأشربها ليلًا تحت أحد الجسور، مستمتعًا بخرير المياه والموسيقى التي تنساب من المطاعم والبارات. أخلع ملابسي وأضعها على الرمل، ثم أغوص في مياه النهر، أفرك جسدي، أفرك وأفرك، حتى يصبح أقل قذارة.

أغزو الغرب بالرمل الحار والعطور اللاذعة والبخور. كنت أحيانًا أقف فوق ربوة مرتفعة، ثم ألقي قصائد طرفة بن العبد وعنترة، أمام جمهور المتشردين الغربيين، الذين كانوا في المقابل يبارزونني بمقاطع من قصائد جوته ورامبو ودانتي. تواصل حضاري جميل بيننا نحن جماعة المتشردين، فشلت في تحقيقه الأمم المتحدة وكل دول العالم التي تدّعي التقدم والحضارة.

في مدينة دانتي أليغيري، لا شيء كان يخفف عني الوحشة، غير احتساء الكحول مع مهربي الحشيش، والنحيب الأشبه بعواء حيوان موجوع في ساحة «ريبوبلكا»، لينطفئ نهائيًا على الضفة الأخرى من النهر، لأدخل في موجة من الهذيان: «الدنيا غدّارة، تمعن في قتلك»، «ها أنا يا والدي الشيخ في بلاد الكفار والملحدين، إنهم يفسدون

في الأرض، هيا، لنقتلهم، أو نصلبهم، أو نقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف» «زنديق كل من يستخدم عقله على هذه الأرض»، «زنديق كل مهووس بالفن والحياة، أنا زنديق».

الأحاديث التافهة والقصص التي كنت أرويها لتسلية أصدقائي من المشردين: أنجيليكا، دانيلو، والمسكينة باولا. كانوا أقربهم إلي، فلم يفارقوني يومًا واحدًا طوال عامين من التشرد. نلتقي كل ليلة في فلورنسا القديمة، حيث تجتمع الأصالة ورائحة التاريخ بأوجه الحداثة والعصرية، الكنائس العريقة والمباني القوطية بمحال الماركات العالمية.

نتسامر، ونشرب حتى الهزيع الأخير من الليل، وعندما نصل إلى مرحلة السكر، كنا نرقص في الشوارع وندور حول كنيسة الدومو بقبتها الحمراء، نسير على خطى المجانين القدماء من ليوناردو دافنشي، ومايكل أنجلو، ودانتي، مستشعرين الدفء والنور الذي نشروه في المدينة: دفء الفن ونور العلم.

على الرغم من جهل أغلب المتشردين، إلا أنهم كانوا مدركين ثقافة المدينة الجمالية، حيث قضوا حياتهم في هذا المكان المليء بالتحف المعمارية، والساحات، والحدائق. لكن الجوع في بعض الأحيان كان يشتد، فنذهب لنأكل من المزابل وبقايا الطعام على قارعة الشوارع، فننقذ أنفسنا من الموت. أحيانًا، نجد خبزًا يابسًا، فنطهوه مع الماء الساخن. كان يوسف، أحد المتشردين المغاربة، يطبخ لنا

الطاجين المغربي مرة واحدة في الشهر، فنقيم احتفالًا وطنيًا بهذه المناسبة. نحضر راقصات غجريات وعازفين متشردين، ونظل نرقص حتى طلوع الفجر.

أمسيات فلورنسا، في الصيف، جميلة بالنسبة إلى المتشردين، حيث الموسيقى والرقص والخمر والنساء، عروض السيرك، فرق العزف في الساحات، المهرجانات الاحتفالية، الشيوخ يلعبون الورق على طاولات يضعونها تحت أعمدة الإنارة. النساء يثرثرن ويصدحن بالغناء. الأطفال يلعبون باللعب التي وجدوها في حاويات القمامة. الشباب يدخنون التبغ والحشيش ويتسامرون حول الحب. العشّاق يتبادلون العناق والقبل والهمس.

عند الجنون، تخلع إحدى الفتيات ملابسها، وترقص عارية تمامًا، تدور بجسدها حول النار برقصة إفريقية وحشية، يرقص في جسدها شيطان سكران. نهداها يتحوّلان إلى فراشتين، يغتسلان بضوء القمر، يلتفّان مثل أفعوانين، ويقفزان كأرنبتين مذعورتين. تهتف «ليبرتا، ليبرتا»، أي حرية، وهي منتشية بصراخها، وبتصفيق الحضور من الرجال والنساء.

نصفّق وأرجلنا تضرب بالأرض، لنثبّتها هذه الكلبة، ونمنعها من أن تميد بنا. حناجرنا تصدح بالغناء، «الغناء يطرد الأشرار» يقول المثل الغجري، ولدينا غجر وعرب وهنود وآسيويون وأوروبيون وأميركيون، يهتفون ويرقصون ويرفعون القبضات نحو السماء.

الفرح للامعنى واللاشيء، الفرح من أجل الفرح، الرقص من أجل الرقص، لا لهدف أو فكرة تشدُّنا من رقابنا كعبيد. يصرخ مجنون من جماعتنا: سنحرّر العقل بالجنون، ونهزم الخرافة. نشعل التبغ، وتدور علب البيرة على جماعة السكارى، وعند الفجر نتفرّق مثل النحل، ونبحث عن المغامرة في كل مكان.

كنا ننام إلى جانب النفايات الآدمية وبراز الكلاب، إخوة تحت سماء واحدة، مع الأطفال المتسخين، أصحاب السحنات البائسة، ونادرًا ما ننام في الخيام التي أقمناها تحت الجسور والأماكن الخالية.

إخوة رغم أننا من جنسيات وثقافات مختلفة، لم يكن يشغل بالنا أي إله، ولم نقتل بعضنا بعضًا من أجل عقائد فاسدة، ولم نقدّس أشخاصًا أو أفكارًا أو أوطانًا. قلنا وقبضاتنا مرفوعة: سننكح هذه الأرض لننْجب عالم العدل والمساواة، سنتخلص من الفقر، لن يكون هناك أطفال جوعى أو مرضى أو معطوبي حروب. سنفترش الأرض بالحب والشعر والعقل، سنحرّم السيف والرصاصة فكل حرب قذرة.

يقال إن الفتيات الثرثارات، يتحدثن في أمور كثيرة، لا أهمية لها، لكنها تدخل البهجة إلى القلب. كانت أنجيليكا عندما تفرح تتحول إلى طفلة، تتحدث في كل شيء. الحقيقة أنها قد تكون أحاديث تافهة، لا مشكلة في ذلك، فالعالم مؤثث بالتفاهات، وليس كاملًا. المهم، أنها كانت صادقة وتتحدث من قلبها، غير مثالية، وأقرب إلى حقيقتنا: كائنات وحيدة، تؤثث حياتها بأحاديث غير مهمة، لكنها ضرورية، لأنها

تجعل العالم أقل بشاعة. وكانت كثيرة الضحك، تضحك أحيانًا دون سبب، كرد فعل على الجانب المثير للضحك في الحياة. إنه اللاوعي المُنتشي بالسخرية، مقابل الجديّة الزائفة وعديمة القيمة. لا بد لي أن أذكر أنها تعرضت للاغتصاب من والدها ما دفعها للهرب، ثم خلال حياة التشرد تعرّضت للاعتداء الجسدي من أبناء العائلات الميسورة، لذلك كانت رغم الضحك والرقص والغناء فتاة مكسورة، مهزومة من الداخل.

(٨)

ذات مساء جاء إلي أحد المتشردين، وأخبرني أنها تعرضت للضرب من أحد اللصوص الصغار، حيث كسر أسنانها وخلع كتفها، ثم قام باغتصابها وهي غارقة في دمها. قالوا لي: لا بد أن ننتقم. أنت عربي وتعرف استخدام السكين، ستغلبه بضربة واحدة. علينا أن نوقفه وإلا اعتدى على جميع نسائنا.

اشتريت سكينًا من بائع هندي، وذهبت إليه حيث يجلس يحتسي الخمر ويدخن الحشيش في حديقة كاشيني. كان الوقت مساء، احتشد المكان بالعاهرات واللصوص والمدمنين والكلاب الشرسة.

ـ هل تريد أن أنكحك أيها العربي، كما فعلت مع عاهرتك؟

بدأنا العراك. كان ضخم الجسم، لديه يدان قاسيتان وصلبتان. وجدت نفسي أراوغه وأحاول الإفلات منه، بدلًا من ضربه بالسكين.

ضربني على وجهي، فقدت توازني، فسقطت على الأرض، تراجع أصدقائي من المتشردين. تركني أصرخ وأنا أتلوى من الألم، تدفق الدم والقيء من فمي، حملوني وركضوا بي بعيدًا عن المكان.

ـ لا بأس. كدت تسحقه، لكنه كان أقوى منك.

أما دانيلو فقد كان طويلًا، لا يخلع معطفه الأسود القذر، ولا يحلق ذقنه مهما أصبح غزيرًا، ومن حسن الحظ أنه لم يكن عصبيًا، بل هادئًا وطيب القلب، ولديه روح الإيثار في الجماعة. كان يعمل محاضرًا جامعيًا في الفلسفة، إلا أنه وصل إلى طريق مسدود في حياته الشخصية والمهنية، تخلّت عنه عائلته ولم تمد له يد المساعدة، فوجد نفسه متشردًا. أثناء النهار يحمل حقيبة على ظهره، فيها قداحات وهدايا وروايات ليبيعها، في الليل يحتسي الخمر ويغني ويبصق في كل مكان.

كل ليلة، يحضر إلينا من مكان لا نعلمه زجاجة خمر، وكان لطيفًا معي، يحضر لي الكتب من أصحاب المكتبات. ذات صباح، وجدوه ميتًا في زاوية من زوايا السوق، كان غارقًا في دمه وبيده زجاجة نبيذ فارغة. لم ينتبه إليه سوى العجوز بائع التبغ والقداحات، بينما كان السوق مزدحمًا بالباعة والناس، فلولاه لتعفّن وتفسّخ جسده دون أن يعلم به أحد.

ـ لقد مات نبي هذا العصر.

ـ لقد مات النبي.

ورددت الجوقة، وانهمرت الدموع على الوجنات، وتعالى الصراخ

في كل مكان مرّ به «دانيلو النبي». كنّا نناديه بـ«النبي» لأنه كان يدعو إلى شريعة جديدة: شريعة الحب والثرثرة والخمر والغناء والرقص. كان يقول إنه جاء إلى جماعة المتشردين ليحقق لهم السعادة، ويخلع عنهم أقنعة الزيف والكذب. ارقص عندما تشعر بالرغبة في الرقص، وحين تشعر بالرغبة في الغناء أو العزف فافعل ذلك، وإن أحببت امرأة وبادلتك المشاعر، فخذها إلى السرير ومارسا الجنس بوحشية.

وعندما كنا نسأله الأسئلة التي اعتدنا أن نسألها في زمن ما إلى رجال الدين: من أين انبثق هذا الكون؟ ما الغاية من الحياة؟ ما معنى الموت؟ أين الله وما هي حكمته الغامضة؟ هل نعيش في فوضى وعبث أم في نظام ومعنى؟ كان يقول وزجاجة الخمر ترقص في يده: من الغبي الذي يعرف الأجوبة؟ إنها أسئلة خلقت لتسأل، كما خلقت الحياة لنعيشها، أما أصحاب الأجوبة فليس لنا علاقة بهم. لقد شرّدتنا الأسئلة والعالم الأحمق الذي لديه جواب جاهز عن كل سؤال.

كان بالفعل حكيمًا ونبيًا في فلورنسا، الكل يحترمه حتى اللصوص ومدمنو المخدرات والعاهرات القذرات، موهوبًا في لعب الورق والعزف على القيثار ونشر المرح في روح الجماعة.

كان يقول لنا في السّهرات: الإنسان لا يستطيع التخلص من الوهم، يأتي إلى عالم مليء بالشكوك، ويموت في هذه الأرض المرتبكة. وما يسمونها «معركة الحياة» ما هي إلا وهم، إنها الخديعة، ثمة أشخاص يموتون مثل الحيوانات، من غير غاية واضحة، إضافة إلى الميتات

البشعة أو تلك غير الكاملة. «البشرية تختنق والخراب ما سيأتي» والتي تبدو كنبوءة، كانت أكثر عبارة مرعبة قد سمعتها في حياتي.

كان أحيانًا يقرّبني إليه، ويهمس في أذني:

ـ هل تعلم؟

ـ ماذا؟

ـ أن الإنسان أصبح فاسدًا، لأنه فقد السر.

ـ سر!

ـ نعم، المعنى والهدف.

ـ تقصد الهدف من الحياة، والمعنى من الوجود؟

ـ صحيح.

ـ وهل وجدته؟

ـ أن تعيش سعيدًا، خفيفًا، عاقلًا، دون أن يكون هذا على حساب سعادة الآخرين وحقوقهم وحرياتهم.

ـ هذا في منتهى العبث. لا بد أن هناك معنى أعمق وراء وجودنا. أن نبني هذه الأرض ونترك أثرًا، أن نعبد الله خالق هذا الكون. الآن، أنت تتحدث في مذهب اللذة لأبيقور.

ـ لقد قلتها: العبث. الحياة المعاصرة فارغة، رتيبة، لا طعم لها، ستُنسى مثل أي حيوان على هذه الأرض. ستمحى آثارك، فالكون ذاهب إلى الدمار الكلي والعدم. قلت أن تعيش سعيدًا، وهذا يشمل فعل الأشياء التي تحبها: تبدع، تكتب، ترسم، تعمل، تتشرد. أدعو هنا

إلى أن يكون الإنسان نفسه، يحقق رغباته الذاتية، وليس رغبات وهمية تصنعها قوى وأناس من خارجنا.

ـ يا إلهي، أنت عدمي، ولا ترى أن ثمة هدفاً من وراء وجودنا.

ـ لأني عدمي يا مجنون، أعطي الأولوية للوجود، نحن من نصنعه بأيدينا، إما جميلاً وإما قبيحًا، أتحدث عن هؤلاء المهرولين، الساعين خلف السراب: المظاهر، الأموال، المناصب، الشهرة، النجاحات الزائفة. ولا يلتفتون لحظة إلى ما هو حولهم. نحن نتأمل هذا الوجود ونحياه كما نشتهي.

كان عدميًا، يرى أن صراعات البشر لا معنى لها، لأن مصيرهم في النهاية هو الزوال والاندثار، فحروبهم وصراعاتهم عبثية، وتعبير عن حمق وطمع بشري. كان يعتقد أن المبدعين وحدهم قادرون على تحرير ذوات البشر عن طريق تحرير العقل البشري بالعلم، وتحرير الروح من قيودها بالفن.

أقمنا له جنازة متواضعة، نحن معشر المتشردين، أشعلنا شمعتين، ووضعنا على جثمانه باقة من الزهور الرخيصة، ثم دفناه مثل كلب نافق في الغابة. كان خبر موت «دانيلو» يزيد من استهلاكنا للخمرة، لعلها تخفف من عذابنا، لكن عبثًا، كان رحيله قاسيًا، ولم نتجاوز غيابه بسهولة.

أما باولا، فقد كانت أم من لا أم له، تعتني بأطفال المتشردين حين يذهب الكبار إلى السوق لإحضار الطعام، وتقف إلى جانب

الكبار حين يصيبهم المرض. أطلقوا عليها لقب «الأم الروحيّة» كان الجميع يحترمها بمن فيهم مدمنو الماريجوانا والمجرمون واللوطيون والسحاقيات. رومنطيقيّة، تحركها عواطفها إزاء كل شيء، لذلك كانت معرّضة للانكسار أكثر من غيرها، لأنها ببساطة طيبة القلب، وهؤلاء هم أكثر الناس حزنًا في العالم. كانت تقدم النصائح لكل أفراد الجماعة، تقول للمرأة الحامل: إن كنتِ تبحثين عن اسم لمولودك الجديد، فليكن سهلًا وقابلًا للنسيان. وكانت تقول لنا: الوقت الذي نقضيه في صناعة الفرح بالأشياء البسيطة، هو كل ما سيتبقى لنا.

ماتت باولا المسكينة في عز الشتاء. وجدناها مختبئة داخل سترتها الواسعة، متكورة على نفسها عند زاوية مطعم «McDonald's». قالت لنا: سأذهب لإحضار الطعام من أجل الأطفال. لم تعد فخرجنا نبحث عنها، لنجدها متجمدة تحت الثلج دون أن يلتفت إليها أحد من المارة.

ثمّة متشردون سيئو السمعة، خطرون، سارقون، مغتصبون، كاذبون ومشعوذون. كان «إيفانوف» الملقّب بالزعيم، روسي الأصل، معروفًا في العالم السفلي لمدينة فلورنسا، بأفعاله الإجرامية واغتصابه أطفال الغجر والفقراء. ضخم الجسم، تنتشر على طول جسده الندوب والجروح، لديه عينان جاحظتان، وشعر طويل أشعث. أنجبته أمه على عتبة إحدى البنايات السكنية في مدينة سانت بطرسبرغ، في ليلة من ليالي روسيا الباردة.

نهشت الكلاب الضالة مشيمة الأم، وكادت تقطع يد إيفانوف

بأنيابها الحادة، لولا شراسة الأم ودفاعها المستميت. ولد جائعًا، ولم يشبع من حليب أمه التي كان صدرها هزيلًا ومنكمشًا نتيجة سوء التغذية. ماتت إثر اغتصابها من خمسة متشرّدين أوباش، حينذاك كان في التاسعة من عمره. سرق من الأسواق وجيوب العجائز وحقائب الأطفال الخارجين من المدارس، كان يؤجّر مؤخرته للوطيين في ليالي الحاجة، ليشتري معطفًا رديئًا وخبزًا وعلبة كبريت.

في العشرين من عمره، أصبح يخطف طفلات صغيرات ليمتهنَّ الدعارة، يمارسن الجنس في الحدائق والأوكار ومجاري المياه وقارعة الأزقة الخالية من المارة. لا يأخذن مقابل ما يجنين من المال سوى طعام رديء، عبارة عن ساندوتشات، إضافة إلى بعض الملابس الداخلية، التي كان يشتريها لهن من سوق يوم السبت، لضرورات العمل.

تربى في شوارع «بطرسبرغ» حتى جمع بعض المال، ثم رحل بسطوته وإجرامه إلى إيطاليا، ليترأس إحدى العصابات الخطيرة في مدينة فلورنسا، وهي عصابة من الدرجة الثانية، يتوزع أعمالها على عمليات القتل وتهريب المخدرات وبيع الأعضاء البشرية وخطف السيَّاح. كان يطمح أن يكون زعيم المافيا الإيطالية في مقاطعة توسكانا، وعاصمتها فلورنسا.

أصبح يعرف كل حي وشارع وزقاق، كما عرفه كل مجرم ومتشرد وصاحب دكان وعامل في السوق.

بذيء، لغته خشنة، يقول دائمًا التفاهات، وتكاد اللعنة لا تغادر لسانه. كان يخاف من الشرطة، لأنها تحمل له رائحة السجن، يفضّل أن يظل في الأماكن المظلمة، وأكثر جولاته وصولاته تكون أثناء الليل. كنا نخافه لأنه لا يرحم، ولديه رجال وحوش، رغم أنه أكبر منا نحن المتشردين المساكين، إلا أنه كان بحاجة إلى بعض الخدمات الصغيرة، التي يمهر بها الصّغار: صغار المتشردين، صغار اللصوص، صغار المدمنين وبائعي المخدرات، الشحّاذين. كان لديه جيش احتياطي من هؤلاء الصغار، الذين يتحولون إلى وحوش مروّضة من الزعيم «إيفانوف» بالخوف والترهيب.

أثناء حياة التشرد التي استمرت عامين، تعلمت الكثير من الأشياء، التي لا يمكن أن يتعلمها المرء في المدارس: أحببت الأشياء العابرة، المرتحلة، اللامنتمية إلى مكان أو زمان، لأنها مريحة والأكثر جمالًا. لا تترك جرحًا أو أثرًا، لأنها ببساطة لا تقيم بما فيه الكفاية، تعبر فوق الأماكن واللغات والعقائد والأفكار. لها إيقاعٌ هادئ، لا وقت أن تدخل معها في علاقة عاطفية، وتجعل لها ذاكرة خاصّة، فلا ألم ولا ندم، كما أنه لا أحد يأخذ بثأرها منك. الشيء الراحل أجمل من الشيء المقيم، يذهب بخفّة بخلاف المتشبّث بمكان إقامته، ذلك الثقيل المنتمي.

أصبحت أكثر بساطة. أتلصّص على امرأة تجهّز الغداء لزوجها، وأكتب أشياء غير مهمة على أوراق أحصل عليها من الطلبة الذين يدرسون في الحدائق. صرت مريضًا بالتفاصيل وملامح الحزن في

وجوه النساء.لم أكن أكثر من شيء يُنسى بمرور الوقت، مكرّر ومبتذل مثل صورةٍ في البطاقة الشخصيّة.

كنت محمومًا لأقنع هذا العالم، بأن كل ما يفعله من دون جدوى وبلا معنى. أما الحب فلا شأن لي به، كنت أعرف كيف أنهض من الجرح بأناقة، حينما يتبرعم الحزن في قلبي، كما تخلّيت عن فكرة تغيير العالم، والتطرق إلى القضايا الكبرى، صرت مشغولًا بملاحقة القمل وقطط الشوارع التي تسرق العشاء حين أغفو.

أصبحت أحلم بغرفة صغيرة، صالحة للحب وممارسة أشياء تافهة من وجهة نظر العالم. غرفة بأثاث متواضع، أستطيع أن أنام فيها عاريًا، أكتفي بالتهام الكتب ذات الأغلفة الجذابة، وأصابع حبيبتي على العشاء. لم أكن أريد من هذا العالم البائس، سوى غرفة صغيرة وكتب وامرأة مجنونة.

(٩)

رفعت رأسي الذي كان مزروعًا في الرمال الحارة، ونظرت حولي بعينين ممتلئتين بالذعر. رأيت المنازل الفلورنسية تبتعد حوالى كيلو متر واحد، حينئذ أدركت أني خارج المدينة. مشيت وسط الأشجار نحو الشارع الرئيسي بينما كنت أرجف وأتصبّبُ عرقًا، وضعت كلتا يديّ على وجهي لكي لا أرى ضوء الشمس. كنت مرعوبًا، شعرت بأن لا جسد لي، لم أسمع وقع خطواتي على الأرض، ولم أترك خلفي أثرًا

على الرمل، كنت خفيفًا، كأن لا وزن لي. خيل إلي أنني كائن هلامي، طيف إنسان فقط، ولأتأكد من ذلك، رحت أصرخ عدة مرات، إلا أن صرخاتي كانت خافتة كأنها انبثقت من عالم قديم وبعيد، ليست أكثر من صدى، وحين مررت بجانب ثلاثة طيور، لم تهرب بل التفتت نحوي واكتفت بالتحديق بنظرات لامبالية، كأني غير موجود.

عندما وصلت إلى الشارع، رحت أرفع يدي للسائقين، إلا أن أحدًا منهم لم يلتفت، فضلاً عن ذلك، ألقى أحد الركاب علبة عصير من نافذة إحدى الحافلات، لكني لم أشعر بها. رحت أرتجف أكثر، رميت بنفسي أمام إحدى السيارات، فاخترقتني ولم أتعرّض لأي أذى.

انتبهت إلى جرح في الجانب الأيسر من صدري، أدخلت فيه إصبعين، لكنه كان جافًا، فلم ينزف قطرة دم واحدة. نظرت إلى العالم من حولي، بدا لي غير مألوف، غريب، كأنني فقدت اتصالي مع الأشياء. خيل إلي أنها صور ذهنية وليست محسوسات، حواسي تفاعلت معها على هذا الأساس، كانت مائعة، تتسرب من بين الأصابع. أنا هنا، أحاول أن أصف ما شعرت به، والتغيرات التي مررت بها، مستخدمًا أقصى قدراتي، رغم أن الأمر على قدر كبير من الصعوبة، لا أجد الكلمات المناسبة، بالتأكيد كان عالمًا حقيقيًا، أقرب إلى الحلم منه إلى الواقع. والدليل أن الأشياء التي تؤثث هذا العالم، لم تكن تختفي وتتلاشى، بل تحافظ على هيئتها وطبيعتها الهلامية.

أخذت بالمشي بين السيارات، وعندما اقتربت من المدينة بدأت أشاهد الناس، لكن نظرتي نحوهم كانت مختلفة، لم أشعر أني أنتمي إليهم، كانوا كائنات غريبة بالنسبة إلي، بمعنى أني رأيتهم كيانات لها ثقلها، هويتها، قوالبها، في حين أنني كنت أشعر بأنني متحرر من كل هذه الأشياء. مررت بالجالسين على المقاعد في الحدائق العامة، وقفت أمامهم وقمت بحركات بهلوانية، أرقص، أبصق، لكني لم أثر انتباههم.

صعدت إلى إحدى الحافلات المتوجهة نحو مركز المدينة، دخلت أحد المقاهي، شربت فنجان قهوة وخرجت دون أن أدفع الحساب، كانت الأمور تجري بسهولة وبصورة طبيعية، حتى رأيت امرأة بين حشود المارة على أحد الأرصفة، تنظر إلي وعلى وجهها ابتسامة ساحرة. ركضت خلفها، نزلت إلى الممر الأرضي فتبعتها، كدت أفقدها إذ أخذت تمشي بسرعة.

عندما خرجت من فوهة الممر الأرضي، رأيت العالم استحال إلى ظلام دامس، كل الأشياء كانت غارقة في الظلام، ولم أستطع أن أرى أمامي، رحت أمشي بخطوات حذرة، وشعرت بضيق في التنفس. فجأة، أصبح الهواء ثقيلاً، والأرض احمرّت كالجمر، ولم أعد أشعر بأي شيء، مررت بعشر ثوانٍ من تبلد المشاعر والإدراك وتوقف الوعي، تحررت أكثر من ذاتي، أصبحت متماهيًا أكثر في الحلم أو العالم غير الأرضي، ثم مشيت خطوتين نحو الأمام. وجدت بابًا خشبيًا ضخمًا،

عليه رسومات وشعارات غير مفهومة، حاولت دفعه بكلتا يديّ، إلا أنه كان صلبًا وثقيلًا. بعد عدة محاولات، انفتح الباب لأرى عالمًا غارقًا في النور، بدا لي جنة حقيقية: الأشجار، والورود بأنواعها، القصور، إضافة إلى الرائحة الجميلة التي انبثقت فملأت أنفي.

فجأة، رأيت والدي الشيخ عثمان يرتدي العمامة وثوبًا أبيض، بينما كانت أمي تجلس إلى جانبه، وعلى وجهها ابتسامة غامضة، كذلك رأيت دافني وابنتي سيلينا تجلسان إلى جانب بركة ماء، وحولهما قططة شيرازي. حاولت التقدم خطوة واحدة، فغرق هذا العالم في الظلام كما حدث في العالم الخارجي، وبعد لحظات سمعت صوت الباب يغلق بقوة.

لم أعرف ماذا علي أن أفعل، بقيت واقفًا في مكاني، ظلام دامس، صمت مطبق، هواء ثقيل، رائحة عفونة كأنها لأجساد بشرية. بدأت أتلمس طريقي بحذر، أمشي بمحاذاة الجدران. لم أكن أعرف أين مكاني، أما زلت في المدينة أم أصبحت في مكان آخر. بعد ربع ساعة، من المشي في الظلام، وسط الذعر والترقب، رأيت ضوءًا ينبعث من مكان بعيد. بدا لي شعلة نار، تتراقص في الأفق، هل كنت في صحراء؟ بدأت بالمشي نحو الشعلة، كان الضوء الوحيد في عالم غارق في العتمة الحالكة.

ظننت أن الأمر لن يستغرق أكثر من دقائق، لكن الذي حدث أنني كنت أمشي بينما أخذت الشعلة تبتعد أكثر، بدا لي أنها تحافظ على

المسافة نفسها، أتقدم خطوة بينما تتراجع خطوة، وهكذا. علاقتي بالوقت والمسافة كانت مضطربة، وليست كما يخيّل إلى المرء في العالم الواقعي، ثمة التباس ما، الوقت يقصر ويطول حسب مزاج خاص، كذلك المسافة، لا يوجد أي منطق أو علاقة تحكم هذه الأشياء، وكأن لها، كما قلت سلفًا، مزاجاً خاصاً بها. واصلت السير، وعندما بدأت أخيرًا بالاقتراب من الضوء، شعرت أن الفرح يغمر هذا العالم، والأشياء تقترب من جديد لتأخذ شكلًا.

رأيت كوخًا غريب الشكل، لم يسبق لي أن رأيت مثله، وكانت أشعة الضوء تتسرب من زجاج النوافذ. كان الباب حديديًا، والصمت يطبق على المكان، رحت أطرقه، فأصدر صوتًا يشبه الأنين، كأنه كائن حي لديه القابلية للألم انتظرت عشر ثوانٍ قبل أن يفتح دفتيه. لم يكن الكوخ من الداخل غارقًا في الظلام أو النور، بل كان في مكان وسط بين الأمرين، وجدت طاولة، وكراسي، أرائك، خزانة للنثريات، كلها يعلوها الغبار كأنه لم يدخل الكوخ إنسان منذ عقود.

سمعت وقع خطوات ثقيلة على الدرج، تتقدم شيئًا فشيئًا باتجاهي. نظرت بفزع إلى الفراغ الممتد أمامي. جحظت عيناي بانتظار المجهول الذي سيخرج من الظلام، شعرت حينئذ بالخوف، لم أهرب، بقيت جامدًا في مكاني، فقط أغمضت عينيّ، وحاولت أن أرتكز على أحد الكراسي. لو أنني كنت جسدًا كاملًا لانهرت، ووقعت على الأرض، لم أشعر بقلبي، كان ثمة فراغ كبير، راح يتمدد داخلي.

الخطوات صارت أقرب، أشعر بيد ثقيلة على كتفي، أسمع صوته الخشن القادم من عصور قديمة: وأخيرًا أتيت، كنت بانتظارك.

كان شيخًا طاعنًا في السن، ملامحه غير واضحة، يرتدي ثيابًا منسوجة من الأعشاب ولحاء الشجر وجلود الحيوانات، ويضع حول رقبته قلادات من الخرز، شعر صدره غزير، جسده هزيل رغم أن له أطرافًا ضخمة، لديه عينان غائرتان، عميقتان، باذختان بالسحر والأسرار. كانت تضيء المكان شعلة نار معلقة في زاوية الصالون، رأيت شفتيه تنفرجان ثم تنغلقان، دون أن يصلني أي صوت، كانت نظراته الحادة تسبق كلماته، بعدها أدركت أن الصوت يحتاج إلى بعض الوقت حتى يصل على الرغم من قرب المسافة.

ـ هل تعلم أين أنت؟

ـ لا، لكن يبدو لي أنه عالم الأحلام، أو أي عالم هلامي آخر، على كل حال إنه ليس أرضيًّا.

ـ أنت في عالم الحقيقة، ذلك الذي بحثت عنه طوال حياتك.

ـ لم أفهم! أين أنا؟ لا وجود لأي حقيقة على الأرض، بل أكاذيب نتمادى في تكرارها وندفع أنفسنا إلى تصديقها.

ـ أنت في عالم الأموات.

قلت بصوتٍ لا يشبه صوتي: لا أذكر أني مت. حاولت أن أخفي الخوف والذعر، لكني لم أنجح.

ـ لقد مت، رميت بنفسك عن الجسر القديم (البونتي فيكيو).

كنت لا ترى سوى القتل والانتقام والأخذ بالثأر، كان عقلك مغيّبًا، لذا طبيعي ألا تتذكر.

ـ هذا معناه أننا أموات؟

قال بعد أن وضع ساقًا على ساق، وأشعل سيجارة: نعم، نحن أموات.

ـ لكن هذا العالم يبدو غارقًا في الظلام والصمت، لا نور، لا موسيقى، لا حركة، تصورت أن عالم الحقيقة أكثر صخبًا، ثم أين بقية الأموات؟ لم أرَ غيرك في هذا السديم.

ـ في عالمنا لا يوجد أسئلة، ينبغي لك أن تبحث وتفكر وتستنتج، ثم من قال لك إنه غارق في الظلام، إننا فقط في النصف الأخير من الليل، وأنا هنا من أجل استقبالك، عندما ينبلج ضوء الفجر، سترى كم أن عالمنا جميل. قل لي، ما أخبار العالم الذي أتيت منه؟ إننا نستعد لاستقبال المزيد من القادمين، إذ إن عالم الأحياء على موعد مع حروب مدمرة، ستكون حرب الكل على الكل، قتل دون رحمة، الخراب ما سيجيء، وما وقع ليس سوى حروب صغيرة.

ـ أنت متشائم.

ـ قلت لك أنت في عالم الحقيقة. يشعر الإنسان بأنه منبوذ وغير مرغوب فيه ضمن المجتمع البشري، لذلك يعيش في وحدة شديدة، والحل للخروج من هذا الشعور، هو إشاعة الخراب عبر إشعال الحروب والصراعات، لأنها تدفع جميع أفراد المجتمع إلى التضامن.

ـ هل في داخل الإنسان بذرة العنف، أم أن العالم يزرع فيه هذه الميول لسفك الدماء؟ من أين يأتي كل هذا العنف؟

ـ الإنسان ينجذب إلى العنف، كأنّ طاقة القتل والتدمير مزروعة داخله، لكنها تخرج في الوقت المناسب، والسلطات تحاول أن تقنن هذا العنف وتشرعه، إنها تقول للبشر في كل يوم: هذه أمور طبيعية. وتدفعهم إلى التعايش معها، وعدم رفضها. الجريمة هي من الأعراض الجانبية للحضارة، يا للسُّخف! العالم الذي أتيت منه مأسوي لدرجة الضحك.

أضاف: القتل هو القتل، والحرب هي الحرب قذارة وخطأ فادح، مهما كانت المبررات والشعارات. الحروب لا تتوقف، نهاية أي حرب هي بداية لحرب جديدة، وحياة الإنسان ليست أكثر من نكبات.

ساد صمت بيننا، ربما استمر دقيقة واحدة، قبل أن يقول: لماذا قتلته؟ هل تعتقد أن العدالة في الانتقام؟ كان بوسعك أن تسامحه.

ـ ماذا؟ أنا لم أقتل أحدًا.

ـ بلى، انظر إلى يدك.

نظرت إلى يدي، فأصابني الفزع، كانت ملطخة بالدم. قفزت عن الأريكة صارخًا، بينما ظل الرجل الغريب جالسًا، يحدّق إلي بعيون فارغة. عدت إلى الجلوس، وبصوت خافت راح يروي لي قصة حياته، بأحداثها وتفاصيلها: ترجع أصولنا إلى آسيا الوسطى، وانتشارنا في الأميركيتين حدث في أواخر العصر الجليدي الأخير، أي منذ ١٦

ألف عام إلى ١٣ ألفاً، لا أعرف الرقم بالتحديد، إننا نتحدث عن هجرة حدثت قبل عشرات آلاف السنين. قاومنا الاستعمار الأوروبي، الأميركي لبلادنا طوال قرون، وأنا واحد من القتلى الذين سقطوا في مذبحة الركبة الجريحة عام ١٨٩٠م، التي أنهت عصر المواطنين الأصليين. استخدم ضدنا أبشع الأساليب والطرائق الوحشية، تعرض شعبنا للقتل بالرصاص والذبح والضرب حتى الموت، خطفوا أولادنا وبناتنا للعمل في الحقول والمناجم، ثم قاموا بتوجيه آخر رصاصة بقتلنا ثقافيًا، حيث تم تصويرنا كمتوحشين، آكلين للبشر، محاولين طمس الحقيقة، بأننا شعوب مظلومة سلبت أراضيها وحياتها. حضارة الإنسان الحديث، والحياة المعاصرة بما فيها من ديمقراطية وحريات، والمدن الصناعية، قامت على أنقاض شعوب كان لديها حضارتها وتقاليدها وفهمها للحياة. هل تعرف ماذا يسمي الإنسان المتحضر هذه الإبادة الجماعية؟ إنها أعراض صحية للحضارة. كنا نعظم الأخلاق والصدق والشفافية، ونعلي من القيم الروحية والإنسانية، ولم تكن تعنينا الماديات والمصالح الشخصية، وكانت مجتمعاتنا أمومية، للمرأة فيها مكانة عالية تصل إلى درجة التقديس. بسطاء، قلوبنا ممتلئة بالطيبة، نحب كل البشر، لا نعرف الاحتيال ولا الخداع ولا الطمع، لا نقتل بعضنا بعضاً، نعيش في حب ووئام. لم تكن لدينا خبرات عسكرية لأننا لم نشن حروبًا ضد أحد، غزوات قليلة يتدخل فيها رؤساء القبائل ويعود الأمان والسلام. تخيّل! لم نكن نستخدم مفردة الحرب، كانت

دخيلة على بعض القبائل، في حين كان الغزاة الأوروبيون يملكون القدرات والخبرة والحيلة العسكرية، فاشتعلت هذه الحرب غير المتكافئة، قاومنا وحاربنا، ولم نظل صامتين، لكن في كل معركة كنا نتعرض للقتل والحرق وقطع الرؤوس. بعد كل معاهدة صلح، كانوا يبعثون إلينا ببطانيات خاصة من المصحات الأوروبية، مستعينين بالأطباء والخبراء، كانت البطانيات مسمومة، مليئة بالجراثيم التي تسبب الأمراض لتحصد أرواحنا حصدًا. هل تعرف هذا؟

نظرت إليه مندهشًا.

ـ لا، لم أكن أعرفه.

ـ لأنك كنت تنظر بعين واحدة، المركزية الغربية أصابتك بالعمى، لقد جعلوك تابعًا للثقافة الغربية، عالمًا بها، وجاهلًا بغيرها، مسخًا من غير هوية أو حضارة، أن تقيم مجتمعات حديثة بتصورات معينة، هذا لا يعطيك الحق أبدًا في تدمير غيرك من الشعوب والمجتمعات، التي لها هويتها وتقاليدها.

ثم أضاف: لا تخف، إنك في عالم الحقيقة، أصبحت واحدًا منا. لا تشغل بالك، لن يقتص منك ذلك الذي قتلته، هنا لا قتل، لا حروب، والأشياء ترجع إلى أماكنها الصحيحة.

لم أفهم شيئاً، عبارات غريبة، كنت أشعر بالحيرة والارتباك.

سألته: هل يوجد هنا حياة أبدية، حيث لا موت؟

ـ هنا لا يوجد حياة، بل موت يسلّمك إلى موت آخر، هكذا، قد

تموت ملايين المرات، لكنه مريح وغير موجع، والموت هنا ليس كالموت الخاص بعالم الأحياء، إننا ننتظره في كل لحظة، نتمناه، إنه جميل وبمثابة ولادة جديدة.

ذهب إلى مسجلة كانت موضوعة على طاولة خشبية في الصالون، أدارها على إحدى المقطوعات الموسيقية الراقصة، بدأ بتحريك رجليه، رفع كلتا يديه، بأسلوب متناغم، هتف بي: «هيّا، ارقص، الرقص هو الشيء الوحيد الذي تجده في كل العوالم، إنها لحظات الجنون الأجمل، حيث تنسى نفسك، وتندغم بكل حواسك في هالة من البهجة اللذيذة، لا قلق، لا تفكير».

حدّقت إليه بعينين فارغتين، لم أتحرك، تحرّك نحوي وأخذ بيدي.

ـ ما اسم هذه الرقصة.

ـ إنها رقصة النسر الطائر.

ورقصت بقوة وأنا منتشٍ بحريتي، شعرت بأنني أحلق بوقار النسر واتزانه. أخذ الرجل الغريب بالغناء، ووقعت فريسة هذا الثالوث الجميل: الرقص، الغناء، والموسيقى.

فجأة، تغيّر المشهد، اختفى الرجل وغرقت في عالم من النور والبياض، لم أستطع أن أرى يديّ من كثافة الحليب، إلا أنني استطعت رؤية دافني التي كانت تسبح بين ملايين الأطفال الآخرين في بركة كبيرة من الحليب تمتد على طول الأفق. وجدتني صغيرًا، وناعمًا، وقصيرًا،

عندئذ أيقنت أنني في عالم ما قبل الولادة، حيث كل الأشياء غارقة في النور والبياض، كنا نرى كل ما سيحدث في المستقبل، ولم يكن ذلك يخيفنا.

لم نكن نفكر كثيرًا في الوقت، إذ إنه لا وجود للزمن قبل الانفجار العظيم، لذلك كنا نعوم في اللاشيء، منطقة غارقة في العدم ولا وجود لها، أقرب إلى الحالة المجردة، على الرغم من ذلك كنا موجودين فيما يشبه الحلم، لا يعرف عنا سوى الخالق، ثم قامت مخلوقات النسيان بمحو كل شيء عند الانفجار الكوني، ثم بدأ الزمان والمكان والإنسان، وبناء ذاكرة جديدة.

أنا الآن، أسبح في بركة طافحة بالحليب، مع ملايين الأطفال، بعد خمس دقائق سأخرج وأجد دافني جالسة على طرف البركة، ستقول لي: مرحبا كاظم. سأقول لها: مرحبا دافني. وبعد عشرين عامًا سأراها في ثوب الزفاف واقفة إلى جانبي، بينما المدعوون يلقون فوقنا الورد، ويهتفون: زواج سعيد. سأراها فيما بعد وهي غارقة في دمها، إثر طعنات حادة في أرجاء جسدها كافة. عند هذا المشهد الدموي المخيف، صحوت فزعًا من نومي، ذهبت إلى النهر وغسلت وجهي بالماء: هل بوسع الحلم أن يكون بهذه الدرجة من الوضوح؟ لماذا لا يكون الحلم هو الحقيقة، والواقع هو الوهم، مادام يحمل هذه التفاصيل والملامح والملمس والرائحة؟ هل ستموت دافني؟ إنني لا أحتمل مجرد فكرة فقدانها.

استيقظت من نوم طويل، خيل إلي أنه امتد يوماً كاملاً، لأغرق في نوم أطول وحلم جديد، كانت الأحلام مثل صناديق بعضها داخل بعض، أنتقل بين عوالمها بسرعة، كل عالم يسلمني إلى عالم آخر:

ما إن تراءت لي المدينة من نافذة الباص العمومي، حتى تحفّزت ذاكرتي، قفزت نحو السطح كل الذكريات التي ظننتها منسيّة. «عشرات السنوات من الغياب» قلت لنفسي، في عمر يتجاوز الستين.

ـ أظنّك أتيتَ كي تتطهّر.

قالت الفتاة الشابة التي كانت تجلس في جواري، وكأنها سمعت داخلي.

أجبتها دون أن ألتفت نحوها: تستطيعين العودة. زمّت شفتيها باستياء، ثم قالت بحزم: لن أعود، أشتهي رؤيتك وأنت تتألّم!

عينان تصرّان على معاقبتي، ودفعي دائمًا نحو الشعور بالذنب، ألا يكفيها ما فعلته بي سنوات الغربة والتشرّد؟ كلما نظرت إلى عينيها، رأيت الحقد وشهوة القتل يرشحان منهما، وتذكرت كيف رافقني البؤس وسوء الحظ منذ ولادتها.

الرجل الستيني (يشبهني إلى حد كبير) والفتاة الشابة (التي تشبه ابنتي سيلينا إلى حد كبير) وهما يتوجّهان نحو مقبرة المدينة. كنت لها احتمال أبٍ سيئ وغبي في تربية الأطفال، هي كانت لي مشروع عاهرة محتملاً، فقط ولا غير. «المارّة جميعهم أولاد حرام» انبثقت هذه الفكرة الخبيثة في رأسي، ثم جرت مع مكونات الدم من خيانة ولامبالاة.

أرادت لصوتها أن يخرج قويًا، لكنه خرجَ ضعيفًا يشوبه الحزن.

ـ لماذا؟

لم أشفق عليها. بالعكس، راودتني رغبة مُلحّة بأن تكمل سؤالها «لماذا قتلتها؟» لأبوح بكل شيء في وجهها، داخل الباص، ووسط المدينة التي أشُكّ في عفتها. أن أصف ما يتراءى لي من صور: رضيعٌ مُلقى عند بابِ الجامع، وجهه ليس غريبًا. امرأةٌ عاقر تمرُّ مصادفةً، تلفّهُ بخرقتها وتهرب به إلى بيتها. شابٌ في العشرينات، ونحلةٌ تعود إلى ما قبل التاريخ تلسعهُ في خصيتَيه، يُستثار، يقلب قفير النحل كلّه، ويسفك العسل المقدّس. جثّةُ ستيني في مقبرة، ما زالت طازجة، يشتهيها قبر،...

لكنّها قطعَت حبل أفكاري، حين قالت فجأة دون سابق إنذار.

ـ أنظر، أنظر، تبدو المقبرة حديقة ورد.

ـ لا إنها ليست كذلك، ولن تكون.

ـ أكرهك.

ـ أعلم.

وأكملت في سرّي ما خشيت أن أجهر به: «كان عليّ أن أقفل رحمها بقفل معدني، حتى تموتي اختناقًا وجوعًا».

ـ كيف كذبتني؟

رددت عليها بقسوة: مثلما يقول الأهل لأولادهم حين يسألون عن كيفيّة مجيئهم إلى الحياة، اشتريتك من السوق.

(١٠)

كانت حياة التشرد قاسية، لم تكن لدي القدرة على المواصلة، حيث الفقر والجوع والجريمة والدعارة والاغتصاب ومطاردات الشرطة والموت بالتسمم أو بالقتل على أيدي متسكعين مجهولين. هربت مثلما اعتدت أن أفعل طوال حياتي، تركت أصدقائي من المتشردين وعدت من جديد إلى المنزل. هربت من الحقيقة لدى الناس البسطاء، تلك الساكنة في الهوامش والتفاصيل، إلى عالم ينتج آلاف الحقائق يوميًا، عبر الماكينة الإعلامية والكتب، برعاية رأس المال والسياسيين ورجال الدين. يبدو أن هذا العالم أصبح قذرًا سواء في الغرب أو الشرق، في المجتمعات الحديثة أو المجتمعات التقليدية، الرأسمالية أو الاشتراكية، كأنهم أقنعة متعددة لوجه واحد.

عشت الجوع والعنف النفسي، الاغتصاب، الضرب، محاولات الانتحار أثناء طفولتي. رأيت الجحيم، وبقيت صامتًا لأني كنت من دون صوت. كان الخوف يعشش في الحنجرة، وما عشته أثناء التشرد كان صورة مكبرة لما مررت به في طفولتي. ربما كانت دافني على حق، حينما قالت: أتيت هكذا إلى الدنيا، إنها حياتك. ماضيك بعقده ومشاكله سيلاحقك حتى آخر عمرك.

لأول مرة منذ عام، ذهبت إلى الحلاق الذي قام بإزالة شعر الرأس والذقن. حين عدت إلى البيت، أخذت حمامًا ساخنًا مرة أخرى، وارتديت ملابس نظيفة وتعطّرت. عندما نظرت من الشرفة إلى

شوارع المدينة، وجدتها هادئة كالعادة، باستثناء الموسيقى المنبعثة من البار المجاور. خيّل إلي أصابع دافني وهي تتحسس أطراف جسدي، كانت النار لا تزال تشتعل فيه، لقد اشتقت إليها ولم يعد لدي قدرة على الانتظار.

تذكرت كلماتها في أول الحب: سأحبك حتى أفنى فيك. أنت قدري. أحبك، أيها العربي. أشتهي أن أحبل منك. أشتهيك عندما تمطر الدنيا. أريد أن أشبع منك. رأيتها أمامي، تعزف على كمانها، ثم تسحبني إلى حلبة الرقص، كانت حقيقية بلحمها ودمها، تشممت رائحة العطر الذي تضعه، تحسست جلدها، وتتبّعت ارتعاشات صدرها.

كانت الساعة الثامنة مساءً، عندما اشتعلت أضواء الشوارع، وازدادت حركة المارّة. رفعت سماعة الهاتف: مرحبا.

خيّم الصمت على الناحية الأخرى.

ـ ألوو.

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن أسمع صوت سيلينا.

وسمعت صوتًا يجهش بالبكاء، ثم قالت بنبرة حزن لم أسمع مثلها في حياتي.

ـ ماتت.

ـ كيف؟ كيف؟ لا بد أنك تمزحين.

ـ لقد شنقت نفسها.

ـ هذا جنون، أنا قادم إليك.

تجمّدت في مكاني أكثر من دقيقتين، كأني فقدت عقلي، لا حركة، بالكاد استطعت أن أتنفس. أصبحت في لحظة مثل أثاث البيت، ساكنًا، لا أتفاعل مع أي شيء. أخيرًا، بدأت بتحريك يدي اليمنى، ارتكزت على أحد الكراسي، شردت قبل أن أستيقظ على هول المفاجأة. حاولت أن أستجمع قواي، وأتماسك.

سعيت إلى الموت، إلا أنه قام بخداعي ليقطف روح ابنتي. آه، أيها الكلب القذر، جبان، تطعن في الظهر. كنت أهذي وأرتجف. أخذ وجهي بالاصفرار، حدقت إلى صورتها بعينين جاحظتين، حمراوين، غارقتين في الدموع. بعدها سرت في جسدي طاقة غامضة، انفجرت دفعة واحدة، نهضت بسرعة، جذبت الكرسي الذي كنت أجلس عليه، ثم رحت أكسر كل ما أجده أمامي. المرايا التي كانت تنتشر على طول الصالون، المزهريات واللوحات، الكؤوس الفارغة، رغم كل ما فعلته لم أشعر بالهدوء، كان الغضب يتفجر في كل الأرجاء. أكملت على الستائر ورحت أمزقها. هدأت قليلًا وتمددت على الأريكة.

اتصلت بي وأنا في الطريق، سمعت صوتها هادئًا ومستسلمًا.

ـ أنا امرأة مجنونة، قدم في الجنة وقدم في الجحيم، عين على الحياة، وعين على الموت.

ـ ما هذه التفاهات التي تتفوهين بها؟

ـ لم أحب رجلاً مثلك. أحبك.

ـ مجنونة ...

ـ اسمع، بعثت لك رسالة عبر الإيميل، اقرأها حينما تعود.

ـ ماذا حدث لسيلينا؟

أخذت بالكلام كأنها تخوض في حديث أخير، فم لا ينفث سوى الألم. أوقفت السيارة بجانب الطريق وأخذت أستمع إليها.

ـ لقد اغتصبت، كانوا خمسة شباب بين السابعة عشرة والعشرين. خرجت مساء السبت كعادتها مع صديقاتها، لم أكن أعرف أنها كانت تذهب إلى الملاهي الليلية، أرغموها على شرب الكحول وتعاطي المخدرات، ثم دفعوها نحو الحمام، وهناك تعاقبوا عليها الواحد بعد الآخر، صرخت من الألم وسال الدم بين ساقيها، ولم يسمعها أحد، ثم ضربوها ضربًا مبرحًا على أجزاء جسدها كافة. التقطت ابنتك من الشوارع، هل تسمع؟ بعدها ظلت صامتة، لم تفتح فمها بحرف واحد، كانت مثل الحطبة الجافة، شاحبة، وكانت تأتيها نوبات من الصراخ والبكاء أثناء الليل، كانت تموت في اليوم الواحد ألف مرة، حاولت أن أصل إليك، لكنك اختفيت كأن العالم ابتلعك.

وأقفلت الخط.

كانت الدموع تنهمر بغزارة من عيني، بينما أخذ جسدي يرتج من نوبات الألم. عندما وطئت قدمي العتبة الأولى لبيتها، تجدد المطر من جديد، سمعت دوي الرعد يزلزل المدينة بصخبه، ناشرًا الذعر والخوف في كل مكان. كانت الأجواء تفوح برائحة غامضة، تحفز الحواس.

عدت إلى الخلف ووقفت تحت المطر، مددت يدي نحوه كالمتسول، رفعت نظري صوب السماء، كنت أناجي وأهذي وأرتجف.

وجدت الباب نصف مفتوح. استطعت أن أشم رائحة الموت المنتشرة في البيت. كنت واثقًا أن هناك مصيبة أخرى قد وقعت، كان قلبي يخفق بقوة. أطرافي ارتجفت، وشفتاي تيبستا. بعد أن تمكنت من فتحه، انسللت إلى الداخل، ثم ألقيت نظرة على الصالون، لم أجدها، فانتقلت إلى غرفة النوم ثم المطبخ وأنا أناديها. لم يكن هناك أحد. فجأة، رأيت قطرات دم على الأرض، اقشعر بدني، أحسست بالخوف، تتبعت خط الدم الذي سار بي مباشرة إلى الحمام.

حين دخلته وجدتها في المغطس عارية، والكمان في حضنها. امتزج دمها بالماء والصابون، وكان وجهها شاحبًا، شعرها مبعثر، ويداها تتدليان إلى الخارج. رغم الشحوب كان ثمة ابتسامة غريبة على وجهها، كأنها تسخر من كل ما يحيط بها. فغرت فمي من هول المفاجأة، انهرت تمامًا، وجدت نفسي أسقط على أرضية الحمام. كانت دموعي تنهمر بغزارة، رحت أصرخ، وأضرب رأسي بطرف المغطس حتى سال خيط من الدم على وجهي.

هي ذي دافني غارقة في دمها. أستطيع أن أشعر بجسدها البارد كقطعة جليد، وأرى فتنتها الهاربة في كل الاتجاهات. إنها ليست كابوسًا من كوابيسي، وإنما الحقيقة بصورتها الأجمل والأبهى، إذ يتحرر العقل من الجسد: عجين بشري ممزوج بالدماء، يعوم في مياه المغطس.

أين هو الموت؟

بحثت عنه وراء الستائر والمزهريات. فتشت في جيوبي بيدين مضرجتين بالدم: هيّا، اخرج أيها الجبان. فقدت عقلي من الصراخ، حاولت أن أضرب نفسي بشظايا الزجاج المكسور، لكن جسدي كان صلبًا ولم يظهر أي ردة فعل. انبثقت في رأسي الأسئلة: من أنا؟ أين أنا؟ كيف أتيت إلى العالم؟ وإذا لم يكن هناك موت، فأين المخرج من هذا العالم؟ كل هذه الأسئلة خرجت على شكل صرخات موجعة.

كان مشهدًا كئيبًا في مسرحية هزلية، بلا متفرّجين. لم أقدر على التعبير أو قول أي شيء غير الصراخ. راودتني الرغبة في تمزيق كل شيء، رحت أشتم وألعن، كنت على استعداد لأن أحرق العالم، وأحرق نفسي لأعيد تجميعها من جديد، أنا الإنسان، يراني الآخر إما عبدًا وإما إلهًا وإما كلبًا، لكني في الحقيقة، إنسان بكل انتصاراته وهزائمه.

بكيت بكاءً مريرًا، يُبكي الحجر والشجر. نزفت مثلما لم أنزف يومًا، ورأيت حياتي مأساة إغريقية: سمعت صوت أمي يأتيني حزينًا ومنكسرًا: يمّا، ليش كسرت حالك؟ نعم يا أمي لدي الذكاء، لكن ليس لدي حكمتك، إنها الحقيقة المؤلمة. أريد أن أبكي على صدرك، وأنسى من أكون.

ألم يكن لديها خيار آخر غير الموت؟

لماذا تنسحب من هذه الحياة بهذه السهولة؟

كان رأسي يشتعل بالأسئلة، وجسدي قطعة من جليد. لا شيء سوى البرد ورائحة الموت التي انتشرت في كل مكان.

ضغطت على رأسي بكلتا يديّ، شعرت بأنه سينفجر من الألم. صرخت مثل حيوان مجروح: أريد أن أموت ... أين الموت يا إلهي؟

(١١)

غادرت منزل دافني الساعة السابعة صباحًا من اليوم التالي، بعد ليلة طويلة قضيتها في البكاء على جثمانها. عبرت رأسي العديد من الخيالات الغريبة والأفكار السوداوية، تذكرت اللحظات التي جمعتنا، والكلمات الأخيرة التي قالتها لي قبل أن تموت: بعثت لك رسالة عبر الإيميل، اقرأها حينما تعود.

ماذا كتبت في الرسالة؟

كان لا بد لي أن أعود إلى بيتي لأفتح الإيميل، قلت لنفسي بالتأكيد إنها تحتوي على معلومات مهمة قد تشير إلى أسباب انتحارها، أو أسرار قررت أن تكشفها لأول مرة، لذا ركبت سيارتي ولأن الشوارع كانت خالية، وصلت بسرعة. دخلت البيت وذهبت فورًا نحو اللابتوب، فتحت الإيميل، فوجدت الرسالة التالية:

حبيبي كاظم، نعم، سأقولها رغمًا عن أنفك أيها المجنون: أنت حبيبي.

ستقول إنني أكثر جنونًا منك، وبأني امرأة متهورة، يجري نار

الغضب في شرايينها. هذا صحيح، لقد اخترت الموت لأنه الحل الوحيد لإنهاء هذا العبث، إيجاد وسيلة ما للتخلص من معاناتي الإنسانية.

هل هذا هروب من مواجهة الحياة أم شجاعة كبيرة؟ لا يهمني الجواب. أريد أن أقول إنني أحببتك، لكنك أجبرتني على أخذ أكثر الخيارات خطورة. أحيانًا يصبح الاهتمام بالنسبة إلى المرأة أكثر أهمية من الحب نفسه، لقد قتلتني في اليوم الذي أحببتك فيه، كان حبنا عميقًا وغريبًا، لذلك جروحنا عميقة لا تندمل بسهولة. قلت لي: لا تأخذي الحياة على محمل الجد، لأنها ستكسرك، اعتبريها مزحة، وستضحكك الأشياء التي كانت تبكيك. ليست لدي برودة أعصابك. هل ستسامحني؟ أرجو أن يأتي اليوم الذي تنساني أو تسامحني فيه. أمامك، هذان الخياران: النسيان أو المسامحة. كنت أكثر قسوة منك، لقد أوجعتك يا كاظم، استنزفتك، استغللت جروحك ومرضك ومتاعبك. أنا سبب كل ما أنت فيه، كنت أناولك أقراصًا من عقاقير ومهلوسات ومخدرات بمساعدة ليوناردو، وأنت في قمة سكرك ونشوتك، أردت أن أشبع حاجة داخلية بإيذائك، كنت أحبك إلى درجة الكره، والاستمتاع بألمك. كنت أشعر بالنشوة وأنا أراك ضعيفًا، تائهًا، منكسرًا. ربما تسأل نفسك: من أين لك بكل هذا الحقد؟ أنا لا أحقد عليك، بل أحبك لدرجة أني أشتهي قتلك.

هل تصدق؟

كان معك حق، لقد خنتك، مرة وعشراً وألفاً، هل تغفر لامرأة خائنة؟

كل ما حدث بسببك، أحببتك حتى الموت، وكرهتك حتى الموت.

كل ما كتبته في مسوّدة روايتك «رجل واحد لأكثر من موت» كان صحيحًا، كيف عرفت ذلك؟ رغم أننا حاولنا ألا نترك خلفنا أي دليل، يشي بخيانتنا لك، لقد تلاعبنا بحياتك، وزدناك تخيلات وأوهاماً وأمراضاً. أنا امرأة وقحة، كان عليّ أن أبقى معك طوال الحياة، أحتمل غضبك، أساندك في أزمتك النفسية، وأقف إلى جانبك، مثلما وقفت إلى جانبي.

كنت مريضة بهواجسي، حلمت بأن يرسمني فنان، هكذا، أن أرى جسدي في لوحاته، ثم يدخل إلى التاريخ، ويصبح حديث الناس عبر العصور، كما حدث مع لوحة الموناليزا، أعجبني اسمه وشكله، وتذكرت ليوناردو دافنشي. لا أعرف ماذا حدث، لم أفهم كيف سارت الأشياء، وجدت قلبي معلقًا به، حاولت الابتعاد عنه لكني لم أستطع. ذهبت إلى مرسمه، حدث معي بالضبط ما رويته في مسوّدة روايتك، لقد مارس علي غوايته، كان شيطانًا، لعب بعقلي وأعصابي وقلبي. التقطني أنت ليلتها من الشارع، بينما كنت غارقة في انهزامي وعهري، احتويتني وكأني جزء منك، شددتني يا مجنون إلى حضنك، وأطبقت عليّ بذراعيك القويتين.

وعدت إليه بعدها كأنه ساحر، قال لي: سأجعل منك امرأة الاستحالات، سأخلقك من جديد بألواني وسأعجن جسدك بأناملي.

أنا متأسفة، أنا متأسفة، أعرف أني امرأة قاسية ومخدوعة ومجنونة، لكن هذا ما حدث. خسرتك وخسرت سيلينا، وخسرت حبنا الذي كان بالإمكان أن يكون أجمل حب في الدنيا، سامحني!

حبيبتك دافني.

أخرجت المسدس من درج المكتب، وحشوته بالرصاصات. قدت السيارة مسرعًا إلى بيته، كان المسدس على المقعد الجانبي، مثل أفعى سوداء باردة. اشتعل دمي بالغضب وشهوة القتل، كنت قد قررت أن يكون موته أسطوريًا، متفردًا يذكره التاريخ ولا ينساه، لذلك أخذت أرسم الخطة في رأسي. كان الجو ماطرًا ومدويًا بالعواصف والرعود، ما إن وطئت أرضية الشارع حتى ازداد تساقط الأمطار. زحفت بالمعطف الشتوي الأسود والمسدس في يدي، بينما تدور في رأسي فكرة واحدة، أن أقتله. قرعت الجرس، لكنه لم يفتح الباب، بقيت أقرع الجرس طوال ثلاث دقائق، لأنني كنت واثقًا أنه في الداخل ولم يخرج، فالجو عاصف وهو يقضي أغلب وقته في المرسم.

انفتح الباب وأطل غريمي، كان يرتدي ثوب الحمام وفي فمه سيجارة مطفأة. نظرت إلى عدوّي، فرأيت الذعر في عينيه، واهتز جسده بأكمله، قبل أن يحاول إغلاق دفة الباب. دفعته بقوة نحو الداخل ومسدسي مرفوع في وجهه. لفحتني الحرارة المنبعثة من

التدفئة المركزية، وتكوّر ألم حاد في الرأس، صوت طنين شديد، وقلبي اشتغل كمضخّة بقوة جنونية، فتدفق الدم بكميات كبيرة في الشرايين.

لا شيء، لا شيء سوى شهوة القتل والعدم.

ـ هيّا، ادخل أيها الكلب.

خرج صوته الواهن والمهزوم من حنجرته اليابسة، جارًّا خلفه كل صخور خيانته: ما هذا؟ أنت تمزح؟ هيا أنزله.

ضربته بعقب المسدس على رأسه، فوقع على الأرض. سحبته عاريًا من شعره وجرجرته عبر أرضية الصالون، ثم أجلسته على الأريكة. كنت سعيدًا ومنتشيًا بفريستي، بينما كان غارقًا في ذله وعاره. خلعت معطفي ووضعته على ذراع الكرسي وجلست.

ـ أنت أوضع رسّام فاشل في العالم، حقير، والعدالة في قتلك، إنها عدالتي.

ـ العدالة في أن تهب الحياة لا أن تسلبها. أنت لست بإله، لذلك لا يحق لك أن تقتلني. اترك المسدس جانبًا، ولنتحدّث مثل الرجال.

هجمت عليه، ورميته على الأرض، رحت أضرب رأسه بوحشية، سمعته يصرخ من الألم، فتركته ورجعت حتى لا أفسد خطتي. أجلسته مرة جديدة على الأريكة، تراجعت خمس خطوات إلى الوراء ثم ضغطت على الزناد، فانطلقت رصاصة وخدشت طرف أذنه، راح يصرخ بجنون، فهجمت عليه ودسست فوهة المسدس في فمه.

ـ هسسس. هل تظن أنك ستموت بهذه السهولة؟ هيّا، قف على قدميك.

دفعته نحو إحدى اللوحات البيضاء. وعدت إلى الخلف عدة خطوات، قلت له: ارسم ميتة كاملة تشتهيها.

ـ ماذا؟

ـ مثلما سمعت أيها القذر، إني أعطيك امتيازات عجيبة، هل تصدق؟ ارسم كيف تشتهي أن تموت بمسدسي، هيا.

شعرت بسعادة إلهية وأنا أنظر إليه، بينما كان مستغرقًا في الرسم. كانت ثمة طاقة غريبة تحركه، اندفع نحو علب الألوان، وبدأ يمزجها ثم راحت فرشاته تتحرك على وجه اللوحة البيضاء. يا إلهي، ما أجمله من مشهد! إنه يبعث الفرحَ في النفس المعذبة. كان وجهه خليطاً من مشاعر الألم والقلق والخوف واللذة. نعم، لذة الموت والفن والسيطرة الكلية على بائس ينتظر لحظة الأجل.

الساعة ٩:١٢ صباحًا.

كان المكان مخنوقًا بالأنفاس والهواء الفاسد، وكل الأشياء تشي بالنهاية. حلّق الموت ومدّ جناحيه فوقنا، إنها اللحظات الأخيرة حيث نقطة اللاعودة. صرخت فيه وأنا أصوّب المسدس نحوه:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ لأنها دافني، إلهة إغريقية، كائن يطفح بالغرابة والجمال اللاذع والجاذبية، أنت لم تعرف قيمة ما بين يديك، ركضت خلف نسائك في الروايات، ونسيت امرأة من لحم ودم تنام وحيدة إلى جانبك في السرير.

ـ اخرس يا حيوان. لا تنطق اسمها على لسانك. لقد أغويتها وفسقت بها، حوّلتها من امرأة جميلة وزوجة صالحة إلى مجرد عاهرة وموضوع للوحاتك. ها، من المريض بيننا؟

ـ لقد تركتك، وجاءت إلي زاحفة على يديها وقدميها، اختارتني لأن أناملي تعرف قيمة ما تلمسه.

ـ إنها خائنة، الخيانة من أقبح الأمور في الحياة، إنها جرثومة تتحرك في دم الشخص، تستنزفه من الداخل، تحوّله إلى كائن بلا قلب أو عقل، وتنزع خلايا الرحمة من أعماقه، وتزرع مكانها الحقد والجفاف.

ـ الخيانة وجه من وجوه الوفاء، لقد خانتك، لكنها أخلصت لنفسها.

وجدتني أندفع نحوه: كل الزوجات الخائنات، يرددن الكلام نفسه، تعيسة في بيتي وزوجي لا يفهمني ويهملني. خفض رأسه وصرخ فيّ: أرجوك، أعتذر، سأكمل اللوحة صامتًا. حينما قمت لأنظر من النافذة حاول التقدم نحو سماعة الهاتف، فرفعت المسدس نحوه. وضعت سيجارة في فمي وأشعلتها بيد ملطخة بالدماء، ورحت أنفث الدخان في سماء الغرفة، نظرت إلى جسده الذي انكمش من الخوف. يا إلهي، كم يحب الإنسان الحياة، رغم أنها تافهة ومبتذلة! ظللت أراقبه وهو منهمك بكل حواسه في اللوحة، سألت نفسي: هل فنُّه أقوى من موته؟ سأقتله على كل حال، إن التاريخ يقدّس حتى القتلة والحمقى، ليس لي شأن به.

ساد الصمت من جديد.

الساعة ١٠

كنت أتصبب عرقًا، رغم أن الأمطار في الخارج أصبحت أكثر ضراوة. كان منهمكًا في الرسم، متماهيًا مع اللوحة بكل أعصابه. شعرت به شغوفًا بما يفعله، قلت لنفسي، سيرسم لوحة أسطورية أجمل لوحة عرفها البشر.

ـ قل لي، أين ضاجعتها؟

ـ وماذا يهمك من هذا السؤال؟ إنها أشياء حدثت في الماضي.

ـ نعم حدثت في الماضي، لكن ما زلنا ندفع أثمانها، حياتي انتهت: زوجتي وابنتي ماتتا منتحرتين.

ـ آسف، هذا أمر محزن.

ـ اخرس، هيّا، أجب عن السؤال وإلا قتلتك في الحال.

ـ حسنًا، على الكنبة وأرضية الصالون، مم على ذلك الحائط، في حوض الحمام، السرير.

عينان شامتتان وقاسيتان، لسان يقطر سمًّا أسود، لم أستطع أن أسمع المزيد فأطلقت رصاصة نحوه، أصابت كتفه اليسرى، فراح يئن مثل الحيوان، ويصرخ: كدت تقتلني. اعتصرت رقبته بذراعي، ثم دفعته إلى اللوحة من جديد، وطلبت منه أن يكمل الرسم. شعرت برغبة عميقة في أن أسحق رأسه، أحوّله إلى شظايا متناثرة في كل مكان: المخ، النخاع، الحبل الشوكي، الغدة النخامية.

ـ ألم تقل إنني سأموت يا صاحب النبوءة؟ أين هو الموت؟ لقد بحثت عنه ولم أجده.

ـ هذا هو الموت، ألم وعذاب متواصلان نتيجة المخدرات التي كنت تتناولها، أن تموت في اليوم ألف مرة نتيجة أوهامك، لكنك في الواقع لا تموت.

ـ لقد فعلتها، حاولت أن أقتل نفسي غير مرة.

ـ هذا مستحيل، الموت الحقيقي، الفيزيائي، أمر لا مفر منه.

ـ حاولت الانتحار ثلاث مرات: في المرة الأولى قطعت شرياني بالسكين، في المرة الثانية رميت نفسي عن سطح عمارة سكنية، في المرة الثالثة تلقيت رصاصتين من مجهول.

ـ هذا من صنع رأسك، المخدر الذي كنت تتناوله كان يدخلك إلى عوالم مختلفة، غريبة، المخدر سبب لك الهلوسات، ما كنت تراه من أماكن وأشخاص وأحداث، كلها كانت تدور في رأسك بينما كنت جالسًا على أريكة الصالون.

ـ أعرف أنواع المهدئات والمخدرات التي كنت أتناولها، هل نسيت أنني كنت طبيبًا؟

ـ كانت دافني تعطيك جرعات من أقوى المهلوسات في العالم، يمتد تأثيرها حتى بعد أن تتوقف عن تناولها، وكل ما رأيته لم يكن أكثر من أوهام، نتيجة اضطراب وظيفة الدماغ. لقد كانت تجرّب فيك كل أنواع العقاقير والمهلوسات التي استطاعت الحصول عليها، وعالم

الأحلام، إنه رهيب وعميق أكثر مما تتصوّر، عندما يتداخل الحاضر والماضي والخيال.

ـ أنت تكذب. الكذب يجري في دمك. لماذا كنت تحاول إقناعي بالرجوع إلى دافني طوال الفترة الماضية؟

ـ لأنها أصبحت مستهلكة، أخذت منها كل ما أردته، لذا أصبحت مزعجة بالنسبة إلي، وكان لا بد من إقناعك حتى تتركني وشأني. كانت تمقتك وتمقت الحياة معك، كان بوسعها أن تنفصل عنك وتبدأ حياة جديدة، إلا أنها آثرت تعذيبك وإيلامك قدر المستطاع.

شعرت بصداع رهيب في رأسي. فكرت في إطلاق النار، والانتهاء من الأمر بسرعة، لكن ثمة أسئلة بحاجة إلى أجوبة.

ـ إلى أين تريد أن تصل في كلامك؟ تريد أن تقول إن حبنا الذي عمره أكثر من خمسة عشر عامًا، لم يكن سوى كذبة، مسرحية، وهي كانت ممثلة بارعة! كيف بوسع إنسان أن يكذب ويمثل طوال هذا الوقت؟ أنا لا أصدق، هذا مستحيل.

ـ لقد أعطتك فرصة، أعتقد أنها كانت في الليلة التي أتت فيها إلى بيتك، ربما شعرت بالندم وأرادت إصلاح الخراب، لكنك ضربتها وأهنتها، فكانت النهاية، لقد كرهتك حتى الموت، بعد أن أحبتك حتى الموت. هل تتذكر حديثنا حول لعنة كاساندرا، اللعنة التي أنزلها بها أبولو بأن لا يصدق نبوءاتها أحد؟

صرخت فيه: اللعنة عليك، وعلى كاساندرا وأبولو، ماذا تريد أن تقول؟

ـ كان أبولو يلاحق النساء دائمًا، ويحول الواحدة منهن في النهاية إلى مسخ، دافني أصبحت شجرة غار وكليتيا تحولت إلى عباد الشمس، ومنح العرّافة كوماي الخلود، فظلت تتقدم في العمر.

كان جبيني يتصبب عرقًا، بينما يدي تضغط بقوة على المسدس: هل تسكنك روح أبولو؟ إلى ماذا حوّلت دافني؟ قطة؟ قوس قزح؟ دب باندا؟ وأنا، هل أصبتني بالخلود؟

ـ ليس بالضبط، ثمة تقاطعات مدهشة في مصائرنا، أما بالنسبة إلى الخلود، فقد قلت لك السبب، إنها الأحلام.

ما حدث بينكما أنت ودافني في المرسم، هل كان حقيقيًا أم خيال، لا تقل لي إنه مجاز؟

ـ حقيقة. قالت لي دافني إنك كتبت الحادثة في روايتك، وكانت صحيحة وكأنك كنت معنا، أعتقد أنك كنت باتصال ذهني مع زوجتك بواسطة التخاطر. إن الإشارات الكهرومغناطسية كانت تعمل مثل كاميرا، ونقلت إليك كل شيء، أظن أنه كان أمرًا مؤلمًا بالنسبة إليك، الخيانة مؤلمة.

الساعة ١٠:١٥

شحب وجهه وبدأ بالاصفرار، كان جبينه ينزُّ عرقًا فيختلط بالدم في مشهد مثير للاشمئزاز. احتقنت بالغضب، الدم اللعين اشتعل في رأسي، بدت الغرفة قطعة من الجحيم، كان ليوناردو ساكنًا، مندمجًا مع الألوان وغواية الأبيض، شاردًا في مكان آخر. أصابت يده رعشة

مفاجئة ثم كأنها شلّت، توقف لحظات، قبل أن يعود إلى الرسم بوتيرة أعلى، ارتفع الإيقاع، وأخذت ريشته بالتحرّك وكأنها في سباق مع الزمن، زمن التوتر والجنون. بعد دقيقتين، توقف وقال:

ـ هذا يكفي، ليس لدي قدرة على المواصلة، إني أنزف، سأموت إن لم أذهب إلى المستشفى. قلت له بأعصاب باردة: ستموت على كل حال.

ألقيت نظرة على اللوحة فوجدتها شبه مكتملة.

ـ يكفي هذا، إن جمال الأشياء في نقصانها، لن تضع توقيعك عليها، ستكون اللوحة الأخيرة في حياتك من توقيعي.

صوبت مسدسي نحو قدمه، وضغطت على الزناد، فسقط على الأرض. زحف على السجادة الأرضية مادًا يده نحوي، وعيناه ممتلئتان بالذعر وطلب المغفرة. قال لي بصوت أنهكه التعب: اترك هذا المسدس اللعين، سأعطيك كل ما تتمناه، اتركه. إنه ليس مزحة، بل أداة للقتل، ارحمني، ارحمني.

ـ دعني ألقي نظرة متأملة على اللوحة.

كانت أجمل لوحة رأيتها في حياتي: رأس بشعر أشعث، ووجه شاحب بملامح مرتبكة ملطّخ بالدماء، غني بالانفعالات، وفوهة مسدس أسود يضغط على أعلى الرأس، بينما الرأس كاملًا يرتكز على لوحة أخرى. لوحة غير مكتملة، ذات طابع استثنائي، باذخة بالغموض الفني، ضربات الفرشاة التي تنطبع على اللوحة، تبعث على

القلق والهم الوجودي، وتحمل رسالة وداع للعالم ومرثية للإنسان. رغم مشاعر الذعر والقلق التي تتسم بها اللوحة، إلا أن ثمة سخرية ما، ابتسامة غامضة، عبثيةـ خفيفة لا تكاد تظهر مشوبة بالعاطفة والتوتر.

ـ ماذا نسمّي هذه اللوحة؟ أقترح أن نسميها اللوحة الأخيرة. هل تريد أن أعدمك بهذه الطريقة، لوحة داخل لوحة؟

ـ جميل، لم تخطر على بالي هذه الفكرة، إنها اللوحة الأخيرة، لا تطلق النار.

ـ لماذا لا تملك شجاعة فان جوخ، وتطلق رصاصة على صدرك؟ إنه أمر بسيط، وأنا أعطيك فرصة ذهبية.

كان منبطحًا على الأرض، عاريًا، متكورًا على نفسه مثل الجنين، قال بصوت واهن: لقد أخطأت، دمّرت حياتكما، وقضيت على زوجتك وابنتك، لكني أستحق الرحمة.

ـ أعطني سببًا واحدًا، لأبقيك على قيد الحياة.

وحين لم يأتني الجواب، أطلقت رصاصة على قدمه الأخرى. صرخ من الألم، وراح ينتفض، ثم وثب نحوي كالنّمر. يا إلهي، إنها حرارة الروح تقاوم، تحارب، إنه يريد الحياة، يحبها، قفز علي. دفعته بعيدًا عني. أوه، إنه قذر ووقح.

قبضت عليه من عنقه وسحبته نحو اللوحة التي رسمها، وضعت رأسه مباشرة فوق الرأس المرسوم، وأطلقت النار على رأسه من الأعلى، فانطلق رشاش من الدم ولطّخ اللوحة. سقط على الأرض،

ميتًا، وتكوّم تحت قدميّ، بينما تجمّع الدم في بركة تحت رأسه. رميت المسدس من يدي، أصدر صوتًا عاليًا حين لمس الأرض.

جثّة ودماء ومسدس بارد.

سحبت نفسي وخرجت إلى الشارع بقلب مثقل بالأوجاع، ورأس ينزف من الألم، مشيت والمطر يتدفّق فوقي بضراوة. كان الحي خاليًا من المارة، غارقًا في صمت رهيب، سوى هدير الألم في رأسي، وصوت دافني الذي يأتيني من الذاكرة: أحبك حتى أفنى فيك.

هل أستحق الموت أم الحياة؟ هل سيأتيني الموت أخيرًا بعد طول غياب؟

ماذا لو كان كلام دافني صحيحًا، بأننا مجرد إسقاطات لأشخاص عاشوا وماتوا، ونحن لسنا سوى أشباحهم؟ تذكرت ما قالته لي في لقائنا الأول، ونحن ننظر إلى النجوم: إنها ميتة، لقد احترقت منذ ملايين السنوات، وما نراه ليس أكثر من كذبة، إنها إسقاطات ضوئية. إننا نعيش كأشباح في حلم، حياة وهمية.

كان المسيح يبعث بتلاميذه كحملان إلى قطيع الذئاب، لكني لست المسيح، أنا رجل حقود ومليء بالكراهية، والكراهية تولّد الانتقام. كنت أشعر بالظلم، والعالم يلتف حول رقبتي كحبل ثخين، تلقيت الطعنة تلو الطعنة من أقرب الناس إلي: والدي، زوجتي، ابنتي التي اختارت الموت على العيش معي. لماذا لم أسامح وأحاول نسيان الماضي؟ كبر الحقد في صدري، حتى لم يعد هناك متّسع للحب،

ورغبت في الثأر أكثر من أي شيء آخر، فدمرت حياتي وحياة الآخرين. هل أنا ضحية أم جلاد؟ هل العدالة في الانتقام؟ لماذا تأخذنا الحياة إلى دروب لا نشتهيها؟ أصبحت أعيش في سلسلة من الانتقامات. آه، كم خدعت نفسي وكذبت عليها! إنه الغرور الأعمى الذي دفعني نحو الهاوية والسراب. يا إلهي، هل أنا سيئ إلى هذه الدرجة؟

أحسست بحنين مفاجئ إلى مسقط رأسي، القرية المطمئنة على ظهر جبل، المتحكمة في حياتي كإلهة إغريقية، شوق عارم انبثق فجأة إلى بيت العائلة، أمي، غرفتي الصغيرة. كان يصلني من بعيد موال فلسطيني حزين يدمي القلب. كانت دافني، بالنسبة إلي، أسطورة، حبيبة مستحيلة، لكني اكتشفت بعد فوات الأوان أني لم أعرف من تكون، كيف تفكر، ماذا تحب وماذا تكره، كانت لوحة تجريدية، قصيدة شعر، أغنية شعبية فاترة، رواية نسيت أني مؤلفها، فرحت أتماهى معها.

خمس عشرة سنة من الوهم والكذب، انتهت بهذه النهاية التراجيدية، لقد عرف ليوناردو مفاتيح وجودها، أسرارها، بينما ظلت عصيّة عليّ، امرأة مجهولة. سلمته جميع مفاتيحها وأباحت نفسها له، قالت له كل شيء، تعرّت أمامه وظهرت على حقيقتها، بينما ظلت ترتدي الأقنعة أمامي طوال سنوات. لم أعطها الفرصة لتكشف عن نفسها، لم أترك لنا فرصة لنتعرّف أحدنا إلى الآخر، نتكلم، نتناقش، أحببتها في قمة وحدتي، أردت امرأة استثنائية، ملهمة، وبحثت عنها في كل مكان، فوجدتها في خيالي.

هل أحببتها لأموت بين يديها؟ طالما كان الموت هو الحل الوحيد لتحرُّر العاشق من معشوقه، حين يصل الحب إلى طريق مسدود، ويصبح اليأس عنوان العلاقة، فيغدو الشخص يائسًا من الحياة والعالم، فيختار الموت نهاية لحكاية حبه. كل حب يبدأ بمزحة أو تفاهة أو لحظة حمق، ثم يبدأ العشاق بإضفاء هالة من سحر الأسطورة على قصة حبهم، فيتحول هذا الهزل في النهاية إلى مسألة حياة أو موت.

كانت السماء ملبدة بالسُّحب السوداء، مشيت سيرًا على الأقدام نحو شمال المدينة، امتزجت على وجهي الدموع بالدماء بمياه الأمطار، بينما كان داخلي ممزقًا بآلاف المشاعر التي لا يمكن وصفها. هل سأجد دافني في المنزل إلى جانب موقد النار، وإلى جانبها سيلينا؟ هل سأحضنهما من جديد وأغمرهما بالحب؟ رحت أمشي دون توقف، الحل دائمًا في المشي الذي بلا هدف، رحت أجتاز الكيلومترات في البرد والمطر والرياح العاصفة.

رأيت دافني على الضفة الأخرى من النهر، بشعرها الأسود الطويل وعينيها القاتلتين، تمدُّ نحوي يدها، لكنها لا تلبث أن تدير لي ظهرها، ثم تأخذ بالمشي في الاتجاه المعاكس، ناديتها، صرخت بصوتي المبحوح والمكلوم، لكنها لم تسمعني واستمرت في السير. وقفت على حافة السور عند جسر «البونتي فيكيو»، يداي مغروستان في الإسمنت، يفصلنا نهر أرنو، عين على الماء وعين عليها. وقفت وحيدًا وسط الرياح العاصفة، تسلقت الجدار القصير، أغمضت عيني

وأخذت نفسًا عميقًا، علي أن أقفز وألحق بها، تدفّق الدم في جسدي، شعرت بطاقة غريبة، رأيتها تبتعد، لا وقت، وجدتني أحلّق، أطير، أهبط، غمرتني المياه الباردة، ارتفعت وانخفضت، تكسّرت على جسدي، اخترقتني، كنت على حافة الموت، وجدت نفسي في دوامة تسحبني نحو الأسفل، دخلت فيما يشبه المتاهة، ثم غرقت في ظلام دامس، ثقيل وعميق من دون قاع، وبدأ العالم من حولي بالتلاشي، ثم لا شيء.

لا شيء ...

النهايـة